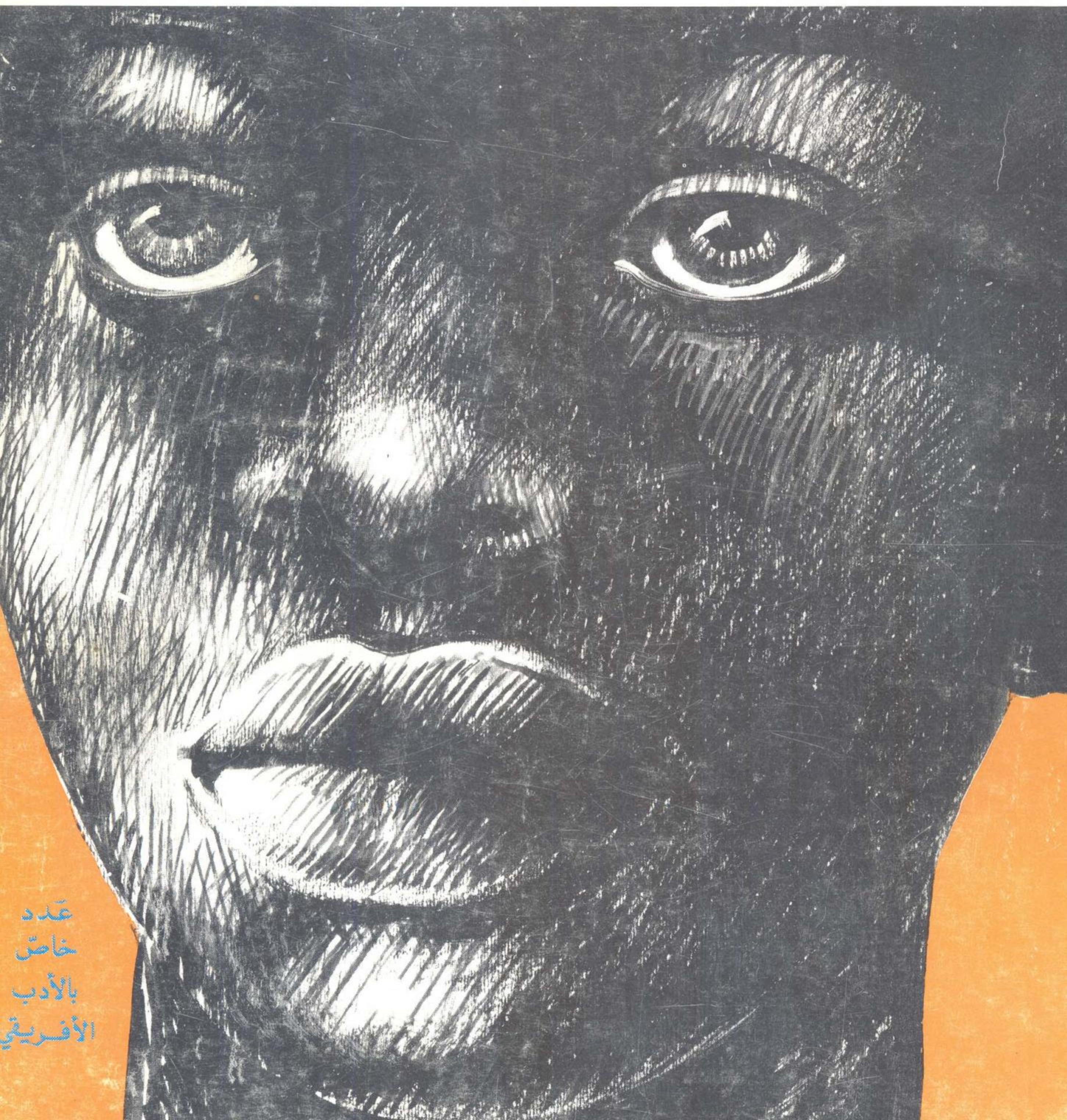


الآداب الأنجنيّة

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

العددان ٣٩ - ٣٨ شتاء وربيع ١٩٨٤ - السنة الحادية عشرة



عدد
خاص
بالأدب
الأفريقي

الآداب الجنوبية

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب المتربي بمصر

العددان ٢٩ - ٣٠ شتاء وربيع ١٩٨٤ - السنة الحادية عشرة

المدير المسؤول:

علي عقله عرسان

رئيس التحرير:

د. حسام الخطيب

هيئة التحرير:

د. هاني الراهن

د. ناديا خوست

الياس بدريوي



مكتبة لسان العرب

www.lisanarab.com

lisanerab.com

رابط بديل

الاداب الاجنبية

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

الاشتراك السنوي

في الجمهورية العربية السورية :
• للافراد والدوائر الرسمية
٢٤ ل.س

في البلاد العربية :
• البريد العادي ٣٦ ل.س

في البلاد الاجنبية :
• البريد العادي ١٢٥ ل.س
تضاف تكاليف الطائرة في حالة
الاشتراك بالبريد الجوي .

الراسلات

باسم رئيس التحرير
الادارة
اتحاد الكتاب العرب
دمشق - اوستراد المزة
ص . ب ٢٢٢
هاتف ٨١٦٢٩٩
= ٨١٦٣٢٩

«الاداب الاجنبية»

مجلة فصلية تصدر كل ثلاثة
أشهر تعنى بنشر المواد
المترجمة من الادب العالمي
في مجالات الشعر والقصة
والمسرحية وغيرها من صنوف
الادب الابداعي وكذلك في
مجالات النقد والبحث الادبي .
* توجه جميع المراسلات
باسم رئيس التحرير .
* يرجى من الاساتذة الذين
يرسلون مواد مترجمة بغيره
النشر في المجلة ان يرفقوها
بالاصل الاجنبي وان يذكروا
الرجوع بوضوح .
* يرجى من الاساتذة
المترجمين عدم التصرف في
النصوص والعنابة بصحبة
العبارة العربية .
* المواد التي تلقاها المجلة
لا ترد لاصحابها سواء نشرت
ام لم تنشر .

المحتوى

رئيس التحرير

كلمة التحرير

دراسات ومقالات

- القارة الإفريقية ، أصولها وتاريخها وحضارتها . محمد عدنان مراد ٧
- كانديد في إفريقيا ، أو رحلة ابن بطوطة . ترجمة : د. محمد حرب فرزات ٤٧
- أضواء على الأدب الإفريقي المعاصر . ترجمة : خليل شطا ٧٥
- مقالتان عن الفن الإفريقي . ترجمة : فريد جحا ٩٨
- الأدب والصراع السياسي في جنوب إفريقيا . آ. تشير وبين . ترجمة : وليد قارصي ١١٩
- جولة في أدب الكاتب السنغالي سيمين عثمان . د. ماجد علاء الدين ١٢٧
- التمثيل المعاصر في للفلكلور في أدب غرب إفريقيا . غالينا غالوشيفا . ترجمة : الزاوي أمين ١٤٣

شعر

- قصائد حديثة من إفريقيا . ترجمة : مجدى موفق الشرع ١٥٣
- نفحات شعرية من إفريقيا . ترجمة بشار بشار ١٦٨
- قصائد للثورة الفلسطينية . روبيه كوتوزومي . ترجمة : سعد صائب ١٨٦
- مختارات من شعر الرئيس ليوبولد سنجور . ترجمة : د. جمال شحيد ١٩٧
- قصائدان إفريقيتان . ترجمة موسى جلال ٢١٠

قصة

- لقاء في الظلام . جيمس نوكوي . ترجمة : د. حسام الخطيب ٢١٩
- الأشياء تنداعي . دراسة في قصص تشينوا أتشيني . د. ليلى المالح الصابوني ٢٤٠
- موت صبي . تشينوا أتشيني . ترجمة : مجدى موفق الشرع ٢٥٩
- الظبي والفيل والفرس . ترجمة : د. عبد الرزاق جعفر ٢٦٨
- فرصة للغداء . لويس برناردو أونفانا . ترجمة : يوسف سليمان ٢٧٤

مسرح

- انسان على الشجرة . الكس لاغوما . ترجمة : شوكت يوسف ٢٩٤

المرصد الأدبي

- قراءات غير متأنية في مكتبة الأدب الأفريقي . د. عبد النبي أصطفيف ٣١٤
- الصبي الخادم . ترجمة . محمود قدرى ٣٢٨
- مقابلة مع أندريله برنك . ترجمة : عبد الصاحب صبور ٣٣٥

كلمة التحرير

منذ ثلث قرن تماماً أطلق الشاعر محمد الفيتوري صرخته المشهودة :

تم تم
إفريقيا نغم

وظل العرب يقولون ، أدبياً وسياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً : يجب الاهتمام بإفريقيا . البعد الإفريقي شديد الأهمية . العمق الاستراتيجي للوطن العربي في إفريقيا . ما أشبه تجربتنا بالتجربة الإفريقية وما أكثر الدروس التي يمكن أن تكون مستفادة .

وتحدى الأدباء والشعراء أحياناً عن سر إفريقيا وعن سحرها وغموضها ، وتغنووا بتوهج حجرها الأسود الكريم ، ولكنهم لم يكثروا ولم ينوعوا ، ولم يدخلوا في عمق الدغل الكثيف .

وأصبحت الجامعة العربية بنوبة من الغيرة ، أنت متاخرة كالعادة ، فكانت هناك لجان لإفريقيا ، وتحدىوا عن صندوق للدعم ، وعن مشروعات فردية تقوم بها كل دولة على حدة ، ومشروعات جماعية .

وكانت إفريقيا غادة متنمية تتباين مع تجذوب حيناً بتحفظ ، ولا تتجذب في أكثر الأحيان ، ويغلب عليها أحياناً خفرها ، وأحياناً شكوكها الدفين ، وأحياناً ذاكرتها المترامية - وليس الدقيقة بالضرورة . . . وكان من وراء ذلك كله سرّ كبير ، هو أن إفريقيا - بينها وبين نفسها - وضعت سلم أفضلياتها ، ربما من خلال ظروف كثيرة متشابكة ، ولم تكن العلاقة العربية الإفريقية في المراتب الأولى من هذا السلم ، اللهم إلا إذا غلا المهر ، وألحف الطلب واتصل النداء ؛ فعند ذلك يكون لك حادث حديث .

في المحاولات المختلفة التي جرت لخطب الود وجمع الشمل تحت وسادة مشتركة ، سياسية ، أو برلمانية ، أو اقتصادية أو ثقافية . . . لم يكن الطرف

العربي جاداً بما فيه الكفاية ، ولكن أيضاً لم يكن الطرف الإفريقي (مكتنعاً) و (معيناً) بما فيه الكفاية - مع الاعتراف بما في هذا التعميم من تجاوز كشأن كل تعميم .

إنها مسألة محزنة . قد تكون لها أسباب تاريخية . وقد تكون هناك أصابع (لعبة الأمم) . وقد تكون هناك أولويات لكل جانب . ولكن ما هو ثابت أن المعicsات كثيرة ، وأن من أبرزها أن كل طرف على جانبي العلاقة يحاول أن يكون طرفاً فلا يستطيع ، إنه مشروع طرف . ولذلك لا يقوى على التجاوز والاختراق والمبادرة الفعالة .

وفي عالم الأدب يحنّ العربي إلى كل ما هو إفريقي ، ويسعى ويفتش ، ولكن الزاد المتأخر قليل . في عالم الأدب يمكن القول إن الطرف العربي أعمق صبوة وأشدّ تعلقاً ، وغوايته تلاحمه . في حين تبدو تضاريس كثيرة في الجانب الإفريقي مشغولة بمودات ليلى أخرى ، كما تبدو مواقع أخرى مفتوحة ، تعرّض قلبها للإصابة وترجو أن يصاب .

و(الأداب الأجنبية) تقدم عددها هذا عن الأدب الإفريقي ، لعلها تكون في (جاهه) الخاطبين ، وهي تعي جداً ، أن عروس الزنوج المزданة بقلائد الجمان ، عصيّة ، وبعيدة ، و مليئة بالأسرار . إذن لنقل إن هذا العدد ، الذي حكمه الذوق الفني قبل أي اعتبار آخر ، ليس سجلأ ولا مرأة ، ولكنه حزمة أغصان اقتطفت من شجرات متنوعة ، تطمح أن تجذب القارئ بشذاها أو بمرآها ، لعله يرشحها لأن تكون في جملة الخاطبين .

نحن هنا لانلغي الآخرين ، ولا ننافس ولا نقارن ، وإنما نضع يدنا في يد كل من بذل جهداً ، ونسعى ، حتى تتهيأ (للزفة) أسبابها .
والفرص ، بعد ، ليست نهرأ جاريأ ، بل مواسم غيث لاتسهل دائمأ استعادتها .

دراسات ومقالات

القصيدة الإفريقية

أصولها وتأريخها وحضارتها

كانديد في إفريقيا

أو

رحلة ابن بطوطة

آصنوا على الأدب الإفريقي المعاصر

مقالات

عن الفن الإفريقي

الأدب والصراع السياسي

في جنوب إفريقيا

جَولَةٌ في أدب الكاتب السنغالي

سيمبين عثمان

التمثيل المعاصر للفلكلور

في أدب غرب إفريقيا

د. ماجد علاء الدين

ترجمة، التأكيد، التأليف

ترجمة، وليد قارصي

محمد دنان مراد

ترجمة، محمد حبيب فرات

محمود باردة، خليل شطا

ترجمة، فريد جحشا



القَارَةُ الْأَفْرِيقِيَّةُ

أَصْوَلُهَا وَتَارِيخُهَا وَحَضَارَتُهَا

محمد عدنان مراد

مدخل :

لا يعرف المقيم وحتى الزائر للقاراء الأفريقية ما يشهده هذه القارة العجيبة . فهل هو اعتدال منا خها رغم خط الاستواء ، امطارها الاستوائية الغزيرة كأفواه القراء سهاؤها الصافية نهاراً ونجومها المتلائمة ليلاً ، انهارها الضخمة ، شمسها الأرجوانية التي تعكس في السماء ما هو موجود على الأرض ، غاباتها الكثيفة ، جبالها المكللة بالثلوج وهي على خط الاستواء . مدنها الحديثة ، ريفها الجميل حيواناتها المستوحشة السارحة دون رقيب . تقاليدها وعاداتها ، ورقصاتها وموسيقىها الإيقاعية التي لا تغيب عن السمع ، فلا عجب إذا حاول الأوربيون البقاء فيها أطول مدة ممكنة .

أطلق عليها بعضهم تسمية (القارة المظلمة) ، في حين اعتبرها آخرون (قارة المستقبل) لأنها لم تستغل حتى الآن ، فهي كفتاة في ربيع العمر مملوءة حيوية ولكنها لاتزال نصف مكتشفة . لقد تفتحت حديثاً على العالم . فعمرها السياسي لا يتجاوز العقدين من الزمن ، وبدأ مع بداية الاستقلال ، وتعتبر اعوام السبعينات اعوام القارة الإفريقية ، فقد أكملت جميع الشعوب الأفريقية تقريراً استقلالها السياسي ، وامتلأت أروقة الأمم المتحدة بالوفود الأفريقية ، وجلس السود والسمري على مقاعد الأمم المتحدة وفي بلد التفرقة العنصرية ، بعد أن كان وجودهم في الأمم المتحدة مقتصرًا على بعض الحرس من الشرطة الأمريكية . وحتى الحرب العالمية الثانية لم تكن فيها أية دولة مستقلة بالمعنى الصحيح فقد قضى الفاشست الإيطاليون على الدولة المستقلة استقلالاً فعلياً وهي إثيوبيه عام ١٩٣٦ ، لذلك كان ظهور القارة على المسرح العالمي اعظم احداث هذا القرن . وبعد مسيرة طويلة على هامش الحياة ، انضمت القارة بطاقاتها البشرية والأقتصادية إلى ركب الحضارة وانطلقت من قمم الاستعمار بعد سجن طويل ، ورغم ان استغلال القارة بلغ ذروته في الحرب العالمية الثانية إلا أن ذلك فتح عيون الأفارقة على حقيقة قوتهم ، إذ اضطر المستعمرون إلى طلب المعونة من المستعمرمين فقدمها هؤلاء عن طيب خاطر وبذلوا جهدهم لمعونة المستعمر وفقدوا كثيراً من الضحايا في الحرب . وقد جند الأفارقة من عرب وزنوج وبانتو أكثر من مليون ونصف جندي عدا ملايين العمال والمستخدمين الذين عملوا في المصانع وفتح الطرق وكل الاعمال التي تتطلبها الحرب . ومن موارد القارة وثرواتها المعدنية والاقتصادية استعاد الحلفاء الثقة بأنفسهم ، وكان الفضل للأفارقة في جلوس فرنسا على مائدة المتصرفين بعد هزيمتها المنكسرة في بداية الحرب .

ومع أن الحلف الأطلسي اعترف على لسان تشرشل عام ١٩٤١ « بحق

الشعوب في أن تختار نظام حياتها وحكومتها لنفسها» فقد حاولت الدول المستعمرة التملص من التزاماتها فوضعت العرائيل امام المسيرة الاستقلالية الأفريقية . ولكن نشوب الثورات في كل من الجزائر وكينيا (الماوماو) وانغولا وموزامبيق وزيمبابوي ، وغيرها أدى في النهاية الى الحصول على الاستقلال ، وفتحت ابواب القارة ، ودخلت المسرح العالمي من الباب الواسع ، ومع الاستقلال بدأت تظهر المتناقضات في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فقد وجهها الاستعمار الوجهة التي لم تكن الشعوب الأفريقية ترغب بها . فهو الذي حدد حدودها وفرض عليها نوع اقتصادها ، ولم تراع الحدود الموضوعة المتطلبات الضرورية لتشكيل حدود الدول ، والتي تمثل عادة في قمم الجبال وخطوط الوديان ومجاري المياه ، كما لم تراع الحدود النواحي العرقية والاجتماعية واللغوية . مما اربك حياتها واقتصادها الذي بني لفوائد استعمارية تخص المستعمر الأبيض وأدى الى الانقلابات التي تعاني منها اكثر الدول الأفريقية حالياً . وستمضي فترة ليست بالقصيرة لتبلور الحياة الاجتماعية واللغوية في الدول الأفريقية ضمن الحدود الدولية التي اتفق الجميع على عدم المساس بها . بعيداً عن الانتماءات القبلية والدينية واللغوية . ولا يعود ذلك للتقصير في مستوى الشعوب الأفريقية وتصميمها على الحياة بل للعرائيل التي وضعها المستعمر امام هذه الدول خلال فترة طويلة من الزمن تجاوزت في بعض الاماكن قرنين أو أكثر . وسنترك الحديث عن النواحي السياسية والاقتصادية وما تعيشه القارة من مشاكل لا تخلها إلا الوحدات السياسية الكبرى والأسواق الاقتصادية المشتركة بعيداً عن الحدود السياسية التي خطتها مسيطرة المستعمر ، وسنلقي بعض الأضواء على بعض النواحي الحضارية لهذه القارة وعن تشكيل مجتمعاتها واديانتها ولغاتها . وبالطبع لا يمكن الالام بكل شيء في إفريقيا ، فهناك أكثر من ١٥٠٠ جنس بشري يتكلمون أكثر من

١٥٠٠ لغة ، وهناك عدد لا يحصى من اللهجات ، ومئات من الأديان الوثنية عدا الديانات السماوية . ولذلك سنعمل على تقديم خريطة شاملة تعنى فقط بالتواءات الرئيسية .

مكونات رئيسية للمجتمعات الإفريقية

يمكن تقسيم القارة الأفريقية من الناحية العرقية إلى مجموعتين رئيسيتين كبيرتين هما :

- أولاً - المجموعة القوقازية
- ثانياً - المجموعة الزنجية

أولاً - المجموعة القوقازية :

اما المجموعة القوقازية فهي التي تنتهي إلى أصول القوقازية ، وتضم الشعوب الأفريقية ذات الأصول السامية والخامية المنتشرة على طول شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، وترتبط بحضاراته من جهة وبحضاراة العرب من جهة أخرى . وينتمي إليها الشعب العربي السامي الذي يعيش أكثر من ثلثيه في إفريقيا ، كما تضم الشعوب الخامية التي يطلق عليها اسم الشعوب الكوشية والتي تتكلم باللغة السنسكريتية (الوجوه المحروقة) ، مثل الشعوب الصومالية والبربرية والطوارق وشعوب الهضبة الحبشية من الكالا وارومو ، والقبائل السودانية كالبشارية والبجة ، والعفر (الدناكل) في جيبوتي . وتنضم مجموعة الشعوب السامية أيضاً ماتبقى من سكان الهضبة الحبشية كالأمهرة والتجاري والتجري ، وقد انحدر الأمهرة على حسب ماتؤكده المصادر الحبشية من سلالة

القبائل الحميرية - السبانية التي اختلطت مع القائل السوداء الإثيوبية القديمة ، ويعتقد بعض المؤرخين العرب وبؤكدون على الأصول العربية للبربر وانهم أتوا من اليمن ، كما تؤكد قبائل (الدنكا) السودانية الكبيرة التي تعيش في جنوب السودان على اصالتها العربية ، فهم أمويون أقاموا دولة قوية تعرف بدولة الزنج أو السلطنة الزرقاء . اما الشعب السواحلي الذي ينتشر على طول السواحل الأفريقية الشرقية فهو حديث ظهر بقسميه الشمالي والجنوبي من تزاوج العرب والشيرازيين بقبائل الموزامبا البانتوية التي قدمت من الكونغوا في القرن الخامس عشر وكانت في يوم من الايام من أكلة لحم البشر . وقد امترج الحاميون والسامييون بالشعوب الزنجية على حدود التماس بين هذين العرقين في اعلى النيل ومنطقة البحيرات وشكل مايعرف حالياً بالشعوب النيلية التي تعيش في جنوب السودان وشمال أوغندا ، واهما شعب الشيلك في جنوب السودان . كما انحدر المحاربون السامييون والhamiyon المشهورون بطول القامة من الهضبة الحبشية واتجهوا جنوباً ووصلوا إلى مايعرف حالياً بجمهوريتي رواند وبوروندي ، ومنهم شعب (الواتوسي) المشهور بطول قامات افراده نساء ورجالاً ويصل الواحد منهم إلى أكثر من مترين ومثله المرأة ، وقد استعبدوا القبائل كالباهوتو والأقزام ولم يتخلص هؤلاء من سيطرة الواتوسي إلا بعد الاستقلال وبعد مجازر مأساوية .

وفي نفس الفترة التاريخية أي في نهاية الأول من التاريخ الميلادي وصل إلى جزيرة مدغشقر الشعوب المعروفة بأسم (هوفاس HOVAS) والتي قدمت من ماليزيا وهي ذات اصول منغولية صفراء MONGOLOIDES ، وقد امترج هؤلاء مع البانتوسكان الجزر مما اضعف خصائصهم الرئيسة إلا في وسط الجزيرة حيث لاتزال قبائل المارينا MARINA محافظة على خصائصها الماليزية ، وفي جزيرة (مايوته) التي تقع ضمن ارخبيل جزر القمر اكتشف احد العلماء

الفرنسيين مخطوطاً عربياً قد يقرأ : « هذه قصة جزر القمر في العصور القديمة ، فقد روى لنا اجدادنا انه بعد عصر النبي سليمان بن داود جاء إلى جزيرة جازيدا (القمر الكبري) رجلان عربيان من منطقة البحر الاحمر ومعهما زوجتهما واطفالهما وخدمهما واستقروا في هذه الجزيرة ، وبعدهم جاء أناس كثيرون من افريقيا وزنجبار ليسكنوا الجزيرة » ، وهناك قصة يرويها اهل الجزيرة عن عرش بلقيس ملكة اليمن الموجود داخل فوهة بركان (كارتالا) الثائر دوماً ، ويقولون إنه يحمي العرش بثوراته .

ثانياً - المجموعة الزنجية :

اما المجموعة الثانية فهي التي تعيش في جنوب الصحراء أي في تلك المنطقة من القارة التي تعرف باسم إفريقيا السوداء ، وتضم جميع الشعوب والأجناس البشرية السوداء ، ورغم أنها ليست كلها من اصول زنجية إلا أنه اصطلاح على تسميتها بالمجموعة الزنجية والتي تضم عدداً كبيراً من المجموعات الكبيرة والصغيرة ويمكن تقسيمها إلى ثلاث مجموعات أو أسر كبيرة هي :

١ - مجموعة الأقزام Pygmoides

٢ - مجموعة الزوج Negroides أو ما يُعرف بالزنج الاصحاح

Vrainebres

٣ - مجموعة القبائل البوشمانية (بوشمان) Bushmanoides

١ - أما مجموعة الأقزام فيبلغ تعدادها حالياً حوالي مئتي الف ، وهم من ذوي القامات القصيرة حيث لا يتجاوز طول الواحد منهم ١٥٠ سم ، مع الرأس المدور والشعر الأجدع واللون الداكن الأسود . وهم يعودون بأصولهم إلى منطقة البحيرات الكبرى ، والتي تعتبر في الواقع مركزاً رئيسياً من مراكز الضخ العرقى والأنسانى في افريقيا وذلك بسبب ملاءمتها للحياة الإنسانية . إلا

أنها كثيرة المياه والأمطار مما يساعد على نمو الشجر بسرعة بسبب وقوعها على خط الاستواء أيضاً . وكانت هدفاً للغزو من كل القبائل التي كانت تحبس المنطقة مما يجعل سكانها دائماً يتغيرون فالقادمون يحلون محل المهاجرين . وكانت القبائل تعمل على اقتناصهم لتسخيرهم في مختلف الاعمال كالصيد والاعتناء بالماشية وخدمة المحاربين ، فكان لكل محارب حتى وقت قصير مجموعة من الأقزام تقوم على خدمته واطعامه . وقد اشتهروا بصيد الفيل بسبب تمكّنهم من الوصول إلى جسمه وضربه في الأماكن الحساسة بالحراب المسمومة ، ويعود ذلك لقصر قائمتهم . وقد وصلوا في هجرتهم إلى الغابات الأستوائية في بتسوانا وجنوب غرب إفريقيا ، وقد فقدت قبائلهم مثل قبائل MBUTIS اختلاطهم بالبانتو ، في حين احتفظت بعض قبائلهم مثل قبائل بصفاتها المميزة . وتختلف الوان الأقزام ، فمنهم من يميل إلى اللون الأصفر ومنهم إلى الأسود الداكن ومنهم من له خصائص الجنس المنغولي الذي قدم القارة قبل السود . ولا توجد علاقة بين اقزام إفريقيا وبعض أنواع الأقزام في المحيط الهادئ وأسيا ، ورغم قلتهم واستراحتهم جيّعاً بصفة القصر فهم أنواع كثيرة اهمها Bamabutti Ba—Binga ويتشرّد الأقزام في غابات الغابون - الكاميرون والكونغو ويعيشون على الصيد . ولاشك أن تفضيلهم للعيش في الغابات ناتج عن ضرورة حماية أنفسهم من غارات القبائل الأخرى .

٢ - أما المجموعة البوشمانية ويطلق عليها في بعض الأحيان مجموعة الخوسان KHOSAN فتقسم هي نفسها إلى ثلاثة مجموعات (أو أسر) : وهي :

البوشمان Bochman وهم صيادون ويتصنّفون بقصر القامة والأقدام الصغيرة وهم قريبو الشبه بالأقزام ، وجوههم سمراء منها ما يميل إلى الصفار ، وجلدتهم أسود داكن مع بعض الصفار ، وشعرهم قصير وأجعد وعيونهم

صغيرة . وهم اصفى من المجموعة الثانية (الهوتنتوت) وأنفهم مسطح وهم يقسمون إلى ثلاثةمجموعات الفيا جنوبية - شماليه - وسطي . وكل مجموعة تشكل نوعاً من القبيلة ولكل منها لغتها الخاصة بها ، وعدد البوشمان قليل لا يتتجاوز الخمسين الفا ، وهم موزعون في منطقة الكاب وجنوب غرب القارة ، ويعيش البوشمان بمجموعات صغيرة تتالف من ٥٠ إلى ١٠٠ شخص ، يتكلمون نفس اللغة ولا يربى البوشمان الحيوانات وليسوا بمزارعين ويعيشون على الصيد .

الهوتنتوت Hottentots وهم مزارعون ويقتربون بخصائصهم من البوشمان وهؤلاء اطول وأقرب الى السواد من الصفار بسبب اختلاطهم القديم بالبانتو ، ويعتقد انهم جاءوا من تزاوج البوشمان بالشعوب الحامية ، ومن الحاميين اقتبسا لغتهم وثقافتهم ويعيش الهوتنتوت حالياً في المناطق الغربية من جنوب افريقيا وحولى نهر كنوبين في شمال الكاب الواقعة في اقصى الجنوب ، وقد امتدت هجرتهم حتى وصلوا نهر (كي ريفر) ، وهم مقسمون إلى تسعه اقسام لكل منهم صفاته الخاصة ولغته ، والاعتقاد السائد أن البوشمان والهوتنتوت أي مجموعة الخوسان هم ورثة حضارة قديمة ويظهر ذلك في سلوكهم وحياتهم وفنونهم (خاصة التصويرية) . ويعتقد بعضهم أنهم قدمو من الشمال أي من منطقة البحيرات حيث وجدت رسوم بوشمانية على صخور جبال الحبشة وتذانيا تماثيل الرسوم والنقوش البوشمانية الموجودة حالياً في جبال ريتال بالقرب من هاري سميث في ولاية الأورانج الحرث والتي تصور كيفية صيد الحيوانات وكذلك رسوم معبره لبعض حيوانات الغابة كالكركدن ، كما أن هناك نظرية تقول بأن اصولهم قدمت من اوربا عن طريق اسبانيا إلى شمال افريقيا وهم شعب الصيد الذي قام برسم آلاف اللوحات في جبال الحجارة (الهوجار) في الصحراء الجزائرية ، وقد غادروا منازلهم بسبب القحط والجفاف الذي

اصاب المنطقة قبلآلاف السنين .
أما المجموعة الثالثة البوشمانية فهي : البير غداماس وهم قليلو العدد
وهم في طريقهم للأنفراض .

٣- مجموعة الزنوج ، وهي التي تعتبر اصل شعوب كل القارة السوداء
ويمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام أو (قبائل) وهي
الزنج NEGRES أو الزنوج الأقحاح True Negro ، ويعيش هؤلاء
في غرب افريقيا ويتنازعون الأرض والسهول العشبية الشمالية مع الشعوب
الحامية القادمة من شمال افريقيا وفرزان ، لذلك يختلط الجنسان في مناطق
التماس هذه بشكل لا يمكن تمييزه كما هو الحال في امتزاج الزنوج الجنوبيين مع
البانتو ، والزنوج على العموم مزارعون ، وهم اهل حضارة وهم القاعدة التي
يحاول الرئيس سنغور الاستناد إليها في نظريته المعروفة (بالزنوجية) ، على
اساس امكانية تأليف دولة واحدة أو دولة اتحادية او امة واحدة ذات نظام اتحادي
منهم . ورغم اختلاف المؤرخين حول موطن الشعب الزنجي الأول إلا أن
الرأي السائد هوأن الموطن الأصلي لهذا الشعب هو جنوب السودان ، وفي دراسة
انثروبولوجية لعالم تشيكوسلوفاكي امضى فترة طويلة بين الشعوب السوداء
نشرت في مجلة Solidarity التشيكوسلوفاكية اوضح أن الموطن الأصلي للزنوج
هو جنوب السودان ، وقد انطلقوا في موجات متباينة ولأسباب مجهرة اتجهوا
نحو غرب القارة إلى المناطق الواقعة بين خليج غينيا والصحراء . ومن المحتمل
أن يكون ذلك سعيًا وراء العشب الصالح لغذاء الحيوانات وربما بعيدًا عن
الغابات الكثيفة التي تغطي منطقة البحيرات والتي تسرح فيها أنواع الحشرات
السامة والثعابين الكبيرة وغيرها من الزواحف مما يجعل الحيوانات تهرب من
المجموعة ولا تقترب منها وتقتشر عن مناطق السافانا ذات الأشجار القصيرة
المتباعدة والتي لا تحجب الشمس كثيراً عن الحيوانات ، وللننجي الأصيل

ميزاته الخاصة التي تميزه عن بقية سكان القارة السوداء ، فهو عادة ربع القامة قوي العضلات ، غليظ العظام ، ذو أنف مدور أو مفلطح وعيون كبيرة سوداء وبشرة سوداء لامعة تميزه عن الحامي ذي اللون البني الفاتح أو المحروق والقامة الطويلة ، وكذلك عن البوشمان والبانتوم من ذوي الألوان السوداء الداكنة ، وعرف عن الزنجي حبه للعمل واتقانه الزراعة كما أن حضارته قديمة تشير إلى تاريخه وتدفعه في مستقبله .

البانتو Banto ، وتعيش الشعوب البantu في جنوب خط الاستواء الذي يعتبر الحد الفاصل بين الشعوب الزنجية وشعوب البانتو ، ويتوزع هؤلاء إلى مجموعات عرقية كثيرة العدد تختلف في كثير من الخصائص ولا يجمعها سوى الأصول اللغوية . ويعتقد أن أصل شعوب البantu من الجبال الجنوبية للكمرتون وقد تركوها في القرون الأولى من الميلاد واحتازوا الغابات الاستوائية الكثيفة للكونغو بعد أن طردوا قبائل الأقزام أمامهم . وكانت لهم في هجرتهم اتجاهات ثلاثة : فالقسم الأول اتجه نحو كينيا وجنوب الحبشة والصومال وأصطدم بالقبائل الهاابطة من الهضبة الجنوبية لأثيوبيا وتضم خليطاً من الحاميين والساميين وأوقف تقدمها ، واختلط قسم من هذه القبائل بالقبائل الصومالية التي كانت هي الأخرى في حركة دائمة من الشمال إلى الجنوب ولذلك تظهر التأثيرات البantu بشكل واضح في جنوب الصومال وعلى خط الاستواء وعلى طول نهر جوبا ، وقد أشارت القبائل البantu التي وصلت سواحل كينيا الفرع بين السكان خاصة في المناطق الداخلية وقد وجدت بعض القرى مهجورة قريباً من مbasا ويعتقد أنها هربت من بطش هذه القبائل التي كانت تأكل البشر ، وقد وصل القسم الثاني إلى تنزانيا وأثار الذعر أيضاً في مناطقها أما القسم الثالث وهو الذي هبط جنوباً في القرن الحادي عشر طارداً أمامه القبائل البوشمانية التي كانت تغطي الأراضي التي تشكل حالياً زامبيا وما بين القرنين

السابع عشر والقرن التاسع عشر وصل قسم من هذه القبائل جنوب افريقيا واصطدم (بالبوير) الذين كانوا متوجهين لاستيطان هضبة الأورانج والترانسفال . وبعد حروب طويلة ما بين ١٨٢٠ - ١٨٧٨ والتي عرفت باسم حروب الكفار Cafres خضعت القبائل الباشوية الجنوبية للبيض وطبقت عليهم سياسة الفصل العنصري Apartheid .

اللغات الإفريقية وأسرها

اما اللغات المحلية فهي الاخرى متعددة ، وحسب تصنيف (غرينورغ) في القرن التاسع عشر يمكن تعداد عشر مجموعات لغوية وكل مجموعة تقسم الى عدد كبير من المجموعات الصغيرة ، وعلى العموم فاللغات ذات الأصول المشتركة هي التي تحدد اجناس الشعوب ، فالأصول العرقية ليست مطلقة إذا لم تقترن باللغة ، لذلك فالتصنيف اللغوي ينطبق بشكل كبير على التصنيف العرقي . واهم الأسر اللغوية هي الأسرة الكنفولية - الكردفانة (نسبة إلى كردفان في السودان) وتضم مجموعة اللغات المنتشرة بين نهر السنغال حتى كينيا ، ويطلق بعضهم على هذه اللغة (اللغة السودانية) ، وقد اطلق على المنطقة بين البحر الأحمر حتى المحيط أي من السودان حتى السنغال اسم السودان ، وظلت هذه التسمية حتى الحرب العالمية الثانية أو بالأحرى حتى الاستقلال . وتسمع هذه اللغة أيضاً في شمال السودان وتصل إلى اسوان حيث يتكلم بها النوبة . وهذه اللغة فروع كثيرة مختلفة مثل لغات (الولوف) المنتشرة في السنغال ثم لغة ماندية MANDE في مالي واعالي خليج غينية كساحل العاج وغرب فولتا العليا وشرق السنغال ولiberia ثم لغة (البمبرا) المنتشرة في النيجر ثم اللغة (الفولوية Valtique) نسبة إلى نهر

الفولتا وتنتشر في المناطق الشرقية لانتشار لغة ماندية وقسم من فولتا العليا وشمال ساحل العاج - غانا - التوجو - داهومي (بين حالياً) . ثم مجموعة Kwa وتنتشر على شريط ساحلي ضيق في ليبريا ودلتا نهر النيجر . ثم مجموعة اللغات بنوية - كونغو Benove conga ويعود إليها القسم الأكبر من لغات (البانتو) ، ثم مجموعة لغات (آدموا Adamoua الشرقية في الشمال من انتشار اللغات السابقة أي الكميرون والتشاد والسودان وجمهورية إفريقيا الوسطى . ثم مجموعة اللغات النيلية - الصحراوية (في تشاد - جمهورية إفريقيا الوسطى - السودان - كينيا - أوغندا - كونغو - مالي - النيجر ، ثم مجموعة اللغات الأفريقية - الآسيوية وتضم اللغات السامية والخامية - المصرية القديمة - البربرية - الكوشية التشادية ، وآخر لغة الخوسان التي يتكلم بها الهوتنتوت . واكثر اللغات انتشاراً في جنوب شرق إفريقيا من موزامبيق حتى الصومال هي اللغة السواحلية ، كما تنتشر هذه اللغة في الداخل وهي لغة حديثة ظهرت من امتزاج اللغة العربية والفارسية من جهة واللغة الأفريقية المحلية من جهة أخرى ، وتعتبر اللغة الأولى في ثلاثة دول هي كينيا - تنزانيا - أوغندا ، وقسم من الكونغو حيث يطلق على أحد همجاتها (كينغوانا Kingwana . أما لغة انغالا NGALA فتشبهها أيضاً وتستعمل في غرب الكونغو . ثم لغة الهاوسا التي تنتشر في كينيا غرب إفريقيا في شمال إفريقيا . واهم اللغات المشتركة ذات الانتشار الكبير في الشمال اللغة العربية - البربرية - في شرق القارة - اللغة السواحلية - وفي غيرها - الهاوسا . واغلب اللغات غير مكتوبة وهذا ما يؤدي إلى تحويتها هي نفسها أو تحويل الكلمات التي اقتبستها بحيث لا يمكن تمييزها .

ولم يحاول المستعمرون طيلة المدة الطويلة التي قضوها في القارة الأفريقية تطوير أي لغة من اللغات الأفريقية بل على العكس حاربوا اللغات الأصلية

والوطنية خاصة اللغة العربية التي كانت اللغة المشتركة لقسم كبير من السكان . ولازال اكثـر اللغـات انتشاراً خاصـة في المناطق الأسلامـية بسبـب اضطرـار السـكان لاستخدامـها في الصـلاة وقراءـة القرآن . وقد حفـظـت اللـغـة العـربـية قـسـماً كـبـيراً من الأـدـاب الإـفـريـقـية وتـارـيخ القـارـاءـة فقد استـخدـمت كلـغـة للـتـسـجـيل في اـغلـب المناـطـق . وقد عملـت الكـتـاتـيب في كلـ مـكـان على نـشـر اللـغـة العـربـية وـكان يـقـوم على اـدارـتها ولاـيـزال رـجـالـ الدين ، وقد اـخـتصـ اـهـلـ مـورـيـتـانـيا بهذهـ المـهـنـةـ ويـطـلـقـ علىـ رـجـلـ الدـينـ (ـمـرـابـطـ) ، وـكـانـواـ وـلـايـزالـونـ يـسـتـخـدمـونـ الصـفـائـحـ الـخـشـبـيـةـ لـتـسـجـيلـ القرـآنـ عـلـيـهـاـ . ولاـشـكـ أنـ اللـغـةـ العـربـيةـ هيـ التـيـ نـشـرتـ التـقـافـةـ وـالـعـرـفـةـ فيـ قـسـمـ كـبـيرـ منـ القـارـاءـةـ الـأـفـرـيـقـيـةـ . كماـ اـسـتـخدـمـهاـ المـكـتـشـفـوـنـ الـأـوـاـئـلـ لـلـتـفـاهـمـ معـ الشـعـوبـ وـالـقـبـائـلـ التـيـ كـانـواـ يـمـرـونـ عـلـيـهـاـ ، وـكـانـ سـلـطـانـ زـنـجـبارـ يـزـودـ هـؤـلـاءـ بـالـتـرـاجـمـةـ . وـالـصـورـةـ التـيـ تـمـثـلـ لـقاءـ لـيفـتـسـتوـنـ معـ سـتـانـلـيـ فـيـ قـرـيـةـ كـازـهـ Kazehـ فـيـ تـنـزـانـيـاـ حـالـيـاًـ تـظـهـرـ عـدـدـاًـ مـنـ الـأـشـخـاصـ الـذـيـنـ كـانـواـ يـرـتـدـونـ الزـيـ الـعـرـبـيـ . وقدـ رـافـقـ سـتـانـلـيـ اـحـدـ الـأـدـلـاءـ الـزـنـجـبـارـيـنـ فـيـ رـحـلـتـهـ لـاـكـتـشـافـ نـهـرـ الـكـونـغـوـ لـحـسـابـ مـلـكـ بلـجـيـكاـ . وـعـلـىـ هـذـاـ الـأـسـاسـ لـقـيـ الـمـسـتـعـمـرـوـنـ صـعـوبـيـاتـ كـثـيرـةـ لـلـتـفـاهـمـ معـ السـكـانـ عـنـدـمـاـ بـدـأـواـ يـدـخـلـونـ إـلـىـ اـعـمـاقـ الـقـارـاءـةـ . وـبـهاـ أـنـ اللـغـةـ العـربـيةـ كـانـتـ لـغـةـ الـمـسـلـمـيـنـ وـعـنـ طـرـيقـهـاـ كـانـ المـدـ الـإـسـلـامـيـ فـيـ حـالـةـ مـسـتـمـرـةـ لـذـلـكـ كـانـ لـابـدـ مـنـ إـيقـافـ اللـغـةـ العـربـيةـ اـعـتـقـادـاـ مـنـهـمـ بـأـنـ يـمـكـنـ إـيقـافـ المـدـ الـإـسـلـامـيـ . لـذـلـكـ اـخـذـواـ فـيـ فـرـضـ لـغـاتـهـمـ فـانـتـشـرـتـ اللـغـةـ الـفـرـنـسـيـةـ فـيـ الـمـنـاطـقـ التـيـ اـسـتـعـمـرـتـ مـنـ قـبـلـ كـلـ مـنـ فـرـنـسـاـ وـبـلـجـيـكاـ ، وـأـمـاـ الـأـنـكـلـيـزـيـةـ فـقـدـ اـنـتـشـرـتـ هـيـ الـأـخـرـىـ فـيـ الـبـلـادـ الـمـسـتـعـمـرـةـ أوـ الـمـحـمـيـةـ مـنـ قـبـلـ بـرـيطـانـيـاـ . كـمـاـ أـنـ كـلـاـمـ مـنـ اللـغـةـ الـبـرـتـغـالـيـةـ وـالـإـيـطـالـيـةـ وـالـأـسـپـانـيـةـ اـنـتـشـرـتـ فـيـ الـبـلـدـانـ الـمـسـتـعـمـرـةـ ، وـكـانـ لـكـلـ مـسـتـعـمـرـ طـرـيقـتـهـ فـقـدـ حـاوـلـ الـفـرـنـسـيـوـنـ نـشـرـ لـغـاتـهـمـ وـ ثـقـافـتـهـمـ فـيـ اـدـنـيـ الـطـبـقـاتـ عـنـ طـرـيقـ فـرـضـ الـتـعـلـيمـ بـالـلـغـةـ الـفـرـنـسـيـةـ

وأصبحت اللغة الرسمية في مختلف انواع الادارة . وعلى هذا الأساس تراجعت اللغات المحلية وانتشرت اللغة الفرنسية في مختلف الطبقات . أما الأنكليز فكانوا يعملون لجعل اللغة الأنكليزية لغة النخبة فقط ولم يكونوا بحاجة إلى الكوادر المحلية بل كانوا يستخدمون الجاليات الآسيوية ك وسيط بينهم وبين الشعوب المستعمرة ، ولم يقف الأنكليز امام تطور بعض اللغات المحلية خاصة اللغة السواحلية . وقد تبع الأسلوب الفرنسي كل من الإيطاليين والاسبان والبرتغاليين ، ورغم أن التقسيم المعروف بين ناطقين بالأنكليزية (انكلوفون) وناطقين بالفرنسية (فرانكوفون) لايزال موجوداً إلا أن الأفارقـة اخذـوا يـطـورـون بعض اللـغـاتـ كلـ فـيـ بـلـدـهـ ، وـبـدـأـتـ هـذـهـ لـغـاتـ تـزاـحـمـ لـغـاتـ الـجـنـبـيـةـ ، وـبـدـأـتـ العـودـةـ إـلـىـ لـغـةـ الـعـرـبـيـةـ خـاصـةـ فـيـ شـمـالـ اـفـرـيـقـيـاـ وـفـيـ كـثـيرـ مـنـ الدـوـلـ الـأـفـرـيـقـيـةـ الـإـسـلـامـيـةـ . خـاصـةـ أـنـ اـغـلـبـ لـغـاتـ الـمـحـلـيـةـ مـتـأـثـرـ بـشـكـلـ كـبـيرـ بـالـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ . وـمـنـ لـغـاتـ التـيـ ظـهـرـتـ حـدـيـثـاًـ فـيـ اـفـرـيـقـيـاـ لـغـةـ سـكـانـ جـنـوبـ اـفـرـيـقـيـاـ الـبـيـضـ وـيـطـلـقـ عـلـيـهـ اـسـمـ لـغـةـ (الـأـفـرـيـكـانـزـ) وـهـيـ خـلـيـطـ بـيـنـ الـلـغـةـ الـأـنـكـلـيـزـيـةـ وـالـهـولـنـدـيـةـ وـالـلـغـاتـ الـمـحـلـيـةـ . وـاقـدـ الـلـغـاتـ فـيـ اـفـرـيـقـيـاـ هـيـ الـلـغـةـ الـأـمـهـرـيـةـ وـتـكـتـبـ بـحـرـوـفـ خـاصـةـ تـشـبـهـ الـأـحـرـفـ الـمـسـمـارـيـةـ الـتـيـ اـكـتـشـفـتـ فـيـ الـيـمـنـ ، وـهـيـ خـلـيـطـ مـنـ الـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ الـخـمـيرـيـةـ وـالـلـغـةـ الـظـفـارـيـةـ فـيـ جـنـوبـ الـيـمـنـ .

الأديان

وتنتشر الأديان السماوية الثلاثة في افريقيا ، ولكن ورغم التبشير بهذه الأديان لايزال قسم كبير من السكان يتبعون ديانات خاصة بهم ذات جذور عميقة في القارة الأفريقية . واكثر الأديان انتشاراً في القارة هو الدين

الإسلامي ، وقد وصل الإسلام للقاراء عن عدة طرق ، أولاً البحر الأحمر حيث وصل المهاجرون الأوائل الذين أرسلهم الرسول إلى الحبشة (ملكة اكسيوم) واستقبلهم النجاشي وسمح لهم بالإقامة . وهناك اعتقاد لدى الصوماليين بأنهم أسلموا قبل العرب ، والعلاقات بين شاطئ البحر الأحمر قديمة ، وقد وصلت المسيحية أيضاً من هذا الطريق وكذلك اليهودية وذلك بسبب انتشار الديانتين في اليمن . وعندما كادت اليهودية في اليمن تقضي على الديانة المسيحية اندفع الأحباس إلى اليمن لإنقاذ المسيحية كما اندفع القائد الحبشي المعروف باسم (ابرهة الأشرم) نحو الشمال للقضاء على عبادة الأوثان في مكة والاتصال بالروماني والتعاون معهم على حرب الفرس ، وقصته معروفة في القرآن عندما تراجع وهو على أبواب مكة حيث أرسل الله عليهم طيراً أبابيل ترميمهم بحجارة من سجيل . وقد ظلت المسيحية الشرقية مزدهرة في الحبشة ولم يقترب العرب منها طيلة فتوحاتهم وقد قيل إن الرسول أوصى بالأحباس خيراً ،

أما الطريق الثاني لدخول الإسلام فكان سواحل البحر الأبيض المتوسط بعد أن احتل العرب شمال إفريقيا واندفعوا إلى أعماق القارة خلال فترات متعاقبة فأسلمت بعض الإمبراطوريات القديمة في غرب القارة وأصبحت أحدى الدعائم الإسلامية ، ومنها أخذ المد الإسلامي يتسع ويمتد حتى شمل القسم الأكبر من غرب إفريقيا . وكانت تمبكتو من أهم المراكز الإسلامية في القارة وتاريخ الإسلام في هذه المنطقة هو تاريخ الدول والإمبراطوريات التي ظهرت في المنطقة .

أما الطريق الثالث فكان من الشرق وعلى طول السواحل الشرقية لأفريقيا من القرن الأفريقي حتى مدغشقر وذلك عن طريق البحارة العرب الذين أخذوا يقيمون المؤسسات التجارية والمستوطنات على طول الشواطئ الشرقية للقاراء الأفريقية ووصلوا إلى مدغشقر وجزر القمر وزنجبار . وقد انتشر

الإسلام على خليج عدن وتم تأسيس دول إسلامية عرفت باسم دول الطراز الإسلامي . أما في الجنوب فقد دخل العرب في علاقات متعددة الأنواع مع القبائل في تلك المناطق حيث كان التجار العرب يقدمون المنسوجات والمواد المصنوعة ويخذلون المنتجات الأفريقية . ولكي يزيدوا في مبادلاتهم التجارية اخذوا ينظمون القوافل الكبيرة للدخول إلى أعماق القارة وبدأوا في بناء المستودعات التي تحولت إلى مستوطنات كان العرب يعيشون فيها ، وقد نقلوا

معهم طراز حياتهم ودينهن وآخلاقهم مما أدى إلى اعجاب الأفارقة بهم ومع الزمن والتزاوج بدأ يظهر شعب جديد مختلط يدين بالإسلام ويتكلّم لغة مزيجية (Sabir) . واهم المستوطنات الداخلية كانت مدينة (تابورا) الواقعه حالياً في وسط تنزانيا ، ولم يحاول العرب خلق دولة في تلك المنطقة ومن المحتمل ان يكون مرد ذلك إلى عدم وجود العدد الكافي من العرب أو بسبب كونهم تجاراً . وعندما اخذ بعضهم يضغط على سلطان زنجبار بإيقاف التدخل البريطاني في المنطقة كان جوابه بأنه تاجر قبل أن يكون سلطاناً . وقد اسس العرب عدداً من المدن الساحلية كمدينة كلوه ومايليندي ومباسا وزنجبار ودار السلام ، وكانت لهم روابط شتى مع الدول الإسلامية . وعندما وصل فاسكودغاما إلى مدينة كلوه في بداية القرن السادس عشر وطلب الجزية من السكان كان جواب سلطانهم بأنه تابع لسلطان مصر . وقد قبل الأفارقة الدين الإسلامي بسرعة بسبب ملائمة حياتهم البدائية وعدم وجود التعقيد فيه . واهم من ذلك مساواته بين الألوان والعرق البشرية والسماح بتعدد الزوجات لأن النساء بالنسبة للأفارقة لسن فقط للحفظ على النسل بل هن طاقة عماليّة قوية . كما أن حرية العبادة في أي مكان بدون شروط جعل الإفريقي يألف الصلاة مادامت لا تحرّك عليه حريته وتجعله مضطراً للذهاب إلى مكان العبادة . وما ساعد على انتشار الدين الإسلامي هو الأفارقة انفسهم وبعد اعتناقهم الإسلام

اصبحوا من دعاء نشره في كافة انحاء القارة . وقد نجحوا نجاحاً باهراً ولايزال الدين الاسلامي ينتشر على يد المبشرين الأفارقة السود اكثراً من انتشاره على يد الدعاة العرب البيض .

أما المسيحية فقد دخلت افريقيا منذ العصور الأولى لظهور المسيحية فأتي أول اتصال بين المسيحية وافريقيا من الشمال حيث الدول العربية أو بالآخرى المغرب العربي . وقد عرفت المسيحية الأفريقية في القرنين الرابع والخامس ازدهاراً كبيراً وقدمن للعالم المسيحي القديس (سان اوغستين) . وقد انتشرت المسيحية في وادي النيل ووصلت إلى بلاد النوبة حيث تأسست فيها مالك مسيحية كما وصلت الحبشة عن طريق الرهبان السوريين . وفي القرون الوسطى كان هناك دول قبطية . وقد اساء غزوا الفنداك للمسيحية ، وساعد على دخول العرب إلى شمال افريقيا واعتنق السكان للإسلام وهرب الرومان إلى ما وراء البحر في القرن السابع الميلادي . ومنذ ذلك الوقت انحصرت الديانة المسيحية في اثيوبيا التي وقفت في وجه الغزوة المسلمين من الصوماليين والسودان . وربما كان لانعزال الحبشة وبعدها عن الطرق التجارية الكبرى وصعوبتها اراضيها تأثير في احتفاظها بطابعها المسيحي في بحر من المسلمين .

أما بالنسبة للقارة السوداء أو بالأحرى الشعوب السوداء جنوب الصحراء فقد بدأت المسيحية في بادئ الأمر مع المستكشفين الذين بدأوا يرتادون المناطق الداخلية الوثنية ومع ذلك لم تنتشر المسيحية إلا في القرن التاسع عشر وكان انتشارها بطيناً أيضاً . ويعزو اكثراً عدم سرعة انتشار المسيحية في افريقيا إلى أن السود كانوا يربطون بين المستعمر حامل السيطرة والديانة المسيحية التي يمثلها البشر ، وقد فطرت الكنيسة لهذه الناحية فأخذت ترسم رهاناً سود استطاعوا أن يقوموا بدور فعال في انتشار المسيحية . وعلى كل حال فقد انتشرت المسيحية

بعد انتشار التعليم وظهرت طبقة تعتمد عليها السلطات الحاكمة ، واصبحت المسيحية واسطة للوصول إلى السلطة . وظل قسم من هؤلاء حتى بعد الاستقلال يعملون في أعلى المراتب ومنهم سنغور الرئيس السابق لجمهورية السنغال التي تدين بالاسلام في اغلبيتها ، وكذلك نير بيري . وتنتشر الكاثوليكية في المناطق التي كانت مستعمرات فرنسية وبلجيكية وأما البروتستانية فتنشر هي الأخرى في مناطق الانكлавوفون هي والأنجليكانية .

أما اليهودية فلم يكن لها دور فعال أو تأثير في القارة الأفريقية ولا توجد اليهودية حالياً إلا في إثيوبيه حيث توجد جالية صغيرة يهودية تسمى (فلاشا) وهي قديمة جداً .

أما الديانات الوثنية فهي كثيرة الانتشار في القارة الأفريقية خاصة بين الأقوام السوداء في وسط وجنوب الصحراء ، وليس هذه الديانات سوى تقاليد افريقياً لذلك كثر عدد الديانات واحتللت التحاجاتها وكثير تعقدها وما زال كثير من المعتقدات التقليدية قائمةً بين السكان المعتنقين المسيحية أو اليهودية ، إن الديانات التقليدية وهي في معظمها زنجية افريقية الأصل وما زالت متداة إلى أعظم جزء في افريقيا ، وهي وإن كانت شديدة التباين في ظاهرها - كما هو الحال بالنسبة للجماعات البشرية أيضاً - فإننا نستطيع أن نعثر بدون مشقة كبيرة على وحدة أساسية لها . والمثل على ذلك المعتقدات في كل من السودان والنiger والكونغو وقد احتفظت تلك المعتقدات الدينية بكامل حيويتها في الجهات الريفية ولم تفقد إلا القليل من قوتها في المراكز الحضارية . وتشترك كثير من المجتمعات الدينية بالتعريف بالإله الذي تطلق عليه القبائل اسماء شتى فاسمه فارو Faro لدى اليمبرة ونيامي Nyame ، ولدى الأشانتي اسمه ماوو Mawou ولدى الأيوبيز Ewes شوكو وكذلك لدى الايو ، ويعتقد الأفارقة أن

الإله بعيد جداً لا يمكن الوصول إليه لذلك لابد من وجود إله وسيط يشترك فيه النساء والرجال ويقدم هو المساعدة فهم ومثل هذه الآلهة يقيم على الأرض . كما عرف عن الرجل الأسود انه مرتبط جداً بمجتمعه لذلك كانت الأديان الوثنية مرتبطة بالأجداد والاجداد هم اسياد احياء أو أموات وهم المحافظون على الحق والمعنويات وهم مقدسون ، والاحتفالات التي تسجل دخول اليافعين ضمن الحياة الاجتماعية تسجل هي الأخرى شكلاً مميزاً للتماسك في المجموعة العرقية وللطبعية ايضاً اثر كبير في الديانات الأفريقية فهي التي تحيط بالانسان وتغلفه وهي اصل خلق الكون وتسجح حولها الخرافات التقليدية وكل العمليات السحرية والتنبؤ بالغيب وللسحره والمنجمين دور كبير في الحياة الاجتماعية الوثنية .

الحضارات الإفريقية :

ورغم أن العمر الحضاري للقاراء مديد وقديم قدم ارضها إلا أن المعلومات عنه قليلة خاصة المعلومات عن الشعوب التي كانت ولا تزال تعيش جنوب الصحراء ، ويعود الفضل للمؤلفات العربية الكثيرة والرحالة العرب الذين اغنوا التاريخ بمعلوماتهم عن القارة الأفريقية شهراً وغرب افريقيا ، وكذلك عن شرق افريقيا ، ومن أشهر من اعطى فكرة واضحة عن غرب القارة هو الرحالة المشهور ابن بطوطه الذي زار دولة مالي التي كانت تضم كل البلاد ما بين البحر والنيل . أما مناطق افريقيا السوداء فالمعلومات عنها قليلة خاصة جنوب القارة . فالتجار العرب الذين دخلوهم لم يتركوا أية كتابات عن الشعوب التي كانوا يتاجرون معها خوفاً من ان ينافسهم تجار آخرون إذا تحدثوا عن خبراتهم . لذلك فالمعلومات الأوربية الحديثة هي المرجع التأريخي هذه

منطق . وضمن هذا السياق تظهر حقيقة ثابتة وهي أن القارة لم تكن معزولة عن العالم كما يقول المؤرخون الغربيون بل كانت معزولة عن أوروبا فقط أو بلا حرب مقطوعة منذ وصول العرب لشمال إفريقيا بعد أن كانت متصلة . كما أن المعلومات التي قدمها الرحالة العرب لا تدل على أن تلك القارة كانت مضمضة بعيدة عن الحضارات ، فقد وجدت فيها آثار حضارات على مستويات مختلفة . كما يعتقد كثير من الأنثروبولوجيين أن الحياة الإنسانية الأولى ظهرت في هذه القارة .

إن أول ما عرف عن الحضارة الأفريقية هو ما يتصل بالمناطق الشمالية الواقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط والتي كان لها اتصال مع الحضاراتين الأغريقية والرومانية . وأقدم منها الحضارة المصرية التي تعتبر بحق هي حضارة إفريقية خالصة . فقد ترعرعت في وادي النيل وكان القائمون عليها ينتمون إلى القارة الأفريقية . أما الحضاراتان الآخريان فيمكن اعتبارهما حضاراتين مستورتين من الخارج . ويمكن القول إن الدولة المصرية القديمة هي أول كيان سياسي منظم في تاريخ العالم ، كما ازدهرت حضارة أخرى في شمال إفريقيا وهي حضارة قرطاجة التي أسسها الفينيقيون عام ٨١٤ ق.م وقد قدموها من السواحل السورية يحملون معهم حضارتهم وخبرتهم التجارية والبحرية . ونمت مستوطنتهم بسرعة وبنت أمبراطورية شملت إسبانيا ، وفي الوقت نفسه ظهرت روما وأدى ذلك إلى المنافسة بين الدولتين وكان ان انطلق القائد القرطاجي هانيبال إلى روما بجيشه البالغ عدده ٥٩ الف جندي مع سبعة افيال بعد أن عبر البحر إلى إسبانيا واحتاز جبال الألب . ورغم انتصارات القائد القرطاجي هانيبال الأولية إلا أن الرومان احتازوا البحر وهاجموا قرطاجة واحتلوها عام ١٤١ ق.م ولكنها بعد فترة ظهرت كمدينة رومانية ، ودمرت بعد ذلك على يد الفنيدال ثم أعيد بناؤها من بعدهم ولكنها اهملت بعد الفتح

العربي ، وكانت قرطاجة الأولى بفضل نشاط أهلها عاصمة لأمبراطورية بحرية كبيرة بلغت مراكبها اعمدة هرقل (جبل طارق) الذي كان يعتبرها نهاية العالم . وفي عام ٥٧٠ ق.م وجهت المستكشف الفينيقية (حانون) للتعرف على السواحل الأفريقية الغربية وقام هذا برحلته إلى أن بلغ السنغال والغابون وما وراء خط الاستواء ، ويمكن القول إنها أول رحلة استكشافية للقاراء الأفريقية . وفي طريق البر كانت القوافل الفينيقية تصل في ظرف ثلاثة أيام إلى قرمنت وفزان والسودان ولم تقتصر علاقة الفينيقيين بالقاراء الأفريقية على طريق شمال إفريقيا بل إن الفينيقيين كانوا يعرفون السواحل الشرقية لأفريقية ويقال أنهم جلبوا النحاس والذهب للملك سليمان بالتعاون مع ملكهم حiram من (اوغير) الأسطورية والتي يقال أنها زيمبابوي . وفي العهد الروماني أصبح البر برا حل علم وصناعة واتسع نطاق الفلاحة بفضل الفينيقيين الذين كانوا يعلمونهم فنونها ، وقضت النصرانية على عبادة الأوثان ، وقد استطاعت روما احتلال كافة السواحل الإفريقية وقضت على مملكة كيلوبترا وماسينيسا في نوميريا فخضعت لها كافة البلاد من البحر الأحمر حتى المغرب (الأطلسي) ، وإن كان احتلال الرومان للمغرب جزئياً .

وهكذا أصبحت منطقة شمال إفريقيا رومانية لمدة أربعة قرون بسبب الأستيطان الروماني في حين أن اليونانيين والفينيقيين لم يؤسسوا في إفريقيا الشمالية سوى محطات ، كما خلق الرمان حضارة إفريقية واقاموا مدنًا ضخمة على الطراز اللاتيني لاتزال باقية أثارها في ليبيا وتونس ومصر مثل طرابلس ليبيتس مااغنا Leptis Magna وتبهيسa Tebessa . ولكن الأزمات السياسية والاقتصادية هزت الإمبراطورية الرومانية وزعزعت اسقرار المقاطعات الرومانية ولاسيما الخلافات الدينية ، وزاد في ذلك هجمات القبائل البدائية التي كانت تمتلك عدداً كبيراً من الجمال يساعدتها على سرعة الحركة . ثم اتى البر بر

وحقهم الفندال عام ٤٢٩ واحتلوا إفريقياً ودخلوها كمحررين وساعدتهم
السكان ولكن لم يستطعوا إدارتها بالشكل الصحيح . وقد استعادها جوستينيان
عام ٥٣٣ م وظلت تحت حكم الرومان حتى وصول العرب . أما في داخل
القاراء خاصة في منطقة النوبة في صعيد مصر ، التي كانت تعرف بملكه
(فروه) ، فلا يعرف أصواتها التاريخية ولا يزال الغموض يكتنفها ، وقد عثر في
تلك المنطقة على هيكل منتشرة في وادي النيل متأثرة بالفن المصري والفن
الإثيوبي الماثل في مملكة الكسيروم التي أسسها الصابئة . وقد ساعدت المسيحية
على بناء الكنائس ذات الطابع المسيحي المحلي وتأسست دون مسيحية .
وكانت النوبة لاتزال مسيحية عندما زار ابن بطوطة دنقلاه ، كما اكتشف في
صحراء الجزائر عدد كبير من النقوش المنحوتة أو المرسومة على جوانب الكهوف
ودللت على أن تلك الصحراء لم تكن خالية وربما كانت صاحبة للسكن في
العهود الجليلية التي كانت تغطي أوزبا رمتلاها من العهود .

اما إفريقية السوداء فلا توجد معلومات عنها في هذه الفترة عدا ما كتبه
بعض الرحاليين اليونانيين عن الساحل الشرقي وما كشفت عنه اختراعات
(بالنوك) من المنحوتات التي يرجع عهدها إلى ما قبل المسيح .

في عام ٦٧٠ أسس العرب مدينة القير وان بعد أن احتلوا مصر وبرقه
وطلوا لعدة قرون في اتصال مع البر حتى استطاعوا استيعاب البر ونشر
الدين الإسلامي فيهم . وتوالت على إفريقيا دول عربية مزقت شمل إفريقيا
العربية ، والمرة الوحيدة التي توحدت فيها كانت اثناء حكم الفاطميين .
وأخذت مصر دوراً كبيراً بين أعوام ٩٦٩ - ١١٧١ م . وخلال هذه الفترة
تعربت المنطقة بعد أن اسلمت خاصة بعد وصول قبائل بني سليم وبني هلال
إليها بما يعرف بالقصص الشعبي (تغريبة بني هلال) . وحتى ذلك الوقت
كان العرب لا يزالون وراء خط الصحراء وإلى الشمال ولم يجربوا النزول نحو

الغابات والسهول العشبية وكانت هناك امبراطوريات قديمة افريقية ، الأولى في الشرق وهي دولة اكسيوم التي كانت تضم ارتيرية واثيوبية ، وقد اعتنقت في القرن التاسع العقيدة التي تقول بالطبيعة الواحدة للمسيح . وظهرت عائلة السلومونيين (نسبة إلى الملك سليمان) عام ١٢٧٠ وكان هذه الدولة اتصالات مع الخارج وكانت تعرف باسم مملكة القديس يوحنا (البرистر جون) . وهنا بدأ البرتغاليون يصلون إلى القارة وهم في طريقهم إلى الهند ، وكان البرتغاليون يحلمون بالوصول إلى هذه الدولة وطلب مساعدتها للقضاء على العرب والمسلمين . أما في الغرب اي ما يعرف بالسودان فقد ظهرت سلسلة الامبراطوريات حتى وصول الأوروبيين في القرن التاسع عشر . وقد كان دخول العرب إلى افريقيا حدثاً هاماً بالنسبة إليها فقد غير معاملها وخلق مجتمعات حضارية جديدة . وأدى انتشار الاسلام إلى الربط بين شمال افريقيا وغربها ، وكذلك بين افريقيا الشرقية والغربية عدا العلاقات التي عادت بين اسبانيا والشمال الأفريقي وقطعت خلال هذه الفترة العلاقات بين اوربا وافريقيا حتى الفترة التي بدأ فيها العرب بالتمركز على السواحل الأوربية . وقد استولى العرب الأوائل على المناطق الشمالية - الغربية من القارة في حين واصل الاسلام مسيرة بطيئاً عميقاً في بعض المناطق وسطحياً في بعضها الآخرين القبائل البربرية والطوارق وقبائل تيبو الحامية وعبر الصحراء ، واصبحت الدول حوله مسلمة وتتصل فيما بينها عن طريق الصحراء .

في القرن الحادي عشر انطلق المرابطون من ادنى السودان لفتح المغرب بعد أن نشروا الاسلام في الأقاليم الأهلة بالزنوج من العرق الحامي المتوسطي وبالنيليين والنوبيين وفي البلاد الواقعة جنوب الصحراء من السنغال حتى وادي النيل الاعلى ، وقد ادى ذلك إلى دخول امبراطورية مالي التي كانت تحكم أعلى النيجر في الاسلام ، كما دخل امراء غانة وتبعدتهم حكام النكرورو وإن كانوا

قد احتفظوا ببعض العادات الوثنية . وقد ظلت امبراطورية مالي قائمة من القرن الحادي عشر إلى القرن الخامس عشر وامتلاط حدودها في بعض الأوقات حتى سواحل غامبيا وشملت النيجر الأوسط وسيطرت على المناطق المتوجة للذهب فزودت منه البلاد الإسلامية حتى أوروبا ولم تفرض هذه الأمبراطورية إلا في القرن السادس عشر اثر غزو المغرب لها . وقد اشتهر حكامها بالعدل ونشر الثقافة الإسلامية وأصبحت مدينة (تمبكتو) مركزاً للثقافة الإسلامية الأفريقية وكان ملوكها يلقبون باسم منساً أي الأمبراطور وقد زار الرحالة ابن بطوطة مملكة مالي عامي ١٣٥٢ - ١٣٥٣ واعجب بها وكتب عنها ، وقال إن شعب مالي قليلاً يحيد عن العدل ، ويفزع من الظلم أكثر من الشعوب الأخرى . ولا تأخذ سلطاتهم أي شفقة ورحمة بمن ثبت إدانته في اقتراف الظلم ، والأمن مستب غاية الاستباب ، ويأمن المسافرون أو المقيمون فيها حيث لا يخشى احدهم اللصوص أو قطاع الطرق . ومالي في التاريخ الأفريقي اسم رنان ارتبط بقوة السلطان وبريق الذهب . وفي القرن السادس عشر كتب القاضي السوداني محمود كعت يقول : « وكنا نسمع من اعوام عصرنا يقولون : سلاطين الدنيا اربعة ، خلا السلطان الاعظم (يقصد الخليفة العثماني) ، سلطان بغداد سلطان مصر - سلطان برن (يقصد مملكة برنو حول بحيرة تشاد) سلطان مل (يقصد مالي) وقد قامت دولة مالي على اكتاف قبائل الماندينجو التي كانت مسيطرة لقرون طويلة على المنطقة الفسيحة الممتدة بين نهر النيجر والمحيط الأطلسي وتشكل هذه القبائل اغلبية السكان في كل من غينيا ومالي . وفي تلك الرقعة الواسعة اجتمعت لدولة مالي في عصر ازدهارها ثروات جعلت صيتها يتعدد عالياً في ذلك الوقت أي العصر الوسيط ، خاصة ما كان لديها من ثروة الذهب في بامباوكا وبوريه ونقاره وملع الصحراء في تفازه ومناجم النحاس في تكده . وقد وصف ابن بطوطة كيف يستخرجون النحاس . وكانت

مالي قد ورثت مملكة غانا الوثنية التي وصفها ابن خلدون بأنها « اعظم امة واضخم ملك » ، حتى باتت تعتبر بحق أولى حلقات التاريخ القومي لغرب افريقيا وأول تجربة أو أقدم ما عرف من تجارب الحكم الوطني الناجح بتلك البلاد . وقد اضعف الدولة الغزوat المراكشية عام ١٥٩١ . ولم تكتسب الدعوة الاسلامية حافزاً جديداً إلا في القرن الثامن عشر عندما انشأ (التكارنة) نظاماً ثيوقراطياً جديداً (يقصد التكlor (Touelour)) في فوتاجلون الواقعة في غينيا سنة ١٧٢٠ وفي سنة ١٧٧٦ اخضعوا الغول (الغولاني) الوثنين للإسلام . كما خلفت امبراطورية مالي وفي المنطقة نفسها امبراطورية سونغاي في كاو Gao (اوصنفي) من منتصف القرن الخامس عشر إلى القرن السادس عشر ، وعرفها المؤرخون العرب باسم كوكو وكان اشهر ملوكها واعظمهم شانا (اسكيا محمد ١٤٩٣ - ١٥٢٨) . وكانت دولة اقطاعية كبرى ورثت مملكة الماندنجو (امبراطورية مالي) . وقد وفق فيها بعد عثمان دان فوجو النكروري إلى ادخال الحوز في الاسلام واسس سنة ١٨٠٢ مملكة سوكوتو . وكان عمر وهو يتسلب إلى قبيلة عثمان نفسها قد التحق ، فيها كان يؤدي فريضة الحج ، بالطريقة التجانية فأقطعه رئيسها الأكبر السودان ، ولقد اخضع ابتداء من سنة ١٨٣٨ القسم الأعظم من السودان الذي اعترف لدن وفاته سنة ١٨٦٤ بالاسلام ديناً للدولة ، وكانت امبراطورية الحاج عمر والساموري Samory هي التي قضى عليها الفرنسيون عام ١٨٩٠ اثناء حكم خلفاء الحاج عمر . وقد ظهرت ايضاً في المنطقة سلسلة من الملوك اكثر تواضعاً وكانت تضم مدينة واحدة أو تضم بعضها من غير أنها مثل مملكة بمباريسيفو والبيول Bambaras segau Macina ومسينا Peoul وفي فولتا العليا .

وفي السودان الأوسط عند بحيرة تشاد انتشر الاسلام منذ القرن الحادي

عشر في كائم ، ولكن دعائمه لم تتوطد في بورنو (بورنو) وباجرمي إلا في القرن السادس عشر في حين لم يتم ذلك في ودائي إلا في القرن السابع عشر وكانت كل من بورنو وباجرمي قد استأصل بعد ضعف قبائل أهوسا ما بين القرن الرابع عشر والقرن السادس عشر . أما في السودان الشرقي فقد دخل أهل النوبة وكانوا نصارى حتى القرن السابع عشر في الدين الإسلامي عن طريق مصر . ولكن الإسلام لم يحقق تقدماً كبيراً جداً إلا بعد الفتح المصري في القرن التاسع عشر .

وتعتبر دولة سليمان باشا دولة عربية ، فأبوه الزبير باشا كان يحكم باسم والي مصر منطقة بحر الغزال ما بين (١٨٧٠ - ١٨٨٠ م) ، وقد استدعاه الوالي المصري وسجنه ، ولكن ابنه سليمان تولى مكانه وأصطدم بعوردون البريطاني الذي كان يحكم السودان باسم مصر . وكان هذا يمهد للسلطة البريطانية في المنطقة على أساس أنه يحارب الرقيق عام ١٨٧٩ . واتفق سليمان مع هارون سلطان درافور الذي كان هارباً من وجه الأنكلزيز على محاربة تمودون . ولكن تمودون أرسل أحد قادته المرتزقة وهو الأيطالي جسي باشا لمحاربتهم فخاف سليمان باشا وأعلن عن استعداده للإسلام . ولكن أخيه في الرضاعة (رباح) وهو عربي من سنار رفض ذلك وصمم على محاربة الأنكلزيز . وانفصل عن سليمان باشا مع أربعة آلاف جندي من أفضل جنود الزبير باشا ، وقد استطاع اخضاع حاكم دولة كوتى الزنجية وصد هجوماً قام به سلطان ودائي عليه ، كما رفض متابعة المهدي بعد استلامه الحكم في السودان على أساس رفض السنوسيين للمهدي واتهامهم له بالزندة . ثم اتجه رباح إلى تشاد بعد أن أخفق هجومه على سلطنة ودائي عام ١٨٨٧ وفي سنة ١٨٩٢ هاجم سلطان باجرمي واحتل عاصمته بوجوب بعد حصار دام سبعة أشهر . ثم إن بورنو سقطت بين يديه عام ١٨٩٣ واستطاع بعد ذلك بناء أمبراطورية

واسعة ممتدة مابين ودائي في الشمال وسوكتو في الجنوب وإمارة ادماوه التي خضعت بعد ذلك للالمان والدولة المهدية في الشرق وقد ابقى سلاطين هذه البلاد ولكنه وضع معهم بعض المستشارين من قبله ، وكان رباح رجلاً متديناً وتابعأ للطريقة السنوسية لذلك حاول تطبيق الشرع الاسلامي في مملكته ، وكان لديه جيش مدرب بـتعداد خمسة آلاف جندي مسلحون بالبنادق و٤٤ مدفعاً وكان يتمتع بحس قيادي ممتاز استطاع أن يتصرّف في كل المعارك التي خاضها ، وكانت دولته مبنية على تجارة العبيد واخيراً اصطدم بالفرنسيين الذين كانوا يعملون على توحيد مستعمراتهم . وكانت مملكة رباح تقف في طريقهم وارسلوا له قوات كبيرة اتجهت من مختلف مناطق المستعمرات ورغم انتصارات رباح الأولية على القوات الفرنسية وقوات حلفائها من السلاطين هزم رباح في كوسوري Kousseri الواقعه على شاطئ نهر شاري في ٢٢ نيسان ١٩٠٠ . وقد دارت رحى معركة رهيبة بين بيوت البلدة ولكن رباح قتل أثناء المعركة اثر اصابته بآحدى الرصاصات الطائشة . وهكذا انتهت دولة رباح التي كانت آخر مقاومة للعرب في تلك المناطق .

أما بالنسبة للمناطق الجنوبية لخط الأستواء فقد ظلت المعلومات مضطربة ولكن هناك دلائل تدل على وجود سلسلة من الدوليات أو اتحادات للقبائل في منطقة لوانغو Loango وفي حوض الكونغو . وتجمعت مثل هذه الدوليات في بعض الأحيان على شكل امبراطورية أو امبراطوريات مثل مالك : الكونغو ، باكوبا ، بالوبا ، بالوندا التي ظهرت في اواسط النهر . وقد بلغت هذه الممالك اوجهاً بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر . واشهر الدلائل على وجود هذه الدول هو وجود المدن المبنية بالحجارة ولا يعرف متى هجرت هذه المدن ولكن يبدو أن انهيارها لم يسبق انتشار تجارة العبيد إلا بقليل . أما دول الباantu فالمعلومات أيضاً عنها غير مستقرة ولكن هناك أيضاً دلائل على

وجود سلسلة من دول الباكتو ظهرت مابين انغولا وموزامبيق ويعتقد أن شعوب الباكتو أقامت بمساهمة الغزاة الحاميين أو المنحدرين من أعلى النيل ممالك ظهرت فوق النجاد بين البحيرات العظيمة وابتداء من القرن الخامس عشر واصلت شعوب أخرى من الباكتو كشعب لوزي وسوثر وتونغا ونتوي زحفها إلى الجنوب الشرقي من القارة إلى ابعد من مملكة مونوموتانا Monomotapa مكتسحة شعوب الخوسان ، أما مملكة (مونوموتانا) فقد تولدت في القرن الخامس عشر من اتحاد مجموعة من دول الباكتو ولا توجد معلومات كثيرة عنها سوى بعض الأوراق البرتغالية وبعض الآثار .

وفي عام ١٨٥٧ وصل بعض المبشرين ، وأولهم روبرت موفا ، عن طريق جنوب افريقيا ، وقد اجتمع المبشر المذكور بالزعيم الأفريقي . (موسيليكاته) وتم تأسيس أول بعثة تبشيرية عام ١٨٦١ . ومن أشهر من قاتل البوير والأنكليز الزعيم الأفريقي المشهور (شاكا) الذي استطاع أن يؤلف اتحاداً من مجموعة من القبائل الصغيرة العائدة لقبائل أنغولي وأمبو M'bo ولا لا Lala وعرف باسم اتحاد الزولو الذي اشتهر افراده بشجاعتهم وقد اجتمع لشاكا أكثر من مائة ألف محارب مدرب استطاع بهم أن يوقف تقدم البوير . ولكن (شاكا) قتل من قبل حاشيته بسبب قسوته ، وتولى مكانه اخوه (دينفان) عام ١٨٢٨ واستطاع هذا القضاء على احد جيوش البوير في شباط ١٩٣٨ ولكن هزم امام (بروتوريوس) ، فاضطر للهرب إلى سوازيلاند ، ولكن الأنكليز لحقوا به واسروه في معركة جرت عام ١٨٧٩ ، وقد قتل في هذه المعركة ابن نابليون الثالث الفرنسي . واصبحت دولة الزولو عام ١٨٨٧ محمية بريطانية ثم الحقت بجمهوريتي الترانسفال والناتال عام ١٨٩٧ . ويعود حالياً شعب زيمبابوي وزامبيا إلى هذا الخليط من قبائل الشونا ، النديله ، وانجولي ، والقبائل الأخيرة تشكل غالبية سكان ملاوي بعد أن استقرت في

القرن التاسع عشر على البحيرة ، وقبل ذلك ظلت فترة لابأس بها تضرب في المنطقة ثم عبرت في تشرين الثاني ١٨٣٥ المجرى السفلي لنهر الزامبيزي . اما قبائل (ماكولو) فقد عبرت المجرى العلوي لنهر الزامبيزي بقيادة زعيمها زيبتوان Zebituane كما فرضت Barotse نفسها على بلاد الباروتس باسم (سيكولو) ، رغم انه لم يخضع لها سوى عدد قليل من القبائل ولازال هذه القبيلة محفوظة بتقاليدها ومجتمعها الخاص ويعملونها ويعتبر انتقال الملك من عاصمته الشتوية إلى العاصمة الصيفية في مستنقعات الباروني احدى المناسبات الجميلة التي يسعى لرؤيتها السياح في جمهورية زامبيا . اما قبائل (التونغا) Tongas فتشكل حالياً الأغلبية النسبية في زامبيا وأغلبهم مزارعون أو مربو الأبقار ، كما أن بعضهم أصبح الآن من كبار الملاك .

حالياً تعد هذه القبيلة اكثراً القبائل ملكية للأبقار . وعلى العموم فالبقرة بالنسبة لأغلب سكان جنوب ووسط وشرق افريقيا ذات أهمية كبيرة وتلعب دوراً مهماً في حياتهم ، والغنى يعد بعد الأبقار التي لديه ، وتقدم الأبقار عادة كمهر . ونكتفي أكثر القبائل بحلب البقر كغذاء يومي لها مع بعض منتجات الغابة .

اما قبائل اللوزي The lozis فتعيش حالياً في منطقة الباروتي ، وتتكلم حوالي ٢٥ لغة ويعتقد أن اللوزي وصلوا إلى غرب مايعرف حالياً زامبيا من الكونغو .

ومن المعتقد أنه منذ ألف إلى ألف ومائتي عام وفي المنطقة التي تعيش فيها حالياً قبائل (التونغا) في وسط زامبيا وفي وادي الزامبيزي ازدهرت تجارة بين سكان الوادي والتجار العرب الذين كانوا يعيشون على سواحل افريقيبة الشرقية . وقد وجدت آثار الجرار وال حاجات التي كان يستعملها التجار . وكان

هناك تبادل تجاري بين الطرفين ، إذ كان سكان الوادي يقدمون للعرب النحاس بوجه خاص . كما وصل التجار العرب إلى ملاوي وبسطوا سيطرتهم على القبائل الموجودة خاصة في منطقة زيمبابوي الحالية ، ودخل قسم من السكان الاسلام وكانوا يقايسون مع السكان المولاد المصنوعة مقابل الذهب .

و قبل نهاية القرن التاسع عشر اخذت هذه القبائل المسالة تتعرض لمجهيات البرتغاليين والخلاصيين القادمين من انغولا وموزامبيق وبالتعاون مع قبائل اليمبا والنغواني التي كانت تسهل مهمة هؤلاء وتعاون معهم لاقتناص الرقيق . وفي عام 1851 وصل دافيد ليغنسن إلى أعلى نهر الزامبيزي واكتشف شلالات مكتوريا التي تعتبر أعلى شلالات العالم ويزيد ارتفاعها على مائة متر ، ويطلق عليها بعضهم (شلالات العبيد) ، وقد ارتد ليغنسن حوض الزامبيزي وجنوب بحيرة كاتنغا ، وتوفي في أيار عام 1873 . ولاشك أن كلمة اكتشاف لا تخص سوى الأوروبيين الذين كانوا يجهلون تلك البلاد ، أما العرب فكانت لديهم معرفة كاملة فيها وجاسوا ديارهم وفي كل مكان وصلوا إليه قاوم أهله الأوروبيين عند وصولهم إليه .

وفي عام 1890 وصل مبعوثو (سيل رووس) ، الاستعماري البريطاني المشهور الذي كان قد فرض سيطرته على جنوب افريقيا بعد هزيمة البوير ، الزعيم الأفريقي (ليوانيكا Lewamika) الذي وضع بلاده تحت الحماية البريطانية وسمى البلاد (روديسيا) .

وتنتشر قبائل (بانتويه) في كينيا مثل الكيكييو Kikuyu الذين اشتهروا بشورتهم المعروفة (الماوماو) وهم يشكلون الأغلبية القبلية في كينيا ، ويضاف إليهم قبائل لووس LUOS والكامبا والكالنجين . ويعتبر الكيكييو من اذكى قبائل كينيا وأكثرهم استيعاباً للحضارة ، وهم حالياً يشكلون الأغلبية في المدن واصبح منهم كبار التجار والملحقين بالإضافة إلى المزارعين . وتشكل قبائل

/الماسي/ ، رغم قلة عددها وانتشارها في دول عددة ، كتلة واحدة . وكانت القبائل جميعها تخافهم فهم مخربون شجاعان طوال القامة والوانهم مختلف عن الوان بقية القبائل ، وهم رعاة لا يعرفون الزراعة والفلحة ويربون الأبقار .

وكانت الأراضي المعروفة الآن باسم اوغندا لالف سنة خلت محظوظة لسلسلة من هجرات الشعوب الخامدة (Hamites) والنيلية Nilotes والخامدة النيلية (Nilo Hamites) المقاومة من الشمال . وقد تسلط الغزاة على القسم الشمالي لأوغندا وهو القسم غير المأهول وفرضوا لغتهم وحاولوا ادخال مناهجهم الاجتماعية والسياسية .

أما المناطق الجنوبية الغربية فقد تعرضت هي الأخرى للغزو ، وقد أصبح هؤلاء في القرن السادس عشر الطبقة الأристقراطية الحاكمة في منطقة مأهولة خاصة من شعوب ناطقة بلغة (البانتو) ، ونشأت بعد ذلك عدة ممالك منها : بونير و ، بوغندا ، وانكولا ، ولكل منها شكل خاص في طريقة الحكم المركزي . وقد كان التمييز بين الحكام ورعاياهم أكثر وضوحاً في مملكة انكولا بينما في الممالك الأخرى زال ذلك التمييز نتيجة للتزاوج بين الطبقة الحاكمة والرعايا ، ولدة قرنين من الزمن تقريباً كانت بونير و أكثر هذه الدول قوة وشकيمة . ولكن في القرن التاسع عشر وصلت مملكة البوغندا إلى مصاف القيادة . وهذه المملكة هي التي اتصل بها التجار العرب كما كانت هناك علاقة وثيقة بين ملوكها موتيسا وسلطان زنجبار وعلى العموم كان المستوى الحضاري هذه المنطقة أعلى منه في الجنوب ، عدا الكونغو حيث كانت هناك ممالك كثيرة ظهرت خلال هذه المرحلة الطويلة ولكن كلها كانت أقل من مستوى ممالك اوغندا .

وتحتها اغلب الشعوب الأفريقية الشهالية التي هي خليط من الساميين والحاميين بفروعهم الشرقية والغربية الزراعة والفلحة ، وهم ذوي حضارة

قديمة ، ولكن القسم الأكبر من الحاميين الشرقيين هم رعاة كالصوماليين والفالا وشعب ارومو . ويفرق الصوماليون عن الفالا بأن كلا الجنسين طوال القامة ولكن الفالا اغلظ عظاماً ويمتهن كثير منهم الزراعة اما شعب ارومو الذي يعيش في جنوب غرب اثيوبيا فهو يشبه الصوماليين من كل النواحي ولكن يتكلمون لغة خاصة بهم وهم أيضاً يمتهنون الرعي . والشعب الصومالي شعب قديم عرف باتصاله مع مصر اثناء حكم الفراعنة فقد زارت الملكة حتشبوب بلاد الصومال وكانت تسمى بلاد (البيت) وسجلت الرحلة على جدران المعابد البحريية في مصر . ولا يختلف ما يرتديه الصوماليون حالياً عنها كانوا يرتدونه عند زيارة الملكة لهم . وهناك نظرية بأن الميكوس (الملوك الرعاة) هم من الصومال . ومن بين الحاميين أيضاً شعب التيبيو وهم رعاة أيضاً ويعيشون في شمال جمهورية تشاد ويشبهون الصوماليين في اغلب صفاتهم . وتوجد في السودان قبائل البجه واليشاراة وغيرهم ، ويسبب التفتيش عن الكلأ فهم في حركة دائمة وراء قطعان الماشية من اغنام وابقار وجمال . وفي الشمال تربى الاغنام بكثرة اما في الجنوب فالبقر هو السائد وهم لا يعرفون الحدود الدولية والسبب الأكبر في الخلاف بين اثيوبيا والصومال سببه هو الحركة الدائمة للرعاة بين البلدين ، فعلى طول الحدود تقع المراعي ، وكثيراً ما تجند الرعاة بعيدين عن مواطنهم بأكثر من الف كم وبحدث هذا دائرياً في مختلف الحدود في افريقيا خاصة بين الصحراء والغابات حيث مهول السافانا في فولتا العليا - النيجر - مالي - كينيا الصومال - تشاد - ليبيا . ورعاية البقر من قبائل البيول يصلون في بعض الأحيان حتى منطقة فوتا ديجالون Fouta Dijalon المرتفعة في غينيا وحتى آدمونا في الكمرتون ، ويهبطون جنوباً حتى بحيرة تنغانيكا في تنزانيا ، أما رعاة البقر من الباشتو فيصلون إلى جنوب وغرب افريقيا حيث يختلطون بالزارعين وفي بعض الأحيان يقومون بزراعة بعض الأرض .

اما مدغشقر التي تردد عليها العرب في القرون الوسطى ثم البرتغاليون ثم الفرنسيون فقد تكونت فيها ممالك سكاناً فاثم مملكة مارينا وكانت عاصمتها مدينة قناتارييف ، وقد بسعت نفوذها في القرن التاسع عشر على ثلث الجزيرة .

لم تكن هذه الامبراطوريات والدول إلا ظواهر متصلة لتمرير مجتمعات بدائية كانت تحلق حول زعيم قوي . وكان دائياً السبب هو فكرة الحياة من خطر ما . ويدأ التركيز بشكل بسيط وبكادر مختصر ثم يتسع حسب الحاجة وحسب البيئة والإمكانيات . وقد استطاع بعض القادة ان يصبح زعيماً قبلياً كبيراً ثم يصبح ملكاً وزعيم امبراطورية . وعلى هذا الأساس بدأ كبار الملوك من الماندنجو والسنغاي وسورنو ، وكانوا يوزعون الأرض والأشخاص والحيوانات والأقنان والعبيد وحتى النساء على رجالهم المخلصين ، ويأخذون الفرائض كل منهم على طريقته الخاصة . وكانت هذه الفرائض تساعدهم للاتفاق خاصة على الأمور العسكرية . ولم تكن هناك حاجات اجتماعية كثيرة للصرف عليها ولذلك كانت الدولة أو الشعب فيها مؤلفاً من الحياة والمحبين ومن كل الطبقات التي تبدأ من الفن إلى الملك . وكثيراً ما كان الملك يدير تجارة . ومنهم من كان يقود الحملات للحصول على الأموال من القبائل أو الدول الأخرى ، ومنهم من كان له صفات مقدسة أو يعطي لنفسه صفات مقدسة مما يجعله يتحكم في حياة القبيلة أو الدولة ويرثه ولده ويرث جميع ما يملك . ولدى القبائل الوثنية كان يرث نساءه مما يجعل بعضهن أن يكون لديه أكثر من مئة جارية . وعندما وصل المكتشف البريطاني بيكر إلى أوغندا وجد نساء الملك لا يسعهن السير لفترط السننة ، وقد ذكر ابن بطوطة أن ملك مالي من سليمان كان لديه زوجتان فقط ، ولكن كان عدد الجواري حوله كبيراً . وكلما كبر الزعيم كبر معه بلاطه الذي كان يضم عدداً من أصحاب المراتب

والخدم ويقوم على رأسهم شخص يمكن أن يصبح هو الحاكم الفعلي . وكان للملك عادة نواب مسؤولون امامه ، وكانت يديرون المقاطعات ويرسلون الفرائض للملك ، وكان الملك يسكن في المنطقة التي يفضلها ، وكانت العواصم موانيء تقبل عليها افواج القوافل الصحراوية وتنطلق منها .

وكانت عواصم الدول السوداء السودانية في الحقيقة واسطة الارتباط بين افريقيا السوداء وافريقيا البيضاء . ومن أشهر العواصم مدينة كومبي عاصمة امبراطورية (غانا) ، وكذلك مدينة (برن) عاصمة السنغال (ملكة برن) ، وكذلك (دورا) عاصمة اهوسا ، (كانو) ، ومدينة كوماسي عاصمة مملكة الأشانى ، ثم (مبابي) عاصمة مملكة الكونغو ، وأكثر المدن كانت مبنية من الطين وخشب الغابة ، وكان التعامل في المدن السوداء يتم عن طريق مبادلة الخل الزجاجية كالخرز وقطع الملح والودع والتبر (الذهب) . وقد ذكر ابن بطوطة « أن الملح كثير هناك وبالملح يتصرف السودان كما تصرف بالذهب والفضة ويقطعونه قطعاً ويتبايعون به ، وقرية تغازا (حيث مناجم الذهب) على حقارتها يتعامل فيها بالقناطر المقطرة بالذهب » . أما مجتمعات الادغال فكانت تعتمد في عيشتها على أنتاجها الخاص ، فالقلاح الأفريقي منذ صغره يتعلم جملة الطرق الفنية المتعددة في مجتمعه ، فهو يحسن القيام بجميع الحركات الفنية المتصلة بوضعه في المجموعة ، فرئيس القبيلة يستطيع بناء منزله ووضع إثنانه ومبشرة اشغال الفلاح بحقوله وتربيته الماشية ويصبح بالإضافة إلى ذلك صياد أسماك ماهر وصانع سلات حاذق . وأكثر ما اثار الأوروبيين عند وصولهم إلى افريقيا هو وسائل المخابرات التي كان يستعملها السكان للاتصال فيما بينهم . وكانت الأخبار تنتقل بسرعة من قرية إلى قرية وكان العطل أكثر الوسائل استعمالاً بين الأفارقة في المخابرات ، ولكن لم يكن الطريقة الوحيدة فكان هناك الصفير الذي كان لا يقل انتشاراً عن العطل وخاصة بين سكان

تشاد . وكانت المخابرات تعتمد على ركتين : النغمات وتغير حسب اللغات واللهجات ثم الایقاع . ويعتقد أن ضاربي الطبول يتمون إلى طبقة معينة تستعمل لغة مشتركة لا يفهمها أحد سواهم ، وهم قادرون على تأويل كل رسالة صوتية منها كان أصلها .

الفنون الإفريقية

أما الفنون الإفريقية فهي من أكثر فنون العالم تنوعاً واختلافاً سواء من حيث العصور التي بدأت فيها ومن حيث الأماكن التي فيها ازدهرت . ويمكن حصرها في مجموعتين كبيرتين .

الأولى : ترعرعت في البلاد المعاشرة للبحر الأبيض المتوسط ، وهذه الفنون في الواقع بعيدة عن أن تكون إفريقية بحنة ولكن تأثيرات إفريقية دخلت عليها ويمكن أن نجد هذه الفنون في المدن العربية كفاس والقيروان وتونس والقاهرة . أما المجموعة الثانية فهي مايعرف بالفن الإفريقي البحث أو بالأحرى الفن الزنجي الذي ترعرع في السافانا السودانية وفي الغابات الأستوائية بعيداً عن التأثير الإسلامي الذي لا يرضى بوجود الأصنام ولو كانت للفن . وستقتصر في احاديثنا على الفن الزنجي الذي ظهر في القرن الثالث عشر . ومع ذلك فالخلفيات كثيرة ويمكن أن نجمع منها آثاراً للثقافة الداخلية تقسم منها ما هو متعلق بفن الأزمنة السحرية مثل رسوم صحراء تاسيلي Tassili في كنفها Katangea والرسوم البوشمانية . واقدم انتاج فني إفريقي يصل إلى القرن الخامس قبل الميلاد (ثقافة نوك) . ومع بداية العصر الميلادي يمكن معرفة الثقافة الزيمبابوية القرن السادس الميلادي ، وكذلك ثقافة ساو Sao في القرن التاسع . وفي القرن الثالث عشر ظهرت الأمراء اطوريات الإفريقية

الكبيرة (اليوروبيا وبنين) . واعتباراً من القرن الخامس عشر ظهرت أميراطوريات الكونغوداهومي و . . . الخ وقد انتجت هذه الملوك أعمالاً فنية عديدة وهامة حتى القرن التاسع عشر أي عندما وصل الأوربيون ، ومنذ ذلك التاريخ بدأ الفن الأفريقي عملية التراجع .

وبالرغم من الأصالة التي يتمتع بها الفن الأفريقي القديم يبدو أنه تأثر كثيراً بالفن المصري القديم . وربما أيضاً بالفن الروماني القادر من شمال أفريقيا ، وقد وجدت قطع من الجرار الصيني في زيمبابوي ، كما تأثر الفن الأفريقي بالفن العربي خاصة في السودان . وتعرضت الفنون الساحلية في وقت متأخر للتأثيرات الأوروبية خاصة البرتغالية . أما فنون القبائل السوداء فقد نمت خاصة ضمن المجتمعات الدينية واستخدمت كمراسم دينية حين تظهر الألهية الكبرى لاحترام روح الأجداد وللأقنة ذات التأثير السحري ، وفي الأميراطوريات الكبرى أخذ الفن يتجه نحو الفن التزييني للأعمال اليدوية وللصناعات الخشبية مثل الصناديق وغلايين التدخين وسادات الرأس التي تشبه المخدة . ويضع الواحد منهم عنقه عليها وينام لثلا يشهو جمال شعره . كما بلغ صنع الجرار حدوداً عالية من المعرفة . ويسبب كثرة الشجر فكانت كل الأعمال الفنية من الخشب ويزر في هذا المجال فنانون كثيرون . وأفضل من نقش على الخشب هم شعب الدوغن Dogons الذي يعيش في مرتفعات البانديغارا في مالي ، ومحفظون بثقافة خاصة بهم وبشعور فني على مستوى ممزوج بروح دينية زاهدة ومتصوفة . وأشهر أعمالهم هي التي تمثل جموعات من رجل وامرأة متلاصفين أو متقابلين ، وبعض أعضائهما موحدة . وتنقش هذه على الكتل الخشبية الكبيرة وتزين بالنقوش والجواهر . ويمكن اعتبار فن / الدوغن / نموذجاً للفن الأفريقي . وهم في الحقيقة رواد الفنون الزنجية . أما الأقنة فكانت من الخشب الطري ولذلك كانت سريعة العطب خاصة الأقنة الطويلة

والتي تتمثل في حيوانات (الطواطم جع طوطم) كالفهد والتمساح ومنها ما ينبع من التمساح عليه كيفية خلق الكون .

أما التماثيل الحجرية فنادرة وقديمة جداً مثل الفاب (ايده Ifes والكبيسي Kissis) (اسماء قبائل) . أما العاج فقد صنع بشكل جيد ومطلوب جداً . وقد اشتهرت بينهن بعمل التماثيل على الأنماط ، وصنعت على شكل اقتحمة صغيرة مرسومة باللون الأحمر . البرتقالي الخاصة بقبائل يابندية Babende . أما صناعة البروزن فلم تزدهر إلا لدى بعض الشعوب الأكثر تطوراً . وقد اشتهرت الأخيرة بالأط蹩ة النحاسية . ويعتقد أن شعوب الباشتو عرفت الحديد واستخدمته وصنعت المساكب من أجل الحصول عليه كما عرف بعضهم صناعة النبيذ واستخراج اللالى .

والدارس للفن الأفريقي من حيث مبادرته وسائله يجد أن هذا الفن ليس تكملاً خارجية ، بل أنه منبعث من المجتمع يساهم في وصف مثله العليا . وقيمته ، والفنون الأفريقية كغيرها من الفنون أنها هي لغة تعبر عن الوضعيات الجوهيرية الخاصة بالمجموع فهي وسائل اتصالات ذهنية وادة انسجام . وقد اشتهر في العصر الحديث الرسامون الزائرون (الكونغو) الذين رسموا الطبيعة ونقلوها نقلأً أميناً .

إن أفضل من عبر ببعض سطور عن تاريخ الحضارة الأفريقية وثقافتها القديمة والحديثة والمنابع التي اقتبست منها هذه الحضارة هو الرئيس السنغالي سينغور ، الذي يعتبر من كبار المثقفين الأفارقة عداؤه من كبار المثقفين العالميين ، وذلك في البرقية التي أرسلها لإدارة مهرجان الجزائر لعام ١٩٦٩ ، الذي يعتبر بحق أول وأفضل مهرجان ثقافي للجامعة العربية . وقد ضمن مختلف العناصر الثقافية والحضارية للقاراء الأفريقية . وتأتي أهمية هذا المهرجان من أنه جاء مباشرة بعد حصول أكثر الدول الأفريقية على استقلالها ، ونقول البرقية

« إنه يحس بأن الروح الأفريقية Africanite تستسيطر على جو المهرجان ، وقال إن القارة الأفريقية ماهي إلا حوار دائم بين عرب - وبربر ، وزنوج ، وأفارقة أي بين عرقين أصيلين يتم أحدهما الآخر ، « وعلى هذا فيتأكدت قارتنا العجوز مهد الحياة الإنسانية الأول ، وهي تحفظ بكهوفها وحفائرها بتاريخ الحضارات الأولى وذلك بالرسوم والنقش الموجودة في هذه الأماكن ، وهي تحمل دائمًا على أرضها المأثر الأصيلة للحضارة المصرية القديمة كما تعرفت على بناء الحضارة الغربية الأوائل . وشاهد على ذلك آثار قرطاجة الرائعة وتبازا: Typaza وفولوبيليس Volubilis ، وهي لاتزال تحفظ في المعابد والكنائس القبطية في الثيبية الحس المسيحي البدائي . وقد استقبلت على طول الشاطئ الواسع ، المد الإسلامي . وقد عرفت أخيراً كيف تستقبل ماتقدمه لها الحضارة الأوربية ، والتي تمثلت في الاستقلال والصداقه التي استعادت مكانها بيتشا وبين اوربا » . ثم يذكر سنغور كيف ساهمت الحضارة الإفريقية بفن النحت ، ويقول : في هذه الأيام حيث يجرب الإنسان السير على القمر والتأكد للأنسانية على اكتشاف الأفاق البعيدة في مجرتنا ، يمكن أن يظهر الاصرار على التمسك بشقاوتنا وكأنه مفاجأة . وإن الفن والتقنية كانا دائمًا متايمطين بشكل لا يمكن فصل واحدهما عن الآخر ، فهما التوأمان للنشاط الانساني الخلائق والنحوان هو ابن الحداد .

إن كل شعوب قارتنا الأم أفريقياً مدعومة للتمنافس وإظهار ماورئته من ثقافة « مصادر وإبداع ، تقاليد ومأثر » كشهادة على حضارتها وفنها وأدبها . أليس هذا شيئاً طبيعياً؟ فرغم اختلاف الأجناس والعرق واللغات والأديان فالحضارة الأفريقية كما قال فوربيتوس Forbenius « من الجزائر حتى الكاب ومن داكار حتى أبيدا نظير الأوابد التي هي القواعد المتينة لوحدتنا : ثمائيل وانصاب نوك Nok وساو Sao ومسلات اكسيوم واهرامات زيمبابوي

وبيروفز بنين Ife . المساجد الأندلسية في فاس . خطوطات ثبيكتو ، وبقايا القصر الملكي في أبومي Abomey والأقنعة المقدسة للدوغون Dogons والبمبرا Bambaras وغيرها من الابداعات الفنية ، أغانيتنا وإيقاع رقصاتنا ، كتابنا وفنانونا هم اليوم شواهد على قدم وصلابة وديمومة الفن الإفريقي »

المراجع

- الموسوعة البريطانية Eneyclapaedia Britanica
- الموسوعة الفرنسية Grand (LAROUSE) Encyclopedique
- العروق الأفريقية : Races of AFRICA : تأليف : C. G. Seligman
- اطلس الشؤون الأفريقية An Atlas of african affaires : Andrew Boydand & Patrik van Rensberg تأليف :
- مشكلة الحدود الإفريقية African Boundaru Problems : Carl Gosta - Widstand Uppsala تأليف :
- تاريخ القارة الأفريقية 1967 - 1918 : A History of Africa 1918 - 1967 : تأليف : أكاديمية العلوم السوفيتية معهد إفريقيا ، موسكو ، ١٩٦٨ .
- إفريقية والثورة : الرئيس احمد سيكوتوري
- غانا : تقاليد وثقافات ، بقلم عبد المنعم شميس وكامل عبد الحميد
- تاريخ الشعوب الإسلامية ، كارل بروكلمان .
- مجلة Natioanal Geograppie الأعداد : (1) المجموعة (١٦١) ، العدد (١) المجموعة ١٥٨ ، العدد (٥) المجموعة ١٦٠ ، العدد

- مجموعة ١٥٩ ، العدد ٦ مجموعة ١٥٦ ، عن كل من كينيا - اوغندا - زيمبابوي
- الصومال - الطوارق
- مجلة السياسة الدولية الاعداد ٢٧ - ٣٠ - ٣٣ :
(١) - افريقيا وازمة الحركة الوحدوية الدكتور بطرس بطرس غالى
(٢) - وجهة الاسلام في القارة الافريقية الدكتور عبد العزيز كامل
(٣) - الاقليات الآسيوية في شرق القارة الدكتور عبد الملك عودة
(٤) - خريطة الوحدة الافريقية بعد عقدها الاول احمد أبو شادي
- افريقيا الجديدة - الحكومة التونسية
- رحلة ابن بطوطة



كانديد في إفريقيا

أو

رحلة ابن بطوطة

ترجمة:
د. محمد حرب فرات

(١) بير الكسندر Candide ou Afrique

ou le voyage d'ibn Batouta

(L'Histor N° 6 Dee. 1983)

- هذه الدراسة هي نصريب موسوع ، ضممت معلومات إضافية للإبهام والتوضيق . وبيير الكسندر كاتب البحث بالفرنسية واحد من كبار الباحثين في حضارات إفريقيا . كان أول من أدخل دراسة لغات الباونت الأفريقية إلى الجامعات الفرنسية ومركز البحث العلمي . وهو حالياً المدير - المستشار للسميد الأفريقي الدولي . ورئيس تحرير مجلة دراسات إفريقيا ، Cahiers d'Etudes Africaines ، نساد في المهد العربي للغات والحضارات الشرقية . نشر في عام ١٩٨١ كتاباً هاماً بعنوان ، الإفريقيون ، بالفرنسية . دار نشر ليديس :

كان « كانديد » الشخصية الرئيسية في حكاية لفولتير يظهر فيها أن الكمال غير موجود حتى في أفضل العالم الممكنة الوجود . وأضحي بطل حكاية المفكر الفرنسي ، بعدئذ نموذجاً للإنسان البسيط البري ، حينما حل وأبيها خط عصا الترحال . فهل كان ابن بطوطة « كانديد » في عالم الحقيقة ، الرجل الطيب البري ، الباحث عن المعرفة في بلاد الشرق ، قبل أن ترسم صورة كانديد في خيال الفيلسوف الفرنسي الغذ ؟

في العام ١٣٥١ م غادر الرحالة العربي المغربي ابن بطوطة مدينة فاس في المغرب الأقصى متوجهاً إلى مالي في غربي إفريقيا . وكانت حصيلة الرحلة وما صادفه الكاتب فيها مذكرات ونقارير وأخباراً تسم عن حب الاستطلاع والسداجة والجبل إلى الاعتراض وتخليها النكتة الذكية البارعة ، اجتمعت كلها في كتاب رائع يقى حتى اليوم شاهداً لـ مُعادله في الأهمية عن الحياة اليومية في إفريقيا في تلك المرحلة من تاريخ العصور الوسطى .

١ - عصر ابن بطوطة :

قبل ما يقرب من نصف قرن كان تلاميذه المدارس من أبناء المستعمرات الفرنسيين ، ومن كان يتابع لهم مشاركتهم من أبناء البلاد في ما كان يدعى آنذاك إفريقيا الغربية ، يتلقون دروس التاريخ من الكتب التي أنهاها لهم أساتذة ذلك الجليل من أمثال لايس وساكيه وإيزاك ، تماماً كأفاريم من التلاميذ الذين كانوا يدرسون في مدارس فرنسانفسها ولا بد أن هؤلاء التلاميذ الذين أضحوا بعدئذ رجال الإدارة والدولة في أوطانهم بعد استقلالها ، قد

حتفظوا بصورة قائمة عن القرن الرابع عشر بما مرّ فيه من احداث : حرب المئة عام (وهي الحرب التي وقعت بين انكلترا وفرنسا ١٣٣٧ - ١٤٥٣) ، وليكلوز L Ecluse (معركة بحرية انتصر فيها الانكليز على الفرنسيين عام ١٣٤٠) ، وكريسي (معركة هزم فيها الفرنسيون وانتصر الانكليز عام ١٣٤٦) ، وانتصار حنا الطيب في بواتيه (١٣٥٦) ، وثورات الفلاحين (امها في ١٣٥٨) والطاغيون الاسود والواباء . كانت هذه الاحداث في تلك المرحلة من تاريخ فرنسا المضطرب هي التي تفرض دراستها على التلميذ الافريقي في عصر الاستعمار بينما كان القرن الرابع عشر الميلادي (الثامن الهجري) على العكس من هذا في افريقيا الغربية . إنه عصر النزرة في تاريخ سلطنة مالي كما يطلعنا على ذلك شاهد عيان هو الرحالة العربي المغربي ابن بطوطه ، شمس الدين ، أبو عبدالله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن يوسف اللواتي الطنجي الذي يُنسب الى قبيلة لواته المغربية ، كما يُنسب الى مدينة طنجة التي ولد فيها عام ١٣٠٤ م . وتوفي في فاس أو على مقربة منها ما بين ١٣٦٨ - ١٣٧٧ . وابن بطوطة هي شهرة له ولعائمه .

٢ - رحالة العصر :

حل ابن بطوطة خلال حياته عصا الزرحال والتجوال في كل ديار الاسلام وبلغ باداً بعيدة خارج العالم الاسلامي وسار في طرق امتدت من شواطئ الاطلس الى شواطئ المحيطين الهندي والمادي وبلغ اليمن والهندي وأسيا الوسطى والصين ومرّ بالفريقي الشرقي وجزر المالديف وسيلان والملايو وإندونيسيا . أمرا حلاته الى الصحراء والسودان الغربي (٧٤١ هـ / ١٣٥٢ م - ٧٤٣ هـ / ١٣٥٣ م) فيبدو أنها كانت آخر رحلاته الكبرى ، انسحب بعدها الى فاس ليدخل بلاط السلطان أبي عنان المرنيفي في المغرب الاقصى .

وكان ابن بطوطة قد قام بأولى رحلاته الكبرى ما بين ١٣٢٤/٧٢٥ - ١٣٤٩/٧٣٨ ، وجال فيها اقطار شمال إفريقيا ومصر والشرق العربي وإفريقيا الشرقية وجزيرة العرب واليمن وقصد القسطنطينية ثم عاد إلى الهند . أما في الرحلة الثانية ١٣٥١/٧٤٠ - ١٣٥٢/٧٤١ فقد وصل الاندلس وجبل طارق وغرناطة . وأما الرحلة الثالثة وهي تقع في أواسط القرن الثامن الهجري / القرن الرابع عشر الميلادي فهي موضوع حديثنا .

وبناء على طلب السلطان المغربي أملی ابن بطوطة تighbار رحلته المشهورة « خفة النظار في غرائب الأ MCSAR و عجائب الأسفار » على الوزير الكاتب ابن جُزِي^(١) . وقد أملی ابن بطوطة رحلته من ذاكرته بعد أن فقد ، فيما قيل ، كثيراً مما سجله إبان سفره وترحاله . ومع ذلك فقد كان دقيقاً لدرجة أنه يمكن تتبع ملوك رحلاته على خرائط اليوم . ومنها رحلته الإفريقية التي انطلقت من منتهي إلى مالي عن طريق صحراء موريتانيا . أما عودته إلى فاس فكانت عن طريق النيجر وصحراء الجزائر^(٢) .

وقد وصف ابن جُزِي طريقة تأليف الكتاب فيما يلي : « صدر الأمر العالى ان يضم أطراف ما املأه الشيخ أبو عبدالله فى تصنيف يكون على فوائدءه ممتلاً ، ولنيل مقاصده مكتتملاً متخيلاً تنتفع الكلام وتهذيبه معتمداً ايساحه ونقربيه ليقى الاستماع بتلك الطرف ولبعض الاتفاع بدررها عند تحريره من الصدف » وقد تولى كاتب السلطان رواية الرحلة وتلخيصها وترتيبها وإضافة

(١) - محمد بن محمد ابن جُزِي : كاتب أدب غرناطي من الاندلس من قبيلة كلب العربية ، له كتاب قوانين ابن جُزِي ، وهو من أساتذة لسان الدين ابن الخطيب .

(المترجم)

(٢) كثر المشرق الفرنسي مونتيل الرحلة إلى غرب إفريقيا استناداً إلى خط سير ابن بطوطة .

بعض الاشعار اليها وتحقيق بعض أجزائها مستعيناً بكتب الرحلات المعروفة في ذلك العصر ولا سيما رحلة ابن جعير ثم سهاماً : « تحفة الناظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار » لم تأت آية ترجمة لابن بطوطة في كتب معاصره إلا في كتاب الدرر الكامنة للحافظ وفي مقدمة ابن خلدون^(١) ولذا فلا نعرف عن شخصية ابن بطوطة الا ما يمكن قراءته خلال السطور في رحلته ذاتها . ولكننا ، بما كتبه عنه بعض المعاصرین ، نعرف ما كان له من احترام وتقدير عند ذلك : فهو الشیخ الفقیہ السانح الثقة الصدوق جوّال الارض وغیره من الاقالیم بالطیول والعرض ، كما وصفه ابن جعیزی . لقد كان حقار رحلة العصر في زمانه ، مثل كانديد جوّاب الأفق البری^٢ في خیال فولتیر . حتى لقد تصوره بعض دارسيه من الأوروبيين مثل جنتليان من العصر الفیکتوری ، أي كالرجل المهدب الكیس بلحیة تقطی الرؤجتین ومعطف طویل ذی تریبعات ملونة كالذی كان یرتديه رجال الاولستر في شمال ایرلندا .

كان ابن بطوطة فقيهاً يحسن القضايا ، كسب من عمله قاضياً حيثما كان يتوقف في مسار رحلته قوت يومه ونفقات سفره . لم يكن انسولوجياً عالماً في الاقوام والشعوب ، ولا صاحباً مستطلماً للأخبار ولا مستكشفاً فاسداً الاستكشاف ، لم يكن سوى رحالة جوّاب آفاق . كان قريباً من معاصرينا بأحكامه المسقة ويوجدها الطیب وإشاراته غير المباشرة عن طريق ملاحظاته . تؤخذ عليه سذاجته في تقبل الاشياء ، ولكن شهاداته تكتسب بذلك قيمة خاصة عندما يزورونا بأتعبار صادقة عن دول الاسلام السودانية في ذلك العصر كسلطنة مالي وغيرها ، وعندما يطلعنا على جوانب من الحياة الثقافية وتفاصيل من مظاهر الحضارة التي لم تتغير بعض ملامحها حتى ايامنا هذه . ولفت بعض

(١) درس عدّ كثیر من الباحثین ابن بطوطة وكتبوا عنه (انظر المرجع)

الباحثين المختصين^(١) الانتباه الى لغة رحلة ابن بطوطة بصفتها وثيقة لغوية فهو يقول «منطوط البحر» ويعني لصوص البحر ، وهو يقصد بالبيت الغرفة ، وبالدار البيت ، وبالنوبة الدور ، ويدعو النوار الزهر ، وحب الملوك الكرز ، ويسمى منهاريع الماء مصانع . وقد انقطعت أخبار ابن بطوطة بعد كتابة هذه الرحلة ، وكل ما يُعرف عنه بعد ذلك انه ولِي القضاء في بعض مدن المغرب . ولعله تعب أخيراً من الارتحال والاسفار فأثار الطمأنينة والاستقرار .

٢ - مكانته العلمية^(٢)

وقد اكتشف الرحالة بورخرت (Burchart) مختبراً لرحلة ابن بطوطة وكان اول ما اثار انتباه الاوساط العلمية الاوربية اليها منذ القرن الثامن عشر ؛ ثم ترجم المستشرق كوسجارتن (Kosegarten) أجزاء من خطوطه ثانية قام بترجمتها الى اللاتينية ، إلى ان تمت ترجمة الرحلة بكاملها الى الفرنسية على ايدي المستشرقين الفرنسيين دوفريمير وسبنغيتي ونشرتها الجمعية الآسيوية ضمن امهات الاعمال الشرقية الهاامة التي قامت بنشرها منذ اواخر القرن الماضي . وقد طبع النص العربي بمقابل النص الفرنسي المترجم اليه في خمسة مجلدات خصص آخرها للفهارس المنظمة والمشروحة ، استكمل اصداراتها في العام ١٨٩٣ .

وقد نشر المستشرق الانكليزي جب Gibb ملخصاً للرحلة بالانكليزية عام ١٩٢٩ . قدم له بمقادمة مركزة تحدث فيها عن الرحالة وعصره .

(١) الدكتور علي المتصر الكتاني ، رحلة ابن بطوطة ، تحقيق وتقديم ، ج ١ + ج ٢ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت الطبعة الاولى ١٣٩٥ هـ ١٩٧٥ م . رجع المُرَبِّ الى هذه الطبعة لضبط مفردات النص ولاقتباس الشواهد .

(٢) هذه الفقرة من المقال إضافة من المُرَبِّ .

كما ترجمت رحلة ابن بطوطة إلى الالمانية والبرتغالية والتركية وغير ما
وكتب عنه جغرافيون ومستشرقون أوربيون من ألمهم ريتز Ritter الجغرافي
الالماني ، أما الرحالة الانكليزي كولي (Cooley) فقد كتب عام ١٨٤١ يقول
« ان رحلات ابن بطوطة لانقل اهمية عن رحلات ماركوبولو . لكن العالم
الرحالة سيتزن وهو من اهم من كتب عن بلاد الشام في القرن الماضي قد كتب
يقول :

« أي رحلة أوربية حديث يمكن أن يتباهى بأنه من صرف من عمره زماناً
يعادل نصف عمره في البحث عن بلاد بعيدة وذلك بشجاعة لانتزع امام
التابع التي لا تخصني ؟ أية أمة أوربية يمكن أن تذكر قبل خمسة قرون من
ابنائها رحالة جاب بلاداً أجنبية بمثل هذا الاستقلال في الفكر وهذا النجاد في
اللاحظة وكتب ملاحظاته كما فعل الشيخ هذا المراكشي الذي اشتمل كتابه على
عجلدين ؟ »

١ ملاحظاته حول بلاد مجاهولة في إفريقيا والنيل وبلاد الزنج لانقل
أهمية عناجرده عند ليو الأفريقي . جغرافية بلاد العرب وبخارى وكابل
وقد هار لها أهميتها في مؤلفه ، وحتى ما كتبه عن الهند وسيلان وسمطرا
والصين .

وتحت سيتزن قائلاً :

« يجب أن يقرأ عمله بعناية وينبغي أن يطلع عليه وخاصة الانكليز الذي
يهمون بالهند وأحوالها »^(١) .

وقد اجمع كبار المستشرقين الذين عنوا بالجغرافيا العربية على تقدير أهمية
الدور الذي قام به ابن بطوطة تقديرًا عالياً وعلى وضعه في سوية ماركوبولو
الرحالة الإيطالي الشهير . فالمستشرق السوفيتي كرانشكونوفسكي يعتبره آخر

(١) عن مقدمة ديفيد بيري لترجمة رحلة ابن بطوطة .

جغرافي عالمي من الناحية العملية اي انه لم يكن ناقلاً يعتمد على كتب الآخرين بل كان رحالة انتظم خطط اسفاره عدداً كبيراً من الاقطار ، وقد جاوز مقدار تجواله مائة وخمسة وسبعين الف ميل ، فهو بهذا ينافس معاصره الذي سبقه في الرحلة ماركوبولو الرحالة البندقى الايطالي (١٢٥٤ - ١٣٢٣) الذي دفعه حب الاسفار الى اجتياز كل اسية عن طريق منغوليا وعاد عن طريق سومطرة وعهد الى كاتب له في إخراج مذكراته إخراجاً أدبياً في كتاب رحلة ماركوبولو .
 اما المستشرق الفرنسي ر. بلاشير فيقرر ان لكتاب رحلة ابن بطوطة « اهمية فائقة في التعرف على العالم الاسلامي في القرن الرابع عشر الميلادي .
 ففي هذا الكتاب الذي يكثر فيه الاستطراد وتختلط فيه الاساطير مع الحكايات بعيدة عن التصديق والوصاف المتكررة تكتشف فيه أيضاً معلومات تاريخية دقيقة ومفيدة ولا سيما منها المتعلقة بمعتقدات وتقعيمات واخلاق السكان كما رأها هذا الرحالة الذي يتفوق عنده حب الاستطلاع على حدة الذكاء » .

اما كارل بروكلمان في تاريخ الشعوب الاسلامية ، فيؤكد أن المعلومات الطبوغرافية التي قدمها ابن بطوطة وهي اوئل واكثر جدارة بالاعتماد من تلك التي نجدها عند ماركوبولو ، لأن ابن بطوطة وهو المغربي المسلم ، كان يحسن الى جانب العربية التركية والفارسية ، وكان ذا دراية بالاحوال الاجتماعية والثقافية في العالم الذي وصفه .^{١١}

إن المزايا التي يتحلى بها مؤلف ابن بطوطة دفعت عدداً كبيراً من الباحثين المرموقين الى الاستعana بما يتضمنه من تقارير دقيقة ومنهم لسترنغ في كتابه امام عن بلاد الخلقة الشرقية وبارتولد اشهر من يبحث من المستشرقين في تاريخ الترك وأسية الوسطى في زمن الحضارة العربية الاسلامية . وقد نشر عمر حسين الخشاب اول طبعة للكتاب بالعربية في القاهرة عام ١٣٢٢ هـ ثم نشرت

(١) راجع عبد الرحمن حيدر ، أعلام الجغرافيين العرب دمشق ١٩٨٠ ص ٤٥٥ .

المرحلة في عدد من الطبعات صدرت عن عدد من دور النشر العربية ، من اجودها الطبعة التي حققها ونشرها الدكتور علي المتصر الكتاني (١٩٧٥) . قد اعاد المستشرق الفرنسي المعاصر فسان - المتصر مونتيل نشر الطبعة الفرنسية المترجمة عام ١٩٦٩ ، بأربعة اجزاء ايضاً بعد ان كرر رحلة ابن بطوطة وزار الاماكن التي وصل اليها الرحالة العربية المغربي .

٤ - مملكة مالي :

في العام ١٣٥٢ كان قد مضى على سيادة مالي على السودان الغربي قرن من الزمان . وقد تم ذلك على يدي مؤسس الاسرة الحاكمة من آل كيتا ما بين ١٢٣٠ - ١٢٥٥ . وقد امتدت سلطة اسرة كيتا هذه عرضاً على كل البوادي والسهوب السواحلية الواقعة جنوب الصحراء الكبرى حتى حدود الغابات الغينية ، وطولاً من الاطلسي الى وادي النيجر الاوسط . وبالمفهوم الجغرافي المعاصر تغطي هذه الرقعة بلاداً تمتذ بين جنوبى موريتانيا وتشمل دول السنغال وغامبيا وجمهورية مالي وبين شمال غينيا وساحل العاج وغانا وتشمل جزءاً كبيراً من جمهورية الفولتا ومن غربى النيجر ومن شمال غربى نيجيريا .

اما السكان فيتسمى معظمهم الى قبائل تشتهر في المجموعة اللغوية الماندية ، ومنها لغات : المالنكه ، البامبره ، وسراوكوه - سونكبه وخاسونكه ، ويضاف اليهم ضمن نفس المجموعة بربر الصحراء (الطوارق) ومنهم الولف والبلل والستني والصنوفة والدجن وغيرهم .

واللغة العربية مكانة ثقافية عالية تعادل مكانة اللاتينية عند شعوب اوروبا الوسطى ، فهي لغة الكتابة والتجارة والدبلوماسية والادارة العليا . أما الاسلام فهو الدين الرسمي في قصر السلطان وفي مجتمع الكبار وفي التجارة والمعاملات الدو . ولكن لم يتشارب بين عامة الناس وحتى بين الحاشية القرية من « المنسى » السلطان سليمان . ويقي الدين هناك مختلطاً بممارسات بعيدة عن الدين الصحيح صدمت ابن بطوطة وهو المسلم التقى الفقيه .



١ - صفحة من خطوطه النص الذي أملاه أبو عبد الله ابن بطوطة على الكاتب ابن جزي في ١٣٥٦ . وهي النسخة التي بنيت عليها الطبعة التي أصدرتها الجمعية الآسيوية الفرنسية بالنصين العربي والفرنسي عام ١٨٥٣ .

كانت قوة المملكة تستند الى تجارة الذهب وتصديره حيث كان يستخرج من مناطق الغابات الجنوبيّة ويجري تبادله مقابل الملح المستخرج من مالع الصحراة في الشمال . وكما كانت مملكة غانا الونية التي دمرها في ١٠٧٦ م سلاطين المغرب المرابطون ، كانت مالي هي المورد الأساسي للذهب في المغرب ومنه كان يصدر الى إسبانيا وبلاد أوربة الغربية . أما تصدير العبيد نحو أفريقية الشماليّة والى بلاد الشرق العربي فقد كان يجري منذ زمن لكنه لم تكن له أهمية اقتصاديّة تقارب الأهميّة الاقتصاديّة للذهب . ومع ذلك فهذه التجارة كانت بانسحابين ، لأن مالي نفسها كانت تستورد بعض العبيد من حوض البحر المتوسط : وهي تجارة من نوع الكهاليات كالأسلحة والاقمشة المشرقية والأوربية النفيضة والكتب العربية والمعطرات . أما الخيول المغاربة فهي تعود كروها من الكهاليات إذا ما حسبنا مقدار تفوق المنسى أي عاشر مالي بها كان يستند اليه من قوة الفرسان .

قبل رحلة ابن بطوطة بجيبل واحد وقع حادث يُبرر وزن مالي في اقتصاد البحر المتوسط وهو توجه المنسى كان كان موسى الى الحج الى مكة في العام ١٣٢٤ م . وقد أنفق في طريق رحلته وهو في مصر مبلغًا كبيرًا من الذهب أدى الى هبوط سعر الذهب بنسبة ٢٠٪ .

كان مالي وزن بين دول المطاففة لكنه لم تكن قوة . كانت تقيم فيها طوائف من التجار من أهل شمال افريقيّة والأندلس من المسلمين العرب والبربر ومن غير المسلمين كاليهود . وقد استقر هؤلاء التجار في مدن مالي ، ولكن لم يكن يقيم تجارة من مالي في بلاد افريقيّة الشماليّة . أما النقل عبر الصحراة فكان امتيازًا للبدو من الشعب البيضاء من لم يكونوا من رعايا المنسى سلطان مالي أو انهم كانوا يدينون له بشيء قليل من الولاء . . .
وأخيراً على صعيد مختلف في الظاهر لكنه بالواقع مرتبط بالسابق ، كان

في مالي عدد كبير من شيوخ المسلمين وفقهائهم وهم غالباً من أصل اجنبى اي من غير أهل مالي ، وعلى الاغلب من اهل المغرب . ولم يكن هذا الوضع ما ظهره في ماوراء الصحراء حيث يكون وضع السكان السود عبودياً بالدرجة الاولى . كان اقتصاد الملكة المالية مزدهراً لكنه مرتبط على نطاق واسع وبغضض لمراقبة السايسرة والوسطاء وممارسي الطب الذين حلوا في السائح الرحالة ابن بطوطة بينهم وأصحوا خبر ابن له ومصدراً معلوماً .

٥ - دافع الفضول الوحيد :

غادر ابن بطوطة فاس وبلاد السلطان خلال شتاء عام ١٣٥١ وراح يرتب سفره إلى سجلهاست^(١) في تفاصيلات في الجنوب الشرقي من جبال الأطلس . سجلهاست التي لم يبق منها سوى الانقاض ، كانت آنذاك محطة تجارية هامة على الحدود عند حافة المصطبة التي ماتزال تصل الحدود الجزائرية - المراكشية بهالي الحالية .. وقد أعدت للرحلة الإبل التي لجمت أربعة أشهر لتعويذها على متاعب الرحلة ، ثم انضم في شهر شباط ١٣٥٢ (٧٤١ هـ)

(١) مدينة اندشت وفي موضعها اليوم قرية تسمى الريصاني واثارها تسمى مدينة الحمراء . وقد ذكرها البكري أكابر جغرافي الاندلس (٤٠٥ - ٤٨٧ هـ ، ١٠١٤ - ١٠٩٤ م) في كتابه المسالك والممالك : « الطريق من مدينة فاس إلى سجلهاست ، من مدينة فاس إلى صفروى وهي مدينة مسورة ذات انهار وأشجار ومنها إلى الاصنام ومنها إلى موضع يقال له أمفاري مرحلة كبيرة نحو السين ميلاً ومنها تدخل في عمل سجلهاست بين انهار وأنهار ثلاث مراحل إلى سجلهاست . ومن سجلهاست تدخل إلى بلاد سوداد إلى غانة وبينها وبين تلك المدينة شهرين في صحراء غير عاصمة إلا بقسم ظاعنين ولا يطمئن بهم منزل وهم بنو مسوقة من صنهاجة ليس لهم مدينة يأوون إليها إلا وادي درعة وبين وادي درعة وسجلهاست مسيرة خمسة أيام .

الى قافلة يقودها دليل معترف من بربير الصحراه من قبيلة مصوقة . وبعد مسيرة خمسة وعشرين يوماً وصل ابن بطوطه دون آية متابع الى الملحنة الكبرى في تغازي ، (التي تركت في ايامنا هذه عندما اتجه المشتغلون باستخراج الملح الى ملحنة اخرى هي تاودينة وتبعد مسافة مئه وخمسين كيلومتراً الى الجنوب) ، لكنها لم تعجبه مطلقاً . يقول :

... هي قرية لآخر فيها ومن عجائبها ان بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح وسقوفها من جلد الجمال ولا شجر فيها ، انها هي رمل فيه معدن الملح يخفر عليه في الارض ، فيوجد منه الواح ضخام متراكبة كأنها تحت وضعت تحت الارض ، يحمل الجمل منها لوحين . ولا يسكنها الا عبد مسوقة الذين يخرون على الملح ويتعيشون بما يجلب اليهم من غر درعة^(١) (الكبير الحجم والفاخر) وغير سجلهاة ومن لحوم الجمال ومن أثلي (الذرة) المجلوب من السودان . ويصل السودان من بلادهم فيحملون منها الملح وبيع الحمل منه في إبراتن بعشرة مثاقيل الى نهاية وفي مدينة مالي "بثلاثين مثقالاً الى عشرين وربما انتهى الى اربعين مثقالاً . وبالملح^(٢) يتصرف السودان كما يتصرف بالذهب والفضة يقطعنوه قطعاً ويتبععون به . وقرية تغازي على حقارتها يتعامل فيها بالقناطر المقنطرة من التبر . واقمنا فيها عشرة ايام في جهد لان ماءها زعاق . وهي اكثر ذباباً .

(١) الدرعة اسم واد واقليم في نوميديا يبدأ من جبال الاطلس ويمتد جنوباً على مسافة مئتين وخمسين ميلاً . انظر : الحسن الوزان الزبياتي ، وصف افريقيا ، ترجمة الدكتور عبد الرحمن حيدة ، ص ٤٩٠ .

(٢) هي جنة ، وهو اسم للملكة ولعاصمة مالي . التي كانت تدعى نيان وهي قرية كبيرة على نهر سنگان قرب مقرنة مع النiger . المرجع السابق ص ٥٣٩ .

(٣) للملح اهية دوائية وطبية لتركيب الوصفات الطبية الشعية .



قبعة تمثل غزالاً من يامبورا - السنغال

٢ - صورة طلسم سحري مما كان شائعاً في السودان وغرب إفريقيا كتب بحروف عربية وهو يشير إلى مبدأ قدرة المربع السحرية ذي الأصول التي تعود إلى الحضارات الشرقية القديمة لكن الصورة وخطوطها تبدو سودانية الملام .

هذه التفاصيل حول سعر صرف الملح بالذهب تساعد على فهم أهمية الملح في تاريخ السودان الغربي وعلى إدراك بواعث الصراع في سبيل استملاكها ما بين المغاربة والصحراويين من جهة الذين كانت لهم اليد الطولى آنذاك . وبين السودان من جهة أخرى ، وكيف كان ذلك عاملًا دائمًا من عوامل النزاع الذي انتهى في عام ١٥٩١ إلى القضاء على آخر مملكة كبيرة في السودان العربي وهي سونغاي دون أن يؤدي ذلك إلى إغناه قاهرها المغربي . إن تجارة الملح الصحراوي استمرت حتى الحرب العالمية الثانية ولكن لم يبق منها اليوم إلا بقايا .

ويشكوا ابن بطوطة ، بعد هذه الملاحظات الدقيقة حول التجارة ، من سوء مذاق الماء ومن الذباب والفعل ، « حتى يجعل الناس في اعتقادهم خيوطا فيها الزئبق فيقتلها » ، لكنه يسجل بسرور كثرة كثافة الصحراء البيضاء وهي بطعم الشوم مشهورة بتأثيرها في تقوية الرغبة الجنسية . وعند الخروج من نفاري زعير أحد أفراد القافلة ويدعى ابن زيري إن نزاع نشب مع ابن خاله ابن عدي فضل وتأهله ثم هلك في الصحراء ولم يظهر له خبر . وقد حرص ابن بطوطة بعد ذلك على تباعد عن بقية أفراد القافلة ، ومن بث الأقصاب (ناسير هلا) وهي أحشاء ماء تنزل القوافل عليها في المحطة الأخيرة قبل الخروج من الصحراء يرسل كشاف خاص يدعى التكشيف^(١) يكلف باعداد ما تحتاج إليه القافلة من المياه ويكتري للناس الدور للإقامة عند وصولهم . فإذا ماهلك هذا الرجل في الطريق « ضحية الجن والأرواح » التي تس揆 على المنطقة كانت القافلة محكومة بالهلاك . فلا يعلم عنده أحد بالقافلة . لكن ابن بطوطة وهو من أهل الخبر ، على الرغم من مخاوفه وما يعتقد من مأخذ وما يردد من نقد ، يستسلم كالكثيرين غيره إلى ما في الصحراء من جاذبية وسحر فكان يراها

(١) التكشيف اسم لكل رجل من مسورة يكتريه أهل القافلة .

بشرقة يشرح الصدر فيها وتطيب النفس ويطمئن الإنسان بأمه من السرّاق .

٦ - رجال بلا غيرة :

فقدت ولاته في أيامنا هذه كلُّ ما كان لها من أهمية . لكنها كانت في العام ١٣٥٢ مركزاً تجاريًّا فعالاً ، وهي مدخل إلى سلطنة مالي وما مسؤول هونائب السلطان فربا حسين ، الحاكم العسكري الذي يتبعه إلى طبقة النبلاء . ومنسيبيون مثل السلطنة وهو من طبقة العبيد ، وكلاهما من السود . ولم يكن تصرف هذين الموظفين الكبيرين مرحبًا للسائح المغربي ، كما أزعجه سوء معاملة الجالية البربرية .

« ولما وصلنا جعل التجار أمتعتهم في رحبة وتكتل السودان بحفظها وتوجهوا إلى القربا وهو جالس على ساط في سقيف واعوانه بين يديه بأيديهم الرماح والقصي وكراء مسورة من ورائه . ووقف التجار بين يديه وهو يكلمهم بتوجان على قرنيهم منه احتقاراً لمم فعند ذلك ندلت على قدوسي بلادهم لسوء أدبهم واحتقارهم للأبيض » .

إن عدم المقدرة على تفهم شأن السياحة واضح هنا فالضابط السوداني من الباهرة أو المالنكة وقد يجهل العربية حتى وإن كان مسلماً ، لكنه لكونه سودانياً لا يتوجه مطلقاً في خطابه إلى عامة الناس . والقاعدة المتبعة حتى اليوم تتطلب منه نقل كلامه بواسطة « لسان الرئيس » أي الناطق بلسانه الذي يردد بصورت مرتفع وبلفته الخاصة ما كان سمعه بصوت خفيض .

وفي اليوم نفسه تصادف وقوع حادثة غريبة هذا السائح النهم الذوّاق الذي خصص مساحة كبيرة في كتابه لذكر ملاحظات تتعلق بالتنعيم وللأدلة باعترافات عن متاعب هضمية . فعندما دعى إلى ضيافة المنسيبيون أراد

الامتناع عن تلبية الدعوة باديء ذي بدأهة لكنه اضطر الى الرول عند إرادته
الاصحاب من رفاق الرحمة . لتابع ما يرويه ابن بطوطة :

«ثم إن مُشرف ابوالاتن ويسمى منشاخو منسديون استدعى من جاء في
القافلة الى ضيافته ، فأبيت من حضور ذلك ، فعم الاصحاب على أشد العزم
فتوجّهت فيمن توجه . ثم أتي بالضيافة وهي جريش أنيل (الذرة) خلطا
بيسير من عسل ولين وقد وضعوه في نصف فرعنة صبر وشبه الجفنة فشرب
الحاضرون وانصرفوا فقلت لهم :

أهذا دعانا الأسود ؟ قالوا نعم وهو الضيافة الكبيرة عندهم . فايقت
عندئذ أن لا خير يرثى منهم وأردت أن أسافر مع حجاج ابوالاتن » .
وهنا نجد انفسنا مرة أخرى أمام سوء فهم ثقافي ؛ إن تقديم هذا الحساء
هو بشابة نوع من العقوص - كتقديم الخبز والملح للغبيف عند البدو - ومن
الخطأ النظر اليه كالنظر الى وليمة . ويستمرون هناك في افريقيا حتى اليوم في
تقديم هذا الطبق التقليدي في أوعية من نبات القرع المزينة على احسن صورة
ويصمدون أمام الإغراء باستخدام الأولى الحديثة المطلية المنافة لها .

ومن جهة أخرى فإن سكان أولاته ، ابوالاتن ، من البربر ، صدموا
قناعاته المبنية على أحكام مسبقة في أمور منها ما يتصل بوضع النساء في
المجتمع :

«... لنسانها الجمال الفائق وهن أعظم شأنًا من الرجال ، وشأن هؤلا ،
القوم عجيب ، وأمرهم غريب ، وأما رجاتهم فلا غيره لديهم ولا يتسب
احدهم الى أبيه بل يتسب حاله ، ولا يرث الرجل الآباء ، أخنه . دون
بنيه . وذلك شيء ما رأيته في الدنيا إلا عند كفار بلاد المغاربة من افنتو . وأما
هؤلاء ، فهم مسلمون عاقظون على العصلوات وتعلّم النّفّه وحفظ
القرآن ...» .

ويمضي ابن بطوطة مستغرباً ناقداً :

« وأما نساؤهم فلا يختشمن من الرجال ولا يتعجبن مع مواطنبيهن على الصلاوات ومن أراد التزوج منهن تزوج لكنهن لا يسافرن مع الزوج ولو أرادت إحداهن ذلك لمنعها أهلها . وإن ساء هناك يكون هن الاصدقاء والاصحاب من الرجال الأجانب وكذلك للرجال صواحب من النساء الأجنبية ويدخلن أحدهم داره فيجد أمرأته ومدحها صاحبها فلا يتذكر ذلك » .

وعندما يفسر الأنثولوجي في القرن العشرين ذلك فإنه يفسره كيابيل : البنوة هنا تتبع نظام النسب إلى الأم ، والزواج بإقامة في كنف أهل الأم وفي خدمتهم . وهي ملامح اجتماعية ماتزال آثارها ظاهرة عند الطوارق . ويستشهد الباحث بما توصل إليه على هذا الشكل . لكن ابن بطوطة لم يكن مسروراً أبداً في مواجهة - ۱۰ - تتصل بتلك الظاهرة الاجتماعية واضططر إلى اتخاذ موقف متشدد منها :

يقول :

ودخلت يوماً على أبي محمد بن يندكان المسوقي الذي قدمنا في صحبته موجودته فاعداً على بساط وفي وسط داره سرير مظلل عليه امرأة معها رجل فاعد وما يتحدىان . فقلت له : ما هذه المرأة ؟ فقال : هي زوجتي . فقلت وما الرجل الذي معها ؟ فقال : هو صاحبها . فقلت له : أترضى بهذا وأنت قد سكنت بلادنا وعرفت أمور الشرع ؟ فقال لي : مصاحبة النساء للرجال عدنا على حير وحسن طريقة لاتهمة فيها ولسن النساء بلادكم . فعجبت من رعونته وانصرفت عنه فلم أعد إليه بعدها واستدعاني مرات فلام أجهه . . .

٧ - في حاصمة مالي :

ما أن تخلص الرحالة خباب الأرض من متاعب السفر ، وطرح المفاجآت إلى ثناres دهشت واستغرابة حتى استائف السير متوجهًا إلى عاصمة

مالي مع ثلاثة من المرافقين فحسب ، لأنه لا حاجة للسفر في رفقة لامن تلك البلاد وطرقها ، لكنه لا يعطيانا وللاسف تفاصيل عن خط سيره ، مما كان ربها يساعدنا على تحديد تلك العاصمة بدقة ، وهي التي يغلب الفتن على أنها « نامي » على نهر السنكري ، وهو رافد لنهر النيل من الجهة اليمنى ، على الحدود الفاصلة ما بين جمهوريتي غينيا ومالي. لكن مالي القديمة اندثرت . وسار بعدئذ في طريق محفوفة بالأشجار ، ويسكن ان تعرف من وصفه لها على أنواع منها سجاد الباوباب الضخمة (التي قد يبلغ قطر جذع الواحدة منها عشرين متراً) واحتراق حقولاً وسهولاً خصبة وصف لنا بعض منتجاتها وخيراتها والمسافر في هذه البلاد لا يحصل زاداً ولا اداماً ولا ديناراً ولا درهماً : إنما يحصل قطع الملح وحلب الزجاج الذي يسميه الناس النظم وبعض السلع العطرية التي يعجبهم منها القرنيفل والمصلوكى وهو اللبان ، وينصح بالامتناع عن أكل الرز المحلي لسوء هضمه ويقول ان الفوقي خير منه ، (وهو نوع من النجليات ، نباتات من وحدات الفلقة تشمل النباتات الخبيثة والعلقانية) ، ويصنع من جبورها الصغيرة التي تب ثب بصورة عفوية حساء أو مغلل طيب المذاق) .

وقد قابل بعذئذ في طريقه مجموعة من المسلمين العرب او من اهل شمالي افريقيا من الخوارج الإباضيين ، ويدعون خلياً صفتور كما التقى بجماعة من أتباع الذهب المالكي ، وهو مذهب راجح في إفريقيا الشمالية وهو لا يدعون عنيناً توري . وهذا الانساني مايزال يحملها الكثير ون من عشائر المانديين او المانديع . وبعد مسيرة اثني عشر يوماً وصل أخيراً الى نهر النيل الذي يدعوه نهر النيل وهذا خطأ يمكن تفسيره بحقيقة كون عربى النيل يتجه نحو الشرق . ولم يمكن التعرف على بحرى النهر علمياً حتى القرن التاسع عشر . ثم بروي لنا هذه الحادثة التي تدل على سوء تفهم سياحي . يقول :

٩ . وقد نزلت يوماً إلى النيل (يقصد نهر النيل) لقضاء حاجة فإذا

بأحد السودان قد جاء ، ووقف فيما بيقي وبين النهر فعجبت من سوء أدبه وقلة حيائه ، وذكرت ذلك لبعض الناس فقال : إنما فعل ذلك خوفاً عليك من النساح فحال بينك وبينه .

وبعد أن قطع السانح مرحلة قصيرة أخرى وصل أخيراً (في الرابع عشر لجادى الأولى عام ١٣٥٣) إلى العاصمة مالي حيث استاجر بيتسا في حي « البيض » وكانت شهرته في الفقه قد سبقته وقدم إليه الزائرون مرحبيين وعلى رأسهم القاضي السلطان الكبير الذي جاء إليه عملاً بأهدابا ، والرحلة يذكر له ذلك بما يغدوه من المدح على القاضي الكريم وصفاته النبيلة . ومن جاء لزيارة إمام المسجد الكبير والوجهاء والأدباء من Sudan وعرب من المتزوجين المقيمين في البلاد وفيهم الترجمان الخاص للسلطان . وهو بالواقع رئيس المشددين . لكن هذا الاستقبال الحار ينتهي باصابة ابن بطوطة بالنسس بصورة خطيرة . . .

وما أن استرد عافيته حتى مضى لتقديم نفسه إلى عامل البلاد المُشـ سليمان . ومتى لقب معناه السلطان . وهو يصفه بإيماز بقوله : « . . . هو ملك بخييل لا يرجى منه كبير عطايا » . لكن السلطان وضع يتصرف الزائر متزلاً وخدماً وأجرى له مرتبًا ومنحه ما يعادل مائة وثلاثة وثلاثين أونصة من التبر ، الذهب . لكن هدية الضيافة التقليدية التي تلقاها لم تكن من الملابس الفاخرة والأشياء الثمينة كما كان يتضرر ، إنما كانت تتألف من ثلاثة أقراص من الخبز وقطعة لحم بقرى مقلية بالغرتي وقرعة (زبدية) من اللبن الرايب » وفي تقديم هذا الطعام عند السودان اكرام كبير . من السلطان الذي أراد مشاركة ضيفه بالطعام المشترك المعتمد . لكن ابن بطوطة لم يقدر الالتفاتة الكريمة حق قدرها ووجد فيها انتقاداً من شأنه وعبر عن سخطه قائلاً « وطال ته جبي من ضعف عقوفهم وتعظيمهم لهذا الشيء الحقير . . .

٨ - « أعمال منكرة » :

وعند استقباله في قصر السلطان ضيقاً مكرماً يطلع الرحالة على المراسم السلطانية ويقدم لنا وصفاً تفصيلاً لها فيها من أدب السلوك المزعية في المناسبات الاحتفالية وما يختلط فيها من طقوس ومارسات دينية (الصلوات ، تلاوة القرآن ، خطبة الجمعة) . وبينما يجد ابن بطوطة في ذلك غرائب يستحف بها أحياناً فإن القارئ المعاصر المهتم بثقافة المنطقة يندهش بمظاهر رائعة ولكن لم يبق منها حتى أيامنا الآثار قليلة جداً . ومنها ما كان مرعياً من أدب السلام على العواهل والمعظماء قبل نحو عشرين عاماً مما يذكر بها حدثاً عن الرحالة المغربي النقاد :

« ... والسودان أعظم الناس تواضعاً لملكتهم وأشدتهم تذللأ له وتعلفون باسمه فيقولون « منسى سليمان كي » فإذا دعا بأحدهم عند جلوسه بالقية التي ذكرناها فوزع المدعوه ثيابه وليس ثياباً خلقة وزرع عيامته وجعل شأشية وسخة ودخل رافعاً ثيابه وسراويله إلى نصف ساقه وتقدم بذلة ومسكناً . وضرب الأرض بعرقيه ضرباً شديداً ووقف كالرافع يسمع كلامه . وإذا كلّم أحدهم السلطان فرد عليه جوابه كشف ثيابه عن ظهره ورمى بالتراب على رأسه وظهره كي يفعل المغتسل بالماء وكانت أغرب ما بينهم كيف لأنعمى أعينهم » . ومن هذه المناسبات الاحتفالية التي وصفت في « الرحلة » ما كان يقدمه المشتري . بارعون من عروض في الأعياد الدينية لل المسلمين كالعيد الكبير (الأضحى) وعيد الفطر عند انتهاء شهر الصوم في رمضان :

« ... ويجلس الفرازية والقاضي والخطيب على العادة ويأتي دوغا الترجمان بنسائه الأربع وجواريه وهي نحومة عليهن الملابس الحسان وعلى رؤوسهن عصائب الذهب والفضة فيها تفاصي ذهب وفضة . وينصب لدوغا كرسى - دوغا هو ترجمان السلطان كبير الشعراء والمشددين يدعى غالباً معلم

الاَلسُّانُ الْمُلْكُ ، يُجَلِّسُ عَلَيْهِ وَيُضَرِّبُ الْأَلَةَ الَّتِي هِيَ مِنْ قُصْبٍ وَتَخْنِقُهَا
فَرِيعَاتٌ . وَيَعْنِي بِشِعْرٍ يُمَدِّحُ السُّلْطَانَ فِيهِ . وَيَذَكِّرُ غَزَوَتَهُ وَأَعْمَالَهُ . وَيَغْنِي
النِّسَاءَ وَالجُلُوَارِيَّ مَعَهُ وَيُلْعَبُنَ بالقُسْبِيِّ . وَيَكُونُ مَعْهُنَ حَنُورٌ ثَلَاثَيْنَ مِنْ غَلَيَانِهِ ،
عَلَيْهِمْ جِيَابٌ جَلَابٌ وَالْحَمْرَ وَفِي رُؤُسِهِمُ الشَّوَاشِيُّ الْبَيْضُ وَكَلْ وَاحِدٌ مِنْهُمْ
مُنْقَلَّدٌ طَبْلَةٌ يَضَرِّبُهُ ، ثُمَّ يَأْتِي اَصْحَابَهُ مِنَ الصَّبِيَانِ فَيُلْعَبُونَ وَيُتَقْلَبُونَ فِي الْمَهَارَهِ
كَمَا يَفْعَلُ السَّنْدِيُّ وَقَمُّ فِي ذَلِكَ رِشَاقَهُ وَخَفَّهُ بَدِيعَهُ . وَيُلْعَبُونَ بِالسَّبِيفِ أَجْلَى
لَعْبٍ ، وَيُلْعَبُ دُوْغَا بِالسَّبِيفِ لَعْبًا بَدِيعًا ، وَعِنْدَ ذَلِكَ يَأْمُرُ لِهِ السُّلْطَانُ
بِالْأَحْسَانِ . . .

.. وإذا أتت دوغا لعبه جاء الشعرا ويسمون الجرلا واحدهم جالي
 (بلهجة المالنكة - بامبرة : منشد) . وقد دخل كل واحد منهم في جوف صورة
 مصنوعة من الريش تشبه الشقشاق ، وجعل لها رأس من الخشب او منقار اخر
 كانه رأس الشقشاق ويقفون بين يدي السلطان بتلك الهيئة المضحكة فينشدون
 اشعارهم . وذكر لي أن شعرهم نوع من الوعظ يقولون فيه للسلطان إن هذا
 البنبي الذي عليه جلس فوقه من الملوك فلان وكان من أحسن أفعاله كذا ،
 وفلان وكان من أفعاله كذا ، فاقعول أنت من الخير ما يذكر بعدك ، وأخبرت ان
 هذا الفعل لم ينزل قدرياً عندهم قبل الاسلام فاسمحوا عليه .. .

ولم ينقطعوا بالحقيقة عن تقديم مثل هذا العرض متذبذباً : ويمكن
للسائح (او الانثولوجي) في القرن العشرين أن يصادف حتى الآن ما سبق
ذكره في المقطع السابق مشاهد عروض رقصة السيف . وهي من الألهيات
الشائعة في منطقة مان على ساحل العاج ، والاقنعة وأغطية الرأس المزينة
والمثلة لرأس طير الطوقان الضخم او رأس الطير أبو قرین وهو طائر ضخم
ايضاً يعيش في الغابات وتناسبه المناطق الحارة ، وهو ما شاهده حتى أيامنا هذه
في مالي ؛ اما تردید المدائح والشعارات التقليدية الموروثة فهو شائع في كل
الغربيات .

٩ - طريق العودة :

دخل ابن بطوطة الى مالي في حزيران ١٣٥٢ الموافق للرابع عشر من جمادى الأولى ٧٤١ هـ وانتهت اقامته فيها في شهر شباط او آذار من العام ١٣٥٣ الموافق للثاني والعشرين من المحرم ٧٤٣ هـ . وقد عاد هابطاً عبر النiger ماراً بـ مدينة توبكتو ، حيث أهدى اليه نائب السلطان القاري المقيم فيها غلاماً من العبيد . ثم زار مدينة غاو وتلقط ونكتب توكتو ، كاغو ، او غاغو . وهي مدينة كبيرة على التل من أحسن مدن السودان و أكبرها وأخصبها فيها الارز الكثير واللبن والدجاج والسمك وفيها الفتوح العتاني الذي لاظير له وتعامل أهلها في البيع والشراء باللوع و كذلك أهل مالي . ويؤتى باللوع وهو نوع من الصدف الصغير من أرخبيل جزر الملديف في المحيط الهندي حيث يتعامل به كالنقد .

ومن غاويتابع طريقه برأس حتى مناجم النحاس في الأير - تكدا^(١) . ويصف لنا في الرحلة طريقة تعدين النحاس واستخدامه في التعامل النقدي في نص يعتبر و - تاريخية هامة :

«يغسرون على النحاس في الأرض ويأتون إلى البلد فيسكبونه في دورهم ؛ يفعل ذلك عبيدهم وخدمهم فإذا سكبوه نحاساً أحمر صنعوا منه قضباناً في طول شبر ونصف بعضها رقاق وبعضها غلاظ . فتباع الغلاظ منها بحساب أربعينات قضيب بمثقال ذهب ، وتبيع الرقاق بحساب ستة وسبعينات بستقال ذهب . وهي صرفهم يشترون برقاقها اللحم والخطب ويشترون

(١) ديار تكدا مبنية بالحجارة الحمر ، وملؤها يجري على معدن النحاس فيتغير لونه وطعمه بذلك . انظر رحلة ابن بطوطة ، نشر الكتاب ، ج ٢ ص ٧٩٨ .

بفلاطها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح^(١) ثم يجتاز الرحالة الصحراه ماراً بسوقعي المجرار والتوات وهم من منازل قبيلتين من البربر وانهى طوافه وتجواله بالوصول عائداً الى سجلها في ١٣٥٣ .

١٠ - الحسنات والسيئات :

وبالاضافة الى ما ذكره ابن بطوطة عن أحوال مملكة مالي في كتاب رحلته سابق ذكره فإن الكتاب يتضمن طرقاً وملحاماً من أخبار النس القضاية . وهو أمر لا يستغرب من فقيه عمله الأساسي هو القضاء . وما صنفه من أعمال السودان الحسنة ومن مساوى « أفعالهم » .

فمن الافعال الحسنة التي يعدهما : انتفاء الظلم « فهم ابعد الناس عنه وسلطائهم لا يسامح احداً في شيء منه . ومنها شمول الامن في بلادهم فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب . ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت في بلادهم من البيضان ، ولو كان الفتاطير المقنطرة ، إنما يتركونه بيد ثقة من البيضان حتى يأخذنه مستحقة [وفي فرنسا كان الايكوسينون وحدهم في نفس العصر معفين من حق وزانة الطارىء] . ومنها مواظبتهم على الصلوات والتزامهم لها في الجماعات وضررهم أولادهم عليها ، وإذا كان يوم الجمعة ولم يذكر الانسان الى المسجد لم يستطع الدخول ليصلى . ومن عادتهم أن يبعث كل إنسان غلامه بسجادته فيعطيها له بموضع يستحقه بها حتى يذهب الى المسجد . وسجاداتهم سعف شجر يشبه النخل ولا تمر لـه . ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة ولو لم يكن لأحد them إلا في بعض خلق غسله ونظفه وشهاد به الجمعة . ومن أفعالهم الحسنة عنايتهم بحفظ القرآن العظيم

(١) هذا النوع من « العملة » النحاسية كان معروفاً في مصر الفرعونية في الاول

الاول قبل الميلاد . (المغرب)

وهم يجعلون لاولادهم القبود إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه فلا تفك.
عنهم - يحفظوه . . وروى واقعة في هذا الصدد قال :
ه مررت يوماً بشاب منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة وفي رجله قيد
ثقيل ، فقلت له من كان معي : ما فعل هذا ؟ أقتل ؟ ففهم عن الشاب
وضحك . وقيل لي إنها قيد حتى يحفظ القرآن عن ظهر قلب .
أما مساواي ، افعلامم التي لامهم عليها فعنها :

كون الخدم والجسواري والبنات الصغار يظهرن للناس عرايا بadiات
العورات . . ، ومنها دخول النساء على السلطان عرايا غير متنزرات وتعري
بناته . وقال : « قد رأيت في ليلة سبع وعشرين من رمضان نحو مائة جارية
خرجن بالطعام من قصره عرايا ومعهن بتنان ناهدان ليس عليهما ستر »
ومن هذه المآخذ التي عدّها جعلهم التراب والرماد على رؤوسهم تأدباً
ومنها ما ذكره من « الأصحوكة في انشاد الشعراء » ومنها أيضاً أن كثيراً منهم
يأكلون الجيف ولحم الكلاب والخمير . وهو يجد في ذلك خالفة للقواعد
الشرعية . . .

١١ - بين العلم والاستعلام :

وأخيراً تبقى نقطة لا بد من جلاتها ، ولكنها قد لاتنجلي أبداً . وهي إن
نعرف مدى براءة المقصود في هذه الرحلة التي يتضمن من التقارير والمعلومات التي
نقلتها معدار « سذاجة موقف كاتبها تجاه النظائر السياحية والمزارات الثقافية
المحلية التي صادفها وتحدثت عنها »

فقبل أن يغادر ابن بطوطة متوجهًا إلى مالي كان قد عاد إلى المغرب (١٣٤٩) من رحلة سابقة امتدت حوالي ربع قرن في بلاده دار الإسلام، فهل كان الدافع إلى هذه الرحلة الأفريقية هو مدافعه في السابق إلى التنقل والارتحال؟ لئنْه من المؤكد أن الرحلة جاءت تنفيذًا لأمر السلطان المغربي أبي

عنان كما يذكر ابن بطوطة ذلك صراحة . لفقد كانت الخصومة على أشدّها - كما رأينا - ما بين المغرب والسودان من أجل السيطرة على عالج تغازى ، وكانت للسُّنُّف مصالح في السودان الغربي تتمثل في جاليات من التجار وجماعات من الفقهاء والزهاد كانت منتشرة في البلاد الواقعة جنوب الصحراء . وبعد قرن من الزمان أصبحت هذه الجاليات بمثابة الأنصار للمغرب في بلاد السودان التي كانت آنذاك بلاد الذهب . وقد أقام ابن بطوطة عند أناس من بني جلدته من تجار المغرب وفقهائه . وهذا أمر لا غرابة فيه : وابدى اهتماماً خاصاً خلال رحلته بمصادر الثروة ، فتوقف عند الملاع ووصف تجارة الملح الهامة في ذلك العصر ، وبحث عن مصدر الذهب وذكر أنه يؤتى به من عند أناس منعزلين يصعب وصول الغرباء إليهم ، كما أنه عمد إلى رسم طريق عودته لتنسى له زيارة مناجم الحاس ، ويشير إلى تجارة الفتنة المتازة العبيدة من بلاد بُرْنُو ، التي تقع على مسيرة أربعين كيلومتراً من تكدا ، أهلها مسلمون ، لهم ملك اسمه إدريس ، لا يظهر للناس ولا يكلمهم إلا من وراء حجاب ، ومن هذه البلاد يؤتى بالخواري الحسان والن bian والتياں والمسجدة »

فالاهتمامات الاقتصادية تبدو واضحة ومفهومة عند سائح فقيه كما يمكن ان نفهم ما يوليه من اهتمام للسياسة الداخلية في بلاد مالي وهو الرجل المرموق في البلاط المغربي . ففي وصف الانطباع الشائع عن الحكم في مملكة مالي يقول : « كان السودانيون يكرهون مُنس سليمان لبخله ، وكان قبله مُنس معا ، وقبل مُنس معا ، ن موس ، وكان كريباً فاضلاً يحب البيضان ومحسن إليهم » . وقد تحدث ولكن دون تفصيل عن مؤمرة حبكت ضد السلطان قادتها ابنة عممه - زوجته ، وهي شريكته في الملك كما هو الامر في كثير من الملوك الافريقية . « وقد غضب السلطان على بنت عممه قاسا ، اي الملكة ، شريكته في الملك على عادة السودان ، وكان اسمها يذكر مع اسمه على المنبر فسجّنها

ولئن مكانتها زوجته الأخرى بنجوم لم تكن من بنات الملوك ، وقد نجت الملكة من غنوة أشد قسوة بالتجانثها إلى بيت خطيب المسجد الكبير الذي فيها كان من عناصر الاتصال مع العالم العربي بحكم ثقافته العربية الإسلامية ، ومن أولئك الرجال الذين عملوا على توثيق الصلات بين السودان والمغرب مما ظهرت نتائجه في القرن التالي (القرن الخامس عشر) ، حتى ارتبط مصير المغرب وغربي إفريقيا عندما انطلقت أسطول المغارب وأسبانيا نحو العالم العربي في مطلع العصور الحديثة .

فما كانت أهداف رحلة ابن بطوطة في تلك المرحلة من تاريخ المنطقة فهل كان الرحالة الكبير يقوم بمهمة سياسية في بلاد مالي ؟ هل كانت له مهمة استطلاعية إلى جانب المدف العلمي والثقافي ؟
ومهما يكن فإن ابن بطوطة في « رحلاته » الخالدة يبقى أعظم من كتب عن إفريقيا الغربية قبل قدوم المستعمرات الأوروبيين .

مراجع للبحث والاستزادة :

« C. Defremery, B. R. Sanguinetti, voyages d'ibn Batoutah 4 vol. Paris,

تضم النص إلى جانب النص الفرنسي . (1853 — 1858)

آخر طبعة نشرها :

Vincent Al — Mansour Monteil (4 vol. Anthrwpas, (1969)

:ibn Batouta, Voyages, Paris, Maspero 3 vol. (1982).

ر. بلاشير ، هـ . درمون ، منتخبات من آثار الجغرافيين العرب في العصور

الوسطى باريس (١٩٥٧)

كرانتسوكوفسكي الادب الجغرافي عند العرب ، لينينغراد (1957) ، ترجمة
صلاح الدين عثمان هاشم ، في جزأين (1963) .

الامير مصطفى الشهابي ، الجغرافيون العرب دار المعرف ، أقرأ القاهرة
1962

ابراهيم احمد الندوی ، ابن بطوطة في العالم الاسلامي دار المعرف ، إقرأ
القاهرة ، العدد ١٧٩ .

عبدالرحمن حيدة ، اعلام الجغرافيين العرب ، دار الفكر ،
دمشق ط ٢ - ١٩٨٠ .



نجمة رايمار، خليل شطا

يعتقد كثير من الناس خطأً أن القارة السوداء ابتداءً من جنوب الصحراء وانتهاءً بعاصمة الكتاب تفتقر إلى مختلف أنواع الفنون ، وعلى الأخص الفنون الأدبية منها ، فنادراً ما يترافق مع مسامعنا صوت كاتب أو شاعر صادر عن تلك القارة الصامتة .

ويعود ذلك إلى أن عدد المهتمين بشؤون الأدب الإفريقي قليل جداً ، فالاوربيون مثلًا لم يهتموا سوى بالصناعات اليدوية الإفريقية باعتبارها تحفًا تمتاز بمسحة جالية خاصة .

ثم بدأ بعض الأوروبيين يهتمون بالموسيقى الأفريقية فأخذوا يدرسون أصواتها وخصائصها .

وبعد ذلك بدأ الأوروبيون يعنون شيئاً فشيئاً بالأدب الأفريقي ، ولكنهم في البداية وجدوا صعوبة في ذلك إذ أن أغلب الآثار الأدبية الأفريقية غير مكتوبة ، وإنما تناقلتها الألسن جيلاً بعد جيل ، ولذلك فإن تلك الآثار لم تجد لها طريقاً تسلكه إلى القارات الأخرى فظللت مقصورة في النطاق الأفريقي .

وبعد بدء انحسار الاستعمار الأوروبي عن أغلب الدول الأفريقية في بداية السنتين وتعاظم الشعور الوطني لدى الأفارقة أخذ الأدب الأفريقي يتنقل تدريجياً من النطاق الأفريقي الصرف إلى نطاق عالمي أكثر شمولًا ، ذلك لأن كثيراً من الشباب الأفريقيين وفروا إلى مختلف الجامعات الأوروبية فاطلعوا على التراث الأدبي العالمي ، وبخاصة الأدب الفرنسي والإنكليزي . مما زادهم قدرة على التعبير عن واقعهم الأفريقي باسلوب أدبي رفيع المستوى استطاع بالفعل أن يفرض وجوده على الساحة الأدبية العالمية .

وعلى الرغم من أن معظم الأدباء الأفارقة المعاصرین قد كتبوا أغلب نتاجهم الأدبي باللغتين الفرنسية والإنكليزية . فإنهم قد استطاعوا بحق أن يعبروا بصدق عن أحاسيس الشعوب الأفريقية فقدموا لنا نتاجاً أدبياً أفريقياً متميزاً .

وهذه لحة عن أشهر أدباء القارة الأفريقية المعاصرين ومقططفات من نتاجهم الأدبي يمكن أن تعطينا فكرة واضحة عن خصائص الأدب الأفريقي الذي ظلل مجهولاً حقبة طويلة .

فردينان أوبيونو من الكامرون .

ولد فردينان أوبيونو عام ١٩٢٩ ، أنهى تعليمه الثانوي في الكامرون ، ثم تابع تعليمه في مقاطعة بروفانس في فرنسا فانتسب هناك إلى كلية الحقوق وحصل على دبلوم في المحاماة ، ولكنه كان في الوقت ذاته يعشق الأدب فاتجه إلى الكتابة ولاقت مؤلفاته الأدبية بالفعل رواجاً كبيراً وإقبالاً جماهيرياً واسعاً ليس في إفريقيا فحسب وإنما في العديد من الدول الأوروبية . ويعتبر فردينان أوبيونو من أوائل الأدباء الافارقة الذين خاضوا تجربة كتابة المسرحية . ولقد عرضت له عدة مسرحيات في عدد من مسارح باريس الشهيرة . من أشهر مؤلفاته رواية « حياة خادم أسود » (من منشورات جولييار - باريس عام ١٩٥٦) ، ورواية « الزنجي العجوز والوسام » عام ١٩٥٦ ، وأخيراً رواية « الطريق إلى أوروبا » عام ١٩٦٠ وهو أيضاً من منشورات جولييار - باريس .

مقططفات من رواية « الزنجي العجوز والوسام » : أصدقاء ميكا

قرر ميكا ذلك الزنجي العجوز أن يصرف زوجاته في ذلك اليوم إلى بيوت أهلهن لأنه أراد أن يحتفل بعيد ميلاده السبعين ، ويعتبر ذلك بمثابة وسام يعلق على صدر كل رجل زنجي ، فهذا العمر بالنسبة إلى الزنجي هو عمر الحكمة . ، وفي المساء دعا العديد من أصدقائه للاحتفال بهذا العيد . ومن بين هؤلاء الأصدقاء ذكر / نوا / العجوز ، وهو يقارب / ميكا / سنًا ولكنه للأسف لا يعرف بالتحديد عمره الحقيقي لأن والديه لم يسجلاه في سجل الولادات عندما أبصرت عيناه النور لأول مرة . وهناك نبیق الذي جاء إلى قرية ميكا منذ خمسة وعشرين عاماً بحثاً عن العمل فوجد مبتغاه في قطف الكاكاو في

حقول ميكا الذي ربطته به صدقة حيمة ، وهذا كان ميكا يطلب دائمًا من نبتي
مشاركته طعام العشاء .

ونذكر أيضًا مغوندو وهو ابن اخت ميكا ، ومع أنه لم يتجاوز الثلاثين من
عمره فإنه لم تبق شعرة واحدة فوق رأسه وتسري شائعات في القرية مفادها أن
مغوندو عندما ولد كانت أسنانه بأكملها ظاهرة في فمه .

ومن ضيوف تلك الحفلة أيضًا إيفينا . وهو خادم سابق لدى البيض
الذين صرفوه من الخدمة بعد أن فقد آخر سن في فمه وهذا دليل عجز
وشيخوخة ، ولعل زوجته قررت الطلاق منه لذاك السبب عينه .

ولم يجد إيفينا المسكين امامه سوى الاعتراف بالأمر الواقع ، فقرر
الاعتزال في قرية / دوم / ، وهي قرية ميكا فتراه طيلة اليوم جائياً فوق
الاعشاب يستمد الدفء من أشعة الشمس أو هو يتضرر الموت بعد أن سُم
الحياة .

كل هؤلاء الناس جاؤوا من كل صوب وحصب لمشاركة ميكا فرحته في
تلك الليلة البعيدة وهو يختلف ببلوغه سن الحكمة ، وقد جلسوا جميعاً حول
قنديل من البرول يتسامرون ويضحكون .

بولامبا من زائير

ولد عام ١٩١٣ في مدينة بورا ، درس الفلسفة ثم اتجه إلى العمل
الصحفي ، وهو وزير سابق للإعلام في زائير ، ويعتبر أمير الشعراء الزنجي .
ولقد وصفه ليوبولد سنجور ذات مرة بأنه فلاح زنجي يتنسب إلى المدرسة
السريالية . فقصائده مليئة بالصور الرائعة . ومن أشهر مؤلفاته نذكر
«محاولات أولى» عام ١٩٤٧ و«أناشيد لبلاد» عام ١٩٥٥ و«مشكلات
تطور المرأة الأفريقية» ، ومن الكتاب الثاني اخترنا هذه القصيدة :

الطلب

صوتك العذب يتردد صداه .
في السهول والوديان
في الغابات والجبال
وينفذ إلى أعماق النفوس
فيثير فيها كوابي الاشجان .
ويضفي على مشاهد الطبيعة الرائعة
المهيبة والجلال
أنت وحدك تصور أحزانها وألامنا
وتعبر عن حبنا وأمالنا .
دمت لنا خير معز وصديق حميم .
يشاركتنا في افراحنا وأنراحنا .

داديه

وهو من ساحل العاج ، ولد عام ١٩١٦ في مدينة أبيسيني عمل فترة طوبيلة
معلماً في مدارس ساحل العاج وشغل منصب مدير معهد الفنون الجميلة في
أبيدجان . يعتبر داديه شاعراً وقصاصاً ومفكراً مرموقاً ، يمتاز أسلوبه بالعذوبة
والسلامة . وتشبه قصصه أمثال لافونتين ، وتنطوي رواياته على افكار فلسفية
عميقة . ومن أشهر مؤلفاته « انهضي يا افريقيا » وهي مجموعة شعرية من
منشورات سيفرز باريس ١٩٥٠ و« أساطير افريقيا » عام ١٩٥٥ و« الصفحة
السوداء » وهي مجموعة قصصية عام ١٩٥٥ : وفي عام ١٩٥٥ أيضاً أصدر
رواية شهيرة بعنوان « كليمبة » كما أصدر في عام ١٩٥٦ كتاباً بعنوان « ودارت
الايات » و« يوميات زنجي في باريس » وهي رواية أصدرها عام ١٩٥٩ . وفي

عام ١٩٦٤ أصدر كتاباً نقدياً بعنوان « سيد نيويورك » . ومن روايته المذكورة
نقتطف المقطع التالي :

حياة مزارع

إنك ترى يابني أن هناك مجالاً واسعاً للعمل ، فكل يوم أكافع النباتات
المسلقة والاعشاب والعوسج والمطر والربيع والشمس والخشرات والقردة التي
تغير علينا وجميع الحيوانات الضارة ، ولذا وجب عليَّ أن أكون يقطاً ليل نهار .
وإذا ماهيت الربيع بشدة قلت في نفسي إن هذه الربيع سوف تسقط ازهار شجر
البن ، وسيكون المحصول في ذلك الموسم رديئاً . وإذا ما تأخر سقوط المطر
هددت المجاعة أنحاء البلاد . . .

وهكذا ترى يابني أن إنشاء مزرعة ليس بالأمر اليسير وإذا كنت لا تملك
مالاً فليس من يمد لك يد العون وعليك أن تعمل وتتجدد حتى لا تكون عالة على
أحد .

ليوبولد سيدار ستغور من السنغال^(٣)

له عدة دواوين ومؤلفات ومقالات ، وفيها يلي نموذج من كتابته .

الأصالة الافريقية

يخطئ كثير من الأوروبيين عندما يقولون إن الافارقة الزنوج يؤمنون
بالسحر ويقدرون السحرة ويعطونهم أرفع المراتب الاجتماعية والقيادة في مدنهم

وقراهم . ولاشك ان مثل هذا القول افتراء ناجم عن نظره التعالي التي يتصف بها الرجل الاوروبي تجاه السود ، والحقيقة أتنا إن حللنا بسراهاه معتقدات الزنوج الافارقة ودرستنا بشكل موضوعي ما يقموون به في المناسبات الدينية والاجتماعية وجدنا أن الزنجي الافريقي لا يؤمن على الاطلاق بالسحر وإنما يؤمن بالروحانيات تماماً كما يفعل الشرقيون ، فالزنوج الافارقة يؤكدون ان الامور الحسية في هذه الحياة ليست سوى مظاهر مادية للقوى الحقيقة التي تحرك الكون وتحكمه بقوانين ثابتة وجدت منذ ان وُجد الكون . ولذلك فان الافارقة الزنوج يؤمنون بالحدس او ما اصطلحوا على تسميته بالخاصة السادسة كأدلة اتصال بين نفوس البشر وافكارهم . ولعل الحادثة التالية تثبت لنا ذلك .

في احدى القرى الافريقية النائية كانت احدى النساء تنتظر بفارغ الصبر عودة ابنها من فرنسا حيث كان يتم دراسته ، إذ ان اخباره كانت منقطعة منذ زمن بعيد ، ولم تكن الام تعلم مكان وجوده ولكنها كانت تصر على القول ان ابنها مايزال حياً .

وذات صباح ، استفاق اهل القرية على صوت تلك المرأة وهي تغنى وترقص فرحاً ، وعندما سألوها لماذا تفعل ذلك أجابت : « ابني سيعود اليوم إلينا » على الرغم من أنها لم تتلق أية رسالة منه تشعر بموعد عودته . فسرخ البعض منها ظناً منهم أنها تهذى وأشقيق البعض الآخر عليها ظناً منهم أنها فقدت عقلها فعادوا الى بيتهما بينما ظلت تلك المرأة تغنى وترقص فرحاً .

و عند الظهر دهش جميع اهل القرية عندما علموا أن ابن تلك المرأة قد عاد بالفعل الى تلك القرية قادماً من فرنسا ، فلم يجدوا امامهم سوى تقديم التهاني لتلك المرأة . ومنذ ذلك الحين بدأوا يؤمرون بالتحاطب أي بتناول المخواطر والوجدانيات من عقل الى عقل على بعد من غير الوسائل الحسية المعروفة .

كامارا لاي . من غينيا

ولد عام ١٩٢٨ من أسرة تتبع إلى الطبقة العمالية ، تلقى علومه الأولى في المدرسة القرآنية في كوناكري . وبعد أن أنهى دروسه الابتدائية والثانوية انتسب إلى المعهد التقني في العاصمة الغينية حيث تخرج منها بتفوق ، ثم ذهب إلى أوروبا يقصد العمل وهناك اطلع على أمهات كتب الأدب العالمي فعشق الأدب ، وعاد بعد ذلك إلى كوناكري مكرسًا معظم وقته للكتابة والتأليف على الرغم من كونه عضواً في المؤسسة الوطنية للابحاث العلمية . ومن أشهر مؤلفاته ذكره « الطفل الأسود » عام ١٩٥٣ ، و « نظرة الملك » عام ١٩٥٤ ، وكلا الكتابين نشراً في فرنسا .
ومن كتابه « الطفل الأسود » نقل هذا المقطع :

يوم العمل الأول

اليوم هو من الأيام التي سأحل ذكرها طيلة حياتي فبالامس بلغت العاشرة من عمري ، وفي صباح هذا اليوم وجدت والدي منذ الصباح الباكر وافقاً أمام سريري يعمل على إيقاظي قائلاً لي : « انهض يا بني ، فلن نام اليوم كباقي الأيام الماضية حتى الظهر ، بل سنذهب معك إلى العمل ، لقد بلغت سن الانتاج » وكم كانت فرحتي كبيرة لدى سماعي تلك الكلمات ! فلقد كنت بالفعل في ذلك اليوم ومنذ زمن بعيد لا أطير تلك الرتيبة القاتلة التي أصبحت عليها حياتي ، إذ كنت لا أعمل شيئاً . فلا مدرسة في قريتي اذهب إليها ، ولا سوادي رياضية أمضى فيها أوقاتي ، وكل ما كنت أقوم به هو جمع بعض الأخشاب لوالدي ، فبدأ الملل يتسلل إلى نفسي ، وهذا ما ان سمعت كلام والدي هذا حتى انطلقت من السرير بسرعة البرق وارتديت ثيابي بسرعة أكبر وقلت لوالدي : « ها أنا مستعد للعمل »

كانت والدتي ماتزال نائمة حين تناولنا بعض الطعام وقليلًا من الماء وانطلقتا باتجاه المزرعة . كان ذلك اليوم يوم حصاد فأعطاني والدي منجلًا صغيرًا وعلمني كيف نقطف سنابل القمح ، وكنت سعيدًا بذلك .

وبعد ساعات طويلة من العمل الشاق تحت أشعة الشمس بدأ والدي يشعر بأن التعب قد غلّق عينيه ويأنس لسانه قد جف من العطش . وبذلت مظاهر الاعباء ظهرت على وجهي فكان أن ارستم على شفتيه ابتسامة عريضة ، علمت بسرعة أنها علامة الرضا والفرح والاعتزاز ، فهذا هو اليوم الأول الذي أعمل فيه ، وهذه هي المرة الأولى التي أشعر فيها بتعbur العمل ومشاقه .

وأقبل والدي يقدم لي كوبًا من الماء ، ولكنه قال : « إياك ان تشرب كثيراً ، خذ جرعة واحدة لإرواء عطشك فالاكتثار من شرب الماء أثناء العمل يضر كثيراً ويجعل الكسل يسيطر عليك كما قال لي : « اخلع قميصك فقد بلل العرق ، فمن الخطير أيضاً أن يعمل الإنسان وهو يرتدي قميصاً مبللاً .. » .

وفعلت ما نصحني به والدي ، وبعد أن أخذت قسطاً قليلاً من الراحة عدت إلى العمل بنشاط أكثر وباندفاع أكبر وأكملت جميع المحصول مع والدي . وعندما بدأت الشمس تميل إلى الغروب جمعنا القمح وسلكنا طريق العودة إلى المنزل فرحين سعداء ونحن ننشد الأغاني المفرحة . حقاً أنه يوم لن اسماء ماحييت .

عثمان سامي بن وهو أيضاً من السنغال

ولد في مدينة كازامان السنغالية عام ١٩٢٣ من أهل يعملون في الصيد . تخرج من المعهد التقني في داكار ، ثم عمل لمدة أربع سنوات في إيطاليا وألمانيا كعامل ميكانيكي ، ولكنه أصيب بعد ذلك بكسر في عموده الفقري جعله عاجزاً عن الحركة تماماً ، وقبل أن يعود إلى وطنه السنغال جاب العديد

من الدول الأوروبية واطلعت على تراثها الأدبي . فاصبحت حياته بعد ذلك حياة تأمل عميق كرسها للكتابه والتأليف .

حصل في عام ١٩٦٣ على جائزة مهرجان نور السينمائي لأفضل سيناريو عن الفيلم القصير بعنوان « سائق عجلة » وصور هذا الفيلم في شوارع داكار ، ورواية « زنجي يعمل في رصيف للسفن » أصدرها عام ١٩٥٧ ، ورواية « بلدي وشعبي الطيب » صدرت في باريس عام ١٩٥٧ ، واصدر أخيراً رواية « أطراف غابة الله » عام ١٩٦٠ . ومن روايته : « بلدي وشعبي الطيب » نعرض هذا المقطع :

موطفي

كم احب ارض وطني ! وكم اعشق تراب بلادي ! لقد تجولت في بلاد اوربية عديدة ، ولكنني لم اجد أحفل من بلدي وعاشرت شعوباً اوربية كثيرة ولكنني لم اجد أطيب من الشعب الافريقي . في جميع انحاء اوربا التي زرتها شعرت بالغربة ، فلم أجد الأمان الا فوق ارض بلادي . وهذا قاومت جميع الاغراءات التي كانت تشدني للبقاء في اوروبا ، ورفضت الابتعاد عن وطني الحبيب فعدت اليه سعيداً لاقبل ترابه المقدس . وكم يعلو لي دائماً زيارة مسقط رأسى في قلب افريقيا الاسترجاع ذكريات طفولتي التي لاتنسى . وكم مرة شاهدنا اهل قريتي وأنا أنجحول وحيداً بين المزارع ، ذلك لأنني اعتبر ارض بلادي كامرأة أعشقها فتبادرني هي بدورها الحب والحنان إن تربة وطني هي جسد حبيبي وأشجار غاباته أشبه ما تكون بصفائرها ، والنساء اللطيفة هي بمثابة أنفاسها العطرة ، وصوت الرياح هو صوتها العذب الذي يناجي بي ويواسيه ولذا فإنني أتساءل هل يمكن لي الابتعاد عن تراب وطني ؟ وهل يقوى أحد على ان يعيش بعيداً عن حبيبه .

أدب الزوج الامريكيين

في الولايات المتحدة الامريكية الآن حركة أدبية زنجية تطلق على نفسها اسم «النهضة الزنجية» ، وترمي هذه الحركة الى تأكيد كرامة الرجل الاسود وليس ذلك تبعاً لتشابهه القريب أو البعيد بالعالم الابيض ، بل لمجرد كونه «زنجبياً» وترمي أيضاً الى تأكيد حرية التعبير بالنسبة للزنجي كما هو في حالته الراهنة ، وكما كان عليه في الماضي . ومن أهداف هذه الحركة أيضاً الدفاع عن حقه في العمل وفي الحب وفي المساواة وفي الاحترام ، وهي تضطلع بنشر ثقافة الرجل الاسود ووصف ماضيه المفعم بالألام ، كما تضطلع بإبراز اصله الافريقي .

وتضم هذه الحركة عدا من الادباء ذكر منهم لنفسهون هيوج وكلود ماك كاي وكوني كالن ورينيه ماران .

إن «البيان» الذي اصدره هذا الفريق الصغير يعبر احسن تعبير عن شعور الزوج بعزتهم وكرامتهم يقول هذا البيان :

« نحن بناء الجيل الزنجي الجديد نريد التعبير عن شخصيتنا وأصالتنا الزنجية دون اي شعور بالخجل او الخوف ، فإذا كان ذلك يرافق للبيض كانوا سعداء به ، وإذا كان لا يرافقهم ، فلساننا سيالي بذلك البتة . نحن نعلم علم اليقين أننا على جانب كبير من الجبال ومن القبح في الوقت نفسه . إن الطلبة تتوجهون نحوك ، فإن يتعلّم لهم ساعتها نصب بذلك فرحاناً عظيمًا وإن لم يعبوا ساعها فلا يهمنا ذلك البتة . نحن نبني معابدنا كما يحلو لنا ، ونقف بأنفقة وإباء وقد تحررنا من الذل والعبودية » .

هؤلاء الادباء ثوريون لا في اسلوبيهم فحسب بل هم يتسبون الى تيارات مختلفة . إن صرحتهم هذه التي يطلقونها جديرة بأن تلفت أنظار العالم بأسره

إلى قضيتم العادلة ، وإذا أثر هذه الصرخة يتشر تدريجياً إلى جزر الانترنت
وإلى كوبا وهaiti وغيرها في أنحاء العالم .

لنغستون هيوغ (١٩٠٢)

للغستون هيوغ شاعر أمريكي خلاصي أبوه رجل أبيض وأمه زنجية ، ويعتبر
من أعظم الزنوج المعاصرين ، لأنه مبتكر حقاً في أسلوبه وفي مواضعه . أما
قصائده فرائعة بساطتها وسلامتها ، وهي صادقة ومؤثرة لأنها تخرج من
ضميم قلبها ، وما يخرج من القلب حل في القلب .

لقد جمعت هذه القصائد بين الدعابة والحزن ، وبين الرقة والتهديد .
وهذا ما يجعلها قريبة إلى نفوسنا . إنه يتحدثنا عن آلام الشعب الزنجي في
أمريكا فيهز مشاعرنا ، وهو إلى جانب ذلك يصور لنا الرق القديم في « حكايات
العمة سوزان » ويصف لنا قلق الزنوج الذين يعيشون وسط حضارة الرجل
الأبيض في قصidته « الشعور بالخوف » ويعبر عن حنينه إلى إفريقيا الضائعة في
قصidته الرائعة « أرضنا » . وهو يطالب كذلك في قصidته المؤثرة « النجوم »
باسترداد مكانته في المجتمع ، إذ يقول فيها كلمته الخالدة : « وأنا أيضاً أمثل
أمريكا » .

أما آثاره الهاامة فهي سيرته الذاتية « البحر العميق » ورواية طويلة عنوانها
« الساذج » وأخيراً القصائد التينظمها بشكل أناشيد وبشكل « الروحانيات
الزنوجية » وهي تروي لنا أهرب من الروتين اليومي بقصد الانطلاق نحو السماء
طلبـاً للسعادة الأبدية أو تصرف لنا السأم والعزلة والجروح وكآبة الحب في هذه
الدنيـا ، وهي تعـبر في أغلـب الأحيـان عن عواطفـ الحزنـ والكآبة .

الخوف

نحن نبكي ونشنّ وسط ناطحات السحاب
 تماماً كما كان آباءنا وأجدادنا يبكون ويشون
 وسط أشجار النخيل في إفريقيا الحبيبة
 ذلك لأننا نشعر بأننا وحدنا

* * *

نحن بحاجة إلى أرضٍ تشعُ بالبهاء
 تحت أشعة الشمس اللاهبة ،
 إلى أرض مياها مضمحةً بالطيب
 يبدو فيها الشفقُ وكأنه وشاحٌ خفيفٌ
 مصنوعٌ من نسيجٍ مشجرٍ ألوانه ورديةً وذهبيةً
 ولستَ بحاجة إلى أرضٍ باردةً لاحتياطٍ فيها

* * *

نحن بحاجة إلى أرضٍ تكثر فيها العابات الكثيفة
 أشجارها متنقلةً بالبougواوات الشراثة
 وأوراقها تسطع بالألوان الفاقعة البهية
 ولستَ بحاجة إلى أرضٍ قاحلةٍ
 طيورها رمادية اللون باهنةٍ

* * *

نحن بحاجة إلى أرضٍ تفيض بالحب والفرح والغنا،
 ولستَ بحاجة إلى أرضٍ يعتبرُ الحب والفرح فيها ذنبًا وكفرًا

* * *

فيما صديقتي الحلوة لنهر من هذه الأرض اللعنة
لنهر يا صديقتي الحبيبة إلى أرض آبائنا وأجدادنا !

* * *

وأنا حينها أصبح مؤلفاً موسيقياً بارعاً
سوف أحنّ لك قصيدة تصف بزوع الفجر في الأليام
قصيدة تفيض باعذب الألحان والأنغام
تتصاعد من الأرض كالضباب من المستنقعات
وتتساقط من السماء تساقط قطرات الندى
قصيدة أضع فيها أشجاراً باسقة رائعة
يُشتم منها أريح ابر الصنوبر
وشذا الصلصال الآخر بعد تهطل المطر
وأصور تلك الوجوه المحمرة كشقائق النعمان
وهاتيك السواعد المفتولة الشديدة السمرة
سأفعل هذا كلّه حينها أصبح مؤلفاً موسيقياً ،
أُنْغّي بجمال الطبيعة وأصف بزوع الفجر
في الأليام . . .

حكايات العمة سوزان

رأس العمة سوزان مليء بالحكايات
وقلب العمة سوزان يفيض بالحكايات .
في ليالي الصيف ، وعلى شرفة بيتهما
تضم العمة سوزان بين ذراعيها طفل رضيع
تحيطه بالعطف والحنان وتروي له حكايات

العبيد الزنوج
الذين يسرون في الليل الحالكة
العبيد الزنوج
الذين ينشدون آلامهم وأحزانهم

* * *

حكايات العمة سوزان تحكي مأساة الزنوج
فيُصْغِي إليها الطفل والحسنة تقipس في قلبه
فهو يعلم تماماً أن حكايات العمة سوزان صورة صادقة للواقع

لعبة الخيل الخثبية

طفل ملون (غير أبيض) في العيد
أين مقصورة الزنوج
على لعبة الخيل هذه
يا سيدى ، لأن أريد الصعود ؟
هناك في الجنوب الذي اتيت منه
البيض والملونون
لا يستطيعون الجلوس جنباً إلى جنب
هناك يضعوننا في مؤخرة السيارة
ولكن هنا لأنرى مؤخرة
في لعبة الخيل هذه !
فأين إذن الحصان
المخصص للطفل الزنجي ؟

النحوم

هناك حيث بجموعة النحوم
امضيته فوق شوارع / هارلم /
وحيث نسمة النبيان التي تشكل الليل
ستنهض المدينة كلها
لدى ساعتها أغنية الام لطفلها حتى ينام
مد يدك أيها الطفل الرنجي وخذ نجمة
من اعماق نسمة النبيان التي تشكل الليل
لا تأخذ

سوى نجمة واحدة .
وأنا أتجدد امريكا بنشيدي
انا الاخ الوصييع
الذى يرسلونه الى المطبخ
تناول الطعام
حينما يأتي الضيف .

ولكنني اصلاح حينذاك
لاننى اتناول ما يكفي من الطعام
لاستعيد قواي .

ولكن غدا
سابقى جالساً الى مائدة الطعام
حينما يأتي المدعون .
فلا يجرؤ احد
ليقول لي

حينذاك :

« اذهب الى المطبخ لتناول الطعام »
 ومن ثم سيفصرون لكم أنا جيل
 فيشعرون بالخجل .
 ذلك لأنني أنا أيضاً أمثل أمريكا .

كلود ماك كاي

ولد كلود ماك كاي في الجامايك من أسرة فروية ، وهو من أشهر الأدباء الزنوج الامريكيين ، بدأ حياته الأدبية بنشر ديوان عنوانه « أناشيد جامايكا » ، وقد عقد العزم على عدم قطع علاقته ببيته الشعبي على الاطلاق ، وهو على النقيض من النخبة الزنجية المثقفة التي كان شغلها الشاغل تكوين طبقة مستقلة موجهة تماما نحو النموذج الأمريكي الأبيض . إنه يعيش ، شأن لفغتون هيويغ حياة مستقرة ، ولم يكن ذلك بداعف الضرورة فقد حصل بالتتابع على منحة أخرى للدراسات الزراعية في / ألاباما /

وهو يعيش هذه الحياة المتقلبة بداعف حب الاطلاع ، ذلك انه يريد ان يطلع على كل ما يمت الى اخيبة الانسان بصلة في جميع بقاع العالم . فلكي يعيش ماك كاي في / هارلم / ، بلد الزنوج في نيويورك ، أدار مطعماً وقام بفشل آنية المائدة ، ولكي يطلع على جميع أنحاء أمريكا اضطر الى العمل كبحار على ظهر سفينة تبحر قرب الساحل وكعامل في القatarats الحديدية الضخمة - البولان - . وآخر الكي يتعرف على هذا الكوكب الذي نعيش فيه اشتغل كوقاً فوق سفينة شاحنة وممضى فيها بعيداً حتى وصل الى روسيا . كما اشتغل سنة كاملة في لندن في احدى المطابع وقام بتحقيقات صحفية بجريدة عمالية ،

و عمل في مينائي مرسيليا و برشلونة / ومن هذه التجارب المتعددة انبثقت
قصائد و رواياته .

ذلك لأن / ماك كاي / لم يكف عن نضاله في سبيل العودة إلى « أصله
الرجل الزنجي ». وقد شارك في الولايات المتحدة في تحرير « بيان » الأدباء
الافريقيين الذي اتينا على ذكره ، بالتعاون مع جماعة من الأدباء المشهورين
امثال لغستون هيوغ وجان تومر ، وكوني كالن وستيرلنج براون ، كما ناضل في
جريدة « النقد » التقدمية .

لقد تردد في باريس على الاوساط الفكرية التي صدرت عنها حركة
الزنوجية ، أي وضع الزنوج أو طبيعتهم (*La négritude*) .

وهاهو ينشر قصائده بعنوان « صور من هارلم ». ويعتبر / كلود ماك
كاي / بخاصة رائد « الرواية الواقعية الزنجية ». الامريكية ، وذلك في روايته
« بيت في هارلم » و « بانجو » حتى لمكتنا القول إن لغتهم النابضة بالحياة .
واستخدام هجتهم المحلية وتصوير طباع شخصياتهم بصدق ودقة وبراعتهم في
سرد الاحداث . والتنويه بالقضايا الاجتماعية والعنصرية ، ونقد الخضارة
الامريكية تشكل مكتسبات كلود ماك كاي على صعيد التجديد الأدبي ، سواء
أجزاء ذلك في المجال الروحي او الثقافي على يد النخبة البورجوازية من البيض
او السود . ولاشك بأن تأثير هذا الأديب سينعكس بالتأكيد وان بصورة غير
مبشرة على العديد من الروائيين الناطقين باللغة الفرنسية امثال عثمان
سوس وجوزيف زوبيل وسميين عثمان وغيرهم . والنص التالي الذي نقدمه
للقراء يطرح مشكلات هامة ويعالج قضايا الساعة وهو مقتطف من رواية
عنوانها « بانجو »

إنكم لعلى ضلال مبين « أيها المثقفون الزنوج »

[التقى راي طالبا زنجياما من المارتينيك . وفي نظر هذا الطالب أن أكبر فخر لجزيرته أنها شهدت ولادة الامبراطورة جوزفين ، وهو يرى أن هذا الحدث التاريخي أضفى على المارتينيك أهمية جعلتها تتفوق باعتزاز على جزر الانتيل كلها]

- لادامي هذا الفخر العظيم ، يقول راي . إن هذه المرأة لم تكن من الملوكين - لا ولكنها امرأة مولدة بيساء ، اي بيساء مولودة في المستعمرات الاوروبية القديمة . وفي المارتينيك نحن مولودون بيس اكثرا من زنوجا . نحن فخورون بالامبراطورة في المارتينيك . هنالك المجتمع الراقي يتميز بصفاء ذهنه ولباقه تصرفه ويتكلم لغة فرنسية فصيحة سليمة ليس لها أية علاقة بلغة مرسيليا العامية .

وأسأله راي إن كان سمع الناس يتحدثون عن رواية « باتوالا » للمؤلف روئي ماران ، فأجاب أن السلطات منعت بيع رواية باتوالا في أرض المستعمرة ، وبدأ أنه يوافق على هذا الإجراء فسأل راي إن كان ذلك صحيحاً ، فهو لم يسمع احدا يذكر هذا الأمر .

- إنه كتاب مضر وخطر جداً ، يقول الطالب في معرض دفاعه عن منع هذا الكتاب .

ويجيب راي : يتوجب علينا ان نبدي رأينا في الخصارة طبقاً لموقفنا العام من الشعوب البدائية وليس وفق حالات استثنائية . فلا يحق لنا ان نتجاهل حقيقة أن أجدادنا كانوا عبيداً .

في الولايات المتحدة يعتبر زنوج الشمال أرفع منزلة من زنوج الجنوب ومن سكان جزر الانتيل الذين يكتسوا مظهراً للحضارة البراق .. نحن زنوج المثقفين نتحدث كثيراً عن الرجوع الى الجذور ، وإني أتساءل كيف الوصول

إلى ذلك .

وقال الطالب :

- أنا أفترمبدأ العودة إلى الجذور ولكنني لا أوفق على العودة إلى الحالة
الجمجية .

- إن الغوص حتى جذور شعبنا والبناء فوق أرضنا الخاصة لا يعني العودة إلى
الوحشية والجمجية . بل يعني العودة إلى معين الثقافة بالذات إلى تراثنا
الحالد .

- لا ادرك تماماً ما تقول .

- إنك تشبه في ذلك معظم مثقفينا الزوج الذين يتحدثون كثيراً عن
«الأصول» . إن تربتكم التي تلقتموها هي التي توحد بينكم ، فهم
يلقونكم ازدراء شعوبكم الخاص . أنتم تطالعون كتب التاريخ المحسوسة
باراء البيض المسترة الخاطئة ، هؤلاء البيض الذين غزوا الشعوب
الملونة إن هذا الفرزو يحرك شعوركم تماماً كما يحرك شعور فتي ايض
يتسب إلى امة عظيمة بيضاء . وحينما أصبحتم كباراً اكتشفتم بدهشة
ومراة ، أنكم لا تتمون ولا يمكن ان تتموا إلى العرق الايض ، وكل
ما تعلتموه أو أنجزتموه لن يساعدكم على فتح مجالس البيض المغلقة
دونكم ، ولن يمنحكم الفرصة الكاملة التي تسنح للرجل الايض . عبأنا
اصبحتم من رجال العصر المهوبيين والمثقفين . إن صفة «اللون» ترافق
دائماً أسلاءكم . وانت بدلاً من ان تقبلوا هذه الصفة بزهو وشجاعة يشعر
العديد منكم بالسخط والكآبة ، أنتم الخلاسيون بخاصة . إنكم أيها
المثقفون الزوج لعلى ضلال مبين ، فلا يمكنكم ان تهتدوا إلى طريقكم
إلا بالعودة إلى اعمق شعوبكم .

يجب الآخذوا : حذو الشبيبة المثقفة المتعرجة من البيض ، فهي

تنسب الى مجتمع أبيض مطمئن ومعتمد على فتوحاته الامبرالية . هذه الشبيبة المعمورة بالخيرات تسمع لنفسها بازدراء الطبقة الكادحة . فلو كتتم غلظتين في مفهومكم لتقديم العرق . لفتشتم عن نهادج لكم لدى أشخاص يبغضون الى طبقة اخرى ولدرستم الحركة الثقافية والاجتماعية عند بعض الشعوب المنصقة . ويجدر بكم ان تلقوا جانباً بجميع الروايات الاوروبية التي تنم عن شيء من الذكاء ولاريب ، ولكنها لاخلو من الملل ، وأن تعطوا تاريخ الفلاحين الروس ونضالهم وحياتهم الوضيعة الشاقة والتذوب . ومحسن بكم ان تعطوا حياة الروائيين الروس الذين وصفوا حياة الفلاحين حتى الثورة الروسية . ولا بد لكم أن تعلموا على كل ما انجزه غاندي من اجل الطبقات الهندية الشعبية . عليكم ان تهتموا بلغتكم المحلية وبلهجاتكم ، فإن لم تفهموها كلها فلا بد ان تشعروا بالتواضع والخشوع امام بساطة جانها بدلاً من الاستخفاف بها .

كوني كالن

يمثل كوني كالن مكاناً خاصاً بين شعراء النهضة الافريقية ، وهو اكثراهم حينياً الى وطنه الام افريقيا . تعبّر قصيدته «تراث» اروع تعبير عن فلقة واضطرباته كما تظهر مواطن السحر والجهال في إفريقيا . حقاً انه ينبع بلسان كل زنجي امريكي حينما يتساءل :

إفريقيا ، ماذَا تمثّل في نظري ؟ أنا الذي تفصله ثلاثة أجيال عن هاتيك الأماكن التي احبها آبائي وأجدادي .

لقد أصبحت افريقيا في نظرهم شيئاً مثالياً ولكنها تفتقر الى الاصالة ، فهي اشبه ما تكون بكتاب مزين بالصور للأطفال مثل الطيور

المغردة . والسنوريات والثعابين والأوثان والزنوج العراة الذين يرقصون
وسط الغابات الكثيفة .

يعتبر كوني كالن أكثر الشعراء الزنوج تصوفاً ، ويقوده الألم في
النهاية إلى الصلاة والتأمل في حين أن الألم يؤدي إلى التمرد والعصيان
عند ماك كاي ، كما يؤدي إلى التهديد والكآبة والسخرية اللاذعة عند
لغستون هيوغ وستيرلينغ براون .

تراث

إفريقيا . . ماذا تمثل في نظري ؟

هل تمثل الشمس بألوانها النحاسية والقرمزية ؟

أم هي تمثل نجمة الغابة الكثيفة

أم الرجال الأشداء الذين لفتح الشمس أجسامهم

أم هي موطن النساء الزنجيات اللواتي ولدنني بينما كانت طيور
الجنة تغزو

إفريقيا ، ماذا تمثل في نظري ؟

لفرق عندي ، إن هي مثلت كتاباً أتصفحه بلا انتباه حتى يأتي
الناعس ،

أم مثلت السنوريات المختبئة داخل القصب وهي تنتظر فريستها
على ضفة النهر

إن أفضل سباع الطيور المغردة

ورؤية قطعان الغابة التي تعود إلى حظيرتها عند المساء

رونية ماران

هذا الأديب الزنجي ولد في المارتينيك ، وقد نذر نفسه لوصف الزنوج
بساطة كما كانوا تماما دون تشويههم ، فهو يذكر صفاتهم كما يذكر عيوبهم ، فهم

عاديون في عاداتهم وتقاليدهم ، وشعراء في معتقداتهم . إنهم يفكرون ويتقدون أسيادهم الأوروبيين بمنطق لا يعرف الشفقة .
حفلًا كان رونية ماران من رواد « حركة الزنوجة » فقد كتب عدة روايات تحليلية : « رجل لا يختلف عن الآخرين » و« قلب متقبض » .

مقططف من مقدمة رواية « باتوala »

هذه الرواية موضوعية تماماً ، فهي لا تحاول ان تشرح الحوادث ، بل تكتفي بالمشاهدة ، وهي لا تبدي سخطاً ولا تثور بل تسجل فقط . في احدى الليالي المقرمة . كنت أصغي من الشرفة الى احاديث هؤلاء المساكين وانا مستلق على مقعدي المريح . فقد كانوا يتالمون ويضحكون من الألم .
حفلًا كان متسلكي على حق حين كتب صفحة خالدة عبر فيها عن سخطه وغضبه تحت ستار من السخرية اللاذعة :
إنهم سود من أخص قدميهم حتى رأسهم ، وهم فطس الانوف حتى ليتعذر علينا ان نشفق عليهم .

وهم اذا ما تموا جوعاً بالألاف كالذباب ، فذلك انهم يحرثون اراضيهم وينمون بلادهم ، فلا يموت منهم إلا أولئك الذين لا يتكلفون مع الخضارة .
أيتها الحضارة ! أيتها الحضارة موضع فخر الأوروبيين ومدفن عظام الابرياء ، لقد فضحت رابتيريات طاغور ، شاعر اهند ذات يوم في طوكيو !
إنك تشيدين ملكتك فوق الجنة ، وانت منها قلت ومهما فعلت تعيشين في الرياء . إن الدموع تنفجر لدى روبيتك ، ويصبح الألم ، انت القوة التي تتغلب على الحق . لست منارة بل ناراً محمرة ، إنك تتلفين كل ما تتمد اليه يدك . . .



مَقْتَالُ التَّأْنِ عَنِ الْفَنِ الْإِفْرِيقِيِّ

مَهْدَى لَهُمَا وَرَجَحَهُمَا: فَرِيدُ جَحَّا

تمهيد :

هذا العدد الخاص المكرس من مجلة الأداب الأجنبية ، للاداب الأفريقية ، حدث هام ، ودليل على اهتمامنا بعن العرب يأشقانا شعوب العالم الثالث ، الذين شاركهم ويشاركونا آلامنا وأمالنا ، وعهودا كثيرة من تاريخنا ، فضلا عما تطلع اليه معاً من بناء مستقبل للإنسانية تسوده علاقات الأخوة والعدل والسلام .

وكان صديقي الدكتور حسام الخطيب ، رئيس التحرير ، على صواب حين طلب بتنزويه العدد ببحث عن الفن التشكيلي الأفريقي ، أيها منه بالصلة الوشائج التي تجمع الفن التشكيلي بالأدب فكلهما يمتع من نوع واحد هو النفس البشرية ، وبالمكانة الكبيرة التي يحملها هذا الفن في تاريخ

الحضارة الإنسانية . لذلك سارعت في تلبية طلبه . سعيداً باسهامي في هذا المجهد الطيب الممتاز في تعرف الثقافات الشاملة .

وعددت إلى مالدي من مصادر حول تاريخ الفنون فإذا بها مكتوبة كلها باللغات الأجنبية ، فانكفيت على ترجمة مقالتين حول الفن الأفريقي ، تكميل احدهما الأخرى من جهة ، وتقديم كل منها معلومات مفيدة من جهة ثانية .

في المقالتين عازلة للتعريف بهذا النوع من التراث الإنساني الفني ، عازلة نظر بأنها جيدة ، مركزة ، كتبتها يدان خبيرتان بالموضوع عامه ، وبالفن الأفريقي خاصة .

إلا أن لنا عليهما ملاحظات تكمن في اغفالهما الدور الكبير الذي قام به أوروبا في تخريب آثار هذه الفنون وسرقةها من الأرض التي ابنتها ، والشعوب التي قدمتها ، لتحلي بها متاحف أوروبا العامة ، وبمجموعات المهراء الخاصة . ثم هما عازفان حقاً عن تصوير الفرز والأوربي لأفريقيا ، وإنما الغربيين بسكنها ، وبيعهم ، بعد نقلهم ، سعيداً في أسواق النخاسة العالمية .

وفي المقالتين تحامل خفي ما يكرر على العرب والمسلمين ودورهم في إفريقيا هذا الدور السامي الذي تعرفه ، والذي سنعود إلى تبيانه ، بعد أن تكون قد تزودنا بالمصادر الالزمة والشهادة الكافية . وإذا ما كان هذا التحامل خفيأ هنا ، فإنه قد كان ولا يزال ، في ميدان السياسة ، بارزاً ومتهماً بایجاد هوة بين العرب عمّة ، وشعوب شهابي القارة خاصة ، وبين إفريقيا ،

جنوبي الصحراء ، خدمة للسياسة الاستعمارية والصهيونية من جهة ، وانزلا للأذى بالصلات القديمة الوشحة بينما نحن العرب ، وبين أشقائنا الأفريقيين من جنوبى القارة من جهة ثانية ، وإنه لم حسن الطالع أن النصف الثاني من القرن العشرين قد جلا الكثير من غبار هذه المعركة ، وبين زيفها وبطلاتها ، بعد وقوف العرب ، في جميع الماديين ، الى جانب جهاد الشعوب الأفريقية طلياً للاستقلال والحرية .

وإذا كان من الأهمية بمكان ابراز هذه الأمور فإن من الضروري بعد هذا اعادة كتابة تاريخ الفن الأفريقي كتابة أكثر نزاهة ودقة وتزوداً بالمصادر ، وأكثر تفصيلاً ، وبياناً للآثار التي تركها في الفنون الأوروبية ، وللتبادل الفني المشترك للقيم الروحية والفنية بين هذا الفن ، والفن العربي والإسلامي . أمور تعد بأن تقوم بها فيما تستقبل من أيام ، بعد أن يتاح لنا الوقت ، وتسوفر المصادر التي كتبتها أيدٍ Africaine أو متعاطفة مع التراث الأفريقي . في انتظار ذلك تبقى المقالتان التاليتان أجود ما يمكن أن يكتب عن فن أشقائنا من شعوب أفريقيا ، على أن تؤخذ الملاحظات التي قدمتنا بعين الاعتبار .

١ - فن أفريقيا السوداء^(*)

مقدمة^(**) :

نـ مفهوم غامض وخطر هذا الذي نطلقه مع كلمة « بدائي » ، ذلك أنه يعود
ـ مجتمع يعتقد أنه واثق من نفسه ، مثل المجتمع الفيكتوري البريطاني ،
ـ يجتمع القرن التاسع عشر الفرنسي ، مجتمع ثمل بالإنجازات التقنية المتفنة
ـ حتى شهد لها تتحقق . ثم أن من العسير يمكن تفريق مفهوم التقدم :
ـ البدائيون ، كما قال معجم لاروس : « هم فنانون ، مصوروون أو نحاتون ،
ـ سبقو العصر العظيم » ، مما يفترض أنه قد وجد هناك عصر عظيم .

وهل نعمت بالبدائية حضارة لم يكن الإنسان ليملك فيها سوى وسائل
ـ بليلة للتحكم في الطبيعة ؟ فالمصريون إذاً والآغريق هم البدائيون . ذلك أن
ـ عبـاً قد أنشأ تشكيلات معمارية ضخمة ، ونحوـاً مرهقاً لا يمكن أن ينظر إليه
ـ في أنه شعب « بدائي » وهو الذي توصل إليها ، مثل شعب المايا ، دون
ـ استعـانة بالـات من المعدن أو أفادـ من العجلة . أـ يستند التصـنيـف إذاً إلى
ـ كلـ من أـشكـالـ العـقـلـيةـ ؟ لـقدـ زـعـمـ أنـ الـبدـائـينـ كانواـ يـجهـلـونـ مـانـدـعـوهـ «ـ الفـنـ
ـ تنـ » ، وـانـ لمـ يـكـنـ جـمـيعـ نـشـاطـاتـهـمـ الفـنـيـةـ منـ غـاـيـةـ سـوـىـ السـحـرـ . الأـ
ـ رـيمـونـ لـانـتـيهـ ، المـخـتصـ فيـ عـصـورـ ماـقـبـلـ التـارـيخـ ، قدـ أـنـصـفـ فيـ حـكـمـهـ
ـ قـمـيـزـ تعـسـفـيـ حـيـنـ كـتـبـ قـائـلاـ : «ـ لـيـسـ بـامـكـانـاـ الـادـعـاءـ ، بـعـدـ

(*) عن المجلد الثاني من موسوعة التاريخ العام للفن الصادرة عن دار فلاماريون بباريس ص ٣٧٥

مد

(**) لـابـدـ مـنـ هـذـهـ المـقـدـمةـ عـنـ الشـعـوبـ الـبـادـيـةـ ، لأنـ الفـنـ الـأـفـرـيقـيـ يـعـتـبرـ بـنـتـاجـ هـذـهـ

جـوبـ

وانصاف ، أنه قد كان ، بالضرورة ، لكل خط وكل صورة ، سمة سحرية ، فليس من الضرورة تعليق الفن حسراً بالوظيفة الدينية ، مع أنه لم يتمكن من الاستمرار والتطور إلا عندما انضوى تحت لواء أحطر هموم الحياة الحقيقة . . . حتى تكمل البحث نذكر أن شارل بيكار قد أبان أن دراسة فن جد متظر كفن القرن الخامس الهيليني ، قد أظهرت أن أنس تلك الأيام لم يكونوا قد فقدوا البتة اعتقادهم بالقيمة السحرية لأعمالهم الخاصة .

والحق أننا عندما نتكلم عن حضارة « بدائية » إنما نعني بهذه الكلمة قضية معقدة ، عرفت بشكل سيء ، وتدخل فيها ، حسب معايير غير متساوية ، السكن^(*) ، والكساء ، وانحلال الروابط بين الناس ، وعيوب الطبقية الاجتماعية ، وصفة ابتدائية للتطور العقلي مؤكدة بغياب الكتابة . ثم من الممكن إضافة صفة توقف هذه الحضارة المفاجيء . وبقى التعريف ، مع ذلك غامضاً جداً .

الفن الأفريقي

منذ أن فرضت نزوة المصورين ، حوالي مفتاح القرن العشرين ، ما كان يدعى آنذاك الفن الزنجي على المؤرخين الذين لم يتمموا به إلا قليلاً ، ثم تركوا دراسته لعلاء السلالات . . . منذ ذلك الوقت ومعرفة هذا الفن لم تتقدم كثيراً .

فقد اعترض غباب كلي للوثائق التي تسمح بتاريخ معين جديّ ، أمر القيام بمثل هذا التاريخ . إلا أن بعض الهواة ، الذين يعظمون من شأن قطع

(*) لأنصر القبائل الرحيل بدالية ، وهناك بعض الشعوب المسمية تعتبر بدالية .

العصور القديمة ، قد تحدثوا ، في الحقيقة عن ماض لا يرتفع إلى أكثر من مائة أو ثلاثة سنتين ، إننا اليوم ، مثلما كنا بالأمس ، محدودون تقريباً ، ضمن إطار عمل وصفي يشبه عمل علماء النبات .

ليس بامكاني نفي صفة وحدة حقيقة لفن افريقيا السوداء هذا ، على الرغم من صفتة القبلية الغالية . فهو يمتد فوق أراضي افريقيا الاستوائية ، وبجاله محدد تقريباً في الشمال بخط يمتد من الشمال الغربي إلى الجنوبي الشرقي من جوار الرأس الأخضر إلى الشاطئ الشرقي بارتفاع يعادى البحيرات الكبرى ، وفي الجنوب بخط غربي شرقي يجتاز نهر الزامبيز ، ولقد كانت أهم المكتشفات ما عثر عليه في المناطق التي تحاذى خليج غينيا ، متوجهة قليلاً أو كثيراً نحو أعماق القارة ، على لا يغيب عن بانا ، مع ذلك أن الفقر الظاهر ، لأرض محددة ، معزوأحياناً إلى استكشاف لم يندفع كثيراً فيها .

هذه المنطقة الواسعة هي ، فنياً ، شبه منعزلة . فعلى حدتها الشمالي الغامض تمت اتصالات مع المسلمين عبر سهوب السودان ، حيث قامت هناك صلات متبادلة . مع ذلك لم تقتصر الامبراطوريات السوداء والمسلمة ، التي تحدث عنها كثيراً ، على الرغم من أنها لانتماك عنها سوى معلومات قليلة ، لم تقتصر هذه الامبراطوريات عموماً المنطقة الاستوائية . ولربما كان السودان قد تأثر ، أحياناً ، بالفن المصري : فمن العسير الانcri في بعض مجموعات الخشب المنحوت أو المحفور ذكرى الزوجين المصريين الكلاسيكيين حيث يمد الرجل حول كتفه زوجه ، ذراعاً حانياً وحامياً . وليس باستطاعتنا ، من جهة أخرى ، نكران تسرب من الشاطئ نفسه آت عن الوكالات التي أقامها البيض منذ مدة طويلة .

كان السود يملكون النحت وسيلة تعبير تكاد تكون وحيدة ، فالعمراء تقى تقريباً غير موجودة لدى هذه الشعوب البدوية أو نصف البدوية ، والتي هي ، على كل حال ، قليلة الاستقرار . وتبعدوا خرابات الهائلة التي نقها جنوبى نهر الزامبىز ، والتي من أشهرها خراب زامبابوى ، تبدو مختلفات باحثين عن الذهب ربما كانوا يتمنون الى عرق سامي . والتصوير كذلك يكاد يكون غير معروف . وانا لنلقى ، مع ذلك ، على الحد الجنوبي عدة لوحات مصورة على الصخر ، ممثلة مشاهد صيد وحرب تدل على ذوق شيطانى لحركة غريبة تماماً عن الفن الزنجي . فهل هن عائدات الى البوشيمان أو البوشمن من صحراء كالاهارى ، الذين يتمنون الى عرق سبق أعراق الغابة الاستوائية السود وبمختلف عنها ؟ ان صور افريقيا الصخرية تتصل بصور ما قبل التاريخ في الاندلس أكثر مما تتصل بفنون الاقطان المجاورة . ذلك أننا نعثر على الطريقة نفسها في العمل برسومات سريعة ، وسلسلة من الشخصيات مرسومة ظلياً على خلفية ، وبالذوق الطفولي نفسه للحكاية البدائية .

والمعتقدات الدينية ، بالطبع ، أكبر عوامل وحدة الفن الافريقي . وهي ترتكز ، في كل مكان تقريباً ، على نوع من الاحيائية الروحية . كتب م جورج هاري : « ان حياة الناس في ارتباط دائم بنوعين من القوى : أرواح الاجداد وأرواح قوى الطبيعة أو الجان ، التي يحسن اكتساب عطنهما ، ويدل الجهد في التعرف تجاهها ، بحملها ، على الاقامة وقتياً على الأقل ، في رمز أو صنم . » ومن هنا هذه الوفرة في التماثيل الصغيرة الجنائزية وفي الأشياء المستعملة في ممارسة السحر ، وفي الأقنعة التي يرتديها في الرقصات الطقسيّة الشعاعية أعضاء مجتمعات سرية بهذا القدر أو ذاك ، وتزخر بها افريقيا السوداء .

ذلك أن التجربة تعلم أن هؤلاء الذين يتتجون الأقنعة ، في الماضي مثل الحاضر ، يقودون فنهم إلى نوع من التموزجية ، أو اسلوبية وجه انسلاخ عن ملامعه الفردية المتميزة . ثم ان تحت الأقنعة ، في افريقيا السوداء عملية طقسيّة ، اقطاعية أو ساط ضيق من الصناع ، هم أنفسهم غالباً أعضاء في جماعات سرية تعمل حسب تقليد ، وتتبع نماذج يعاد انتاجها باستمرار ، بحيث يصبح من المستحيل تقريراً اكتشاف تاريخ صنع أعمالها .

ونحن حين ننطلق من الرأس الأخضر ونتبع شاطئه خليج غينيا ، نلتقي باديء ذي بدء بسكنى على شيء من القسوة من (الدانيين) الذين زودونا بأقنعة تعد بين أكثر أنواع الأقنعة ، التي نعرف ، إغراباً وإدهاشاً . ولم تجد شعوب (الباوليين) في شاطئه العاج عمل الخشب ، بل عمل المعادن أيضاً . فعلى أقنعة من الذهب ذات نوعية ناعمة جداً ، تتحول ، بعض ملامح أساسية من الوجه ، كالخواج أو استدارة الفم ، إلى سبحة نتوءات ، والى قطع من البرونز الصغيرة ، مثلثة حيوانات ، ومقدمة الدليل على فضول قلماً يشاهد في هذه الفنون الخاضعة غالباً لتعلييات طقسيّة ، أما الباوليون فقد تجاوزهم الاشتاتيسيون في ميدان النّقش على المعادن هذا ، الذين صبوا ، لكي يوازنوا المعادن الثمينة ، صوراً عفوية جداً .

وعلى شاطئه العبيد كان لدى داهومي نتاج متنوع ينطلق من رفو وس الطين المشوي المحول قليلاً ، والجدير بإثارة حيرة الغربيين ، وعلى تخوم نيجيريا الانكليزية (يوروبيا) نلتقي تماثيل صغيرة من الخشب ذات ملاحظة مضحكه ، وتماثيل صغيرة فروسية (اذا تجرأنا على استعمال هذه الكلمة عندما يكون الحمار حيوان الركوب) ، تماثيل ذات صفة كاريكاتورية صريحة . كان يسودان الداهوميين يمتلكون نوعاً من القدرة على التكيف ، وأن اتصافهم مع

البيض لم يكن لينزل الجدب سريعاً يفهّم . فمتاحف الإنسان بباريس يمتلك تمثالاً إله للحرب مصنوع من الحديد ، تمثلاً فخماً جداً ، تدخلت فيه عناصر حديثة : ميزاب وسلامسل . وتشكل مملكة (بينان) القديمة ، التي أزاحتها бритانيون في نهاية القرن التاسع عشر فقط ، أرضًا محصورة في زاوية ؟؟ ولا يخالجنا الشك في أنها كانت على علاقة بالبرتغاليين منذ القرن السادس عشر . ولا يخالجنا الشك كذلك في أن برونزياتها الكبيرة التي تمثل حيوانات ، الديك منها خاصة ، أو صفاتيّها التي ينتصب عليها محاربون مصوروون في حفر بارز . . . لا يخالجنا الشك في أن هذه وتلك نتيجة اتقان تقني وحرية في التعامل مع المادة لانتقiableها أبداً في مكان آخر . وانه ليصل بنا الأمر من أجل بعض العاجيات ، ورؤوس تغرق رقبتها في ياقات عاليات ، الى التفكير مضطرين ، بربطات عنق من عهد لويس فيليب . واندفع علماء الآثار والافريقيات في معارك جدال عنيفة . ان من الممكن أن تكون نظرياتهم المتعارضة بعيدة الواحدة منها والأخرى عن الحقيقة اذا مادفعنا بها الى نهاياتها . ذلك انه لمن العبث ، او الذي لا طائل تحته أيضاً ، الاعتراض على بيان أثر البرتغاليين العميق في فن بينان ، مثلما هو من العبث كذلك ، انزال هذا الفن الى نوع من الملحقات بفنون الغرب . اننا لنجد هنا المشكلة التي أشير اليها من قبل : الاستحالة المزعومة لتكييف الفن الزنجي . فلربما كنا هنا على الأقل أمام تعارض بين الأعراق أكثر مما نحن أمام تناقض حالات تقنية حضارة . فالبيض الذين كانوا يجادلون في القرن السادس عشر شواطئ (بينان) ، لم يكونوا ليملكون ، فيما يتصل بالتقنية ، سوى مزايا محدودة . ثم جرى الأمر على شكل آخر في القرن التاسع عشر : فمركب نقص «المتوحشين» جعل من التقنية أمراً لا يقهـر . فلعلهم كانوا سيقاومون بشكل أقوى وأجود ، مادياً وروحياً ، لو أنهم كانوا أقل بعداً ، في الوسائل المادية ، عن فاتحـي بلادهم .

ويتوقف العمل في المعادن بصورة تامة تقريباً عندما نصل إلى الكامير ون والغابون والكونغو . فهاهنا ميدان الخشب الذي هو ، بامتياز ، مادة افريقيا السوداء ، والتي حددت جيداً صفات نحتها وميزاتها . فهو النحت المرهف جداً والناعم جداً والذي يكاد يكون ندياً في اللمس ، (فلقد كانوا يدهنون الخشب بزبدة الكارييت أو زيت السمسم لتلافي تشققه) ، ولا ينتقل انتقالاً مفاجئاً ، وهو مغمم بالخطوط الطويلة الملتوية .

ويمسح النحت متطوعاً ، نتاجه لكي يحفظه ، مقللاً من التنوءات البارزة . فمن تقبّب الجمجمة حتى نهاية الأنف لانلتقي إلا خطأ متصل تقطعه برقة أرببة الأنف المصغر ، ثم يمضي في سيرة المادي حتى الذقن المسوحة . ولربما قدمت رؤوس صغيرة ، صنع جماعات (الباهويين) ، قمة هذا الفن المتميز جداً . إلا أن الحقيقة تضطرنا إلى القول أن النصر في هذا الميدان يعود إلى الكونغو ، في منطقة (كاساي) كما في المناطق القرية من البحيرات الكبرى . وقد يكون السبب في هذا التفوق عائداً قبل كل شيء إلى عنابة البلجيكيين بالتقاط شواهد هذا الفن وأمثاله ، وجمعها في متحف (تيرفورين) ، أغنى متاحف أوروبا في مجالات هذا الفن . فالصانع (الباكوفي ، أو البوشوني) يقدم الدليل على المكر والسداجة ، مع تقديم نفسه طلعة في بعض محاولات التفتيش عن الحركة . ذلك أن غريرة زخرفية مرحة تحرض على زححة أعمال بدون مبرر و بتزيين غزير لأشياء ذات استعمال نفعي كالمقاعد ، وأيدي الفؤوس ، ومساند الرؤوس ، والخزائن ، والأقداح . وهو ينسج أقمشة بتزيينات هندسية ، كما يصنع العاج عند الحاجة .

وبالاختصار ، يظهر الاهتمام الطقسي لديه غالباً أقل وضوحاً من الرغبة في التلاعب فنياً .

ولقد زعم علماء في شؤون افريقيا أنهم وجدوا مبدأً تصنيف : فهم ينتمون فن السهوب بمقابل فن الغابة ، وهم يرون أن فن الغابة يظهر خاصة حيث تتوقف الغابة . والحقيقة أنها لا نعرف عن افريقيا وتاريخها ، سوى القليل ، ولا نملك إلا القليل من الأشياء حتى نتمكن من إقامة نظام مرض في نتاجه الفني ، ولتبين ، مع ذلك بعضًا من قوانين كبرى : فلقد كان م. فون سيدوف يلاحظ مثلاً أن السود ، في المناطق الساحلية ، يلحوظون ، عن طيب خاطر ، إلى اللون لزيادة تأثير نحتمهم ، اللون الذي يختفي كلما توغلنا في داخل القارة . أما ما يتعلق بالامكانيات المتاحة لبقاء الفن الافريقي مع حضور الحضارات المعاصرة ، فهي ضعيفة دون ريب ذلك أن علينا أن نلاحظ مع ذلك أن تخصص هذا الفن ، وطبيعته الطبقية المغلقة يعطيانه قوة مقاومة لا ينبغي أن تهمل ، وأن الأفارقة السود ، في النتاج الهجين لفن المبشرين ، قد دافعوا بشكل أجود من الشعوب الآسيوية ، ورثة حضارات كانت على العكس من ذلك مرهفة ، شديدة التأثر .

٢ - فن افريقيا السوداء (أيضاً)^(*)

مقدمة في الحضارات الساكنة :

إنها التي كانت تسمى البارحة فقط الحضارات البدائية ، إلا أن هذا التعبير قد أصبح اليوم موضع نقاش ، لأن هذه الثقافات ، في الحالة التي وجدتها عليها الغزو الأوروبي ، قد بدت تعكس ، بالحرى ، طوراً سابقاً أكثر حيوية وأصالة ، بل وأكثر تطوراً في بعض الحالات . إن طبيعتها السائدة ،

(*) ص ٤٣٢ من المجلد السادس من موسوعة الفن الصادرة عن دار ليديس بباريس عام ١٩٨٠

سواء في إفريقيا السوداء أم في أستراليا ، في أوقيانوسيا أم في حضن القبائل من سكان أميركا الأصليين هي بحق توقف سير ورثها المتطرفة (ظاهرة تلاحظ في عدة ثقافات كبرى شرقية ذات درجة أعلى في سلم الحضارة) . فالسكون الذي تم قد أصاب الميدان الديني مثلما نزل بالمؤسسات الاجتماعية ، وبالفن والصناعة : فلقد بدت هذه الأمور مختلفات مختصرة على هذا النحو أو ذاك ، تفتقر لازدهار ماضٍ تجاوزه الزمن .

أظهرت هذه الثقافات ، نتيجة اهتمام الذي جمدتها في مستويات متذبذبة ، أجمالاً ، بين العصر الحجري وأول عصور المعادن ، على الرغم من تنوع أصولها ، وأعراقتها وأوساطها ، وتاريخها ، ومفاهيمها عن الكون ، سلسلة مظاهر مشتركة . وهكذا تقوم المؤسسات الاجتماعية المؤلفة من عشيرة أو قبيلة ، في إفريقيا وأميركا وأوقيانوسيا ، على الانتساب إلى حيوان مقدس ، أو طوطم ، أو إلى تحالفه مع الرؤساء ؛ من ذلك مثلاً أن الطقس الذي يؤدى طليباً للخصب (المعزوة إلى إله خالق ، أو ببساطة إلى الأرض) ، وكذلك الاحيائية^(*) أو الميل إلى تصور الكائنات ، والأشياء والمظاهر الطبيعية ، موهوب كل منها من قبل قوة خاصة يمكن أن تغدو ممارستها عن طريق السحر مخففة لصالح الأحياء . ويجب ، بصورة خاصة ، استهالة أرواح الأجداد ومن هناعم انتشار طقس عبادة الأموات . ولقد نتج عن تشابه المعتقدات ، لدى هذه الشعوب ، اشتراك واسع في المواقف سواء في الممارسات الدينية ، أو في تطور دخول الفرد في هذه الممارسات ، وهو ما يشرح انتشار جمعيات أسرار المسارات سواء أكان ذلك في صنع أدوات الطقوس الدينية ، التي تؤلف عادة كل النشاط الفني ، أو شعارات الخصوبة أبرز هذه الأشياء ، ورموز قضيب

(*) مذهب حيوية المادة ، الاعتقاد بأن النفس هي مبدأ الفكر والحياة العضوية في آن واحد .

الذكر منها خاصة ، وكذلك القناع الذي تنسب إليه طاقات وسلطات عديدة ذات منشاً سحري - ديني ، أو وظائف ذات صفة نفعية خالصة . فإذا ما إسفل هذا القناع على وجه الميت ، أبقى على الصلة بينه وبين الأحياء . إن دوره في الممارسة الطقسية استعطافية أو رسولية (أي وظيفة رقية) ، أو أنه يجعل حامله مشابهاً للطواطم أول للجد الأعلى ، إذا لم يخف هوية حامله ، ويخدم صاحبه ترجماناً بينه وبين الطبيعة . ويمكن أن يكون كذلك اشارة تمييز لطبقة ، أو مكانة اجتماعية ، أو تجمع سري ، أو مجرد ملحق تسلية ، أو وسيلة إرهاب للعدو في المعركة .

ويعرض نتاج هذا الفن الذي هو بصورة أساسية طقسي (مع امكان استثناء بضعة أعمال للزينة فقط) . . . يعرض دائماً ، وبقوة ، صفة اصطلاحية ، ذات صلة بأهدافها السحرية أو المقدسة . وليس الفنان ، كما كان شأنه في فجر الحضارات الأكثر تطوراً ، وحتى في بعض فترات من الحضارة المسيحية . . . ليس الفنان حراً في الابداع على هواه ولا يهتم به إلا قليلاً ، ذلك أن الفن ، بعيداً عن أن يكون غاية في ذاته ، لا يقوم بواجبه إلا في احترامه قوانين المجتمع وأنظمته ، وبصورة خاصة في تقديره بقيم رمزية أشبعها هذه المجتمعات بقوة ، ففي هذه الحدود فقط تقوم شخصية الفنان بدورها ، وسيطاً ، أكثر من كونها خلقة ، ووسيلة اتصال بين الإنسان والقوى التي تحيط به . وبتعبير آخر ، يستطيع ، حسب استيحائه الوسيطي ، استعمال ذخيرة طقسية ورمزية خلق الموضوع الاكثر خصوصية في التأثير على قواه . وإذا مانجح في هذا الاعتبار ، صنعت منه بالتأكيد ، نسخ مطابقة ، تعيش على الأقل ، مادامت تقوم بشكل فعال ، بدور الوسيط أو الشفيع .

وثمة سمة أخرى ، لهذا الفن ، تكاد تكون ثابتة (حصر تكرارها اليوم

لغایات سیاحیة - تجارية) ، وهي سمة غياب الواقعية عنها ، غياباً تعذر أسبابه وفي آن واحد ، بالشروط التي تقدم الاشارة اليها ، وبالعوامل التي تفلت منها منذ الآن . فنحن نعرف عن عهد ما قبل التاريخ الأوروبي أن الفن الفرنسي الكانتابري قد شهد طوراً ورث فيه تمثيل مركز في العصر الميزوليتيكي ، طوراً واقعياً صور فيه صيادو العصر الباليوليتكي . ولقد سجل التطور نفسه في فن الشرق الايبريري ، وفن الصحراء ، وفن البوشيمانيين . وهكذا يمكن اذا ، في بعض حالات على الأقل ، أن تكون تبسيطية الانجازات الافريقية أو الاوقيانوسية المعاصرة عائدة الى تطور جفاف انتهى بحلول الاسلوبية ، والتصنع ، والشكل ، محل المذهب الطبيعي . ومن المعترض به ، من جهة أخرى ، أن الأطفال ، الذين يرسمون ، لا يقدمون ما يرون ، ولكن ما يبدوا لهم منها ، حسب واقعية وصفت بالعقلانية . ويقدم هذا الأمر حساباً ، في جزء منه على الأقل ، عن طبيعة النتاجات المعتبرة ، فمن فرط المبالغة في صورة ، أو في عنصر على حساب العناصر الأخرى ، نصل الى تجاوز المعنى الطبيعي أو تدميره : وهذا ما سندعوه اليوم الانتقال من التعبيرية الى التجريد . ونحن لانستطيع ، أخيراً ، استبعاد النفور المقصود من تقديم فن واقعي يتلاءم كما هو ، وبصورة سيئة ، مع موضوع طقسي ديني ، هورمز قوى فوق طبيعية أو وسيط لها : فالواقعية العقلية ، في هذه الحال ، تكمن ، كما قال غ. ه لوكيه في اعادة ما يعرفه العقل . إلا أن هذا كله ليس إلا فرضيات ، يمكن لمعرفة جيدة فقط ، لأصول هذه الشعوب وتاريخها وأساطيرها ، أن تثيرها .

(الفن الافريقي)

يقع موطن الفن الافريقي هذا جنوبى المنطقة الواسعة التي تختلها في الحبشة ومصر والمغرب ، حضارات متوسطية واسلامية . هذا الفن المتوجه

خاصة نحو النحت ، وبدرجة تطوره وبلغة التبادل ، هو أغنى وأكثر أعداداً من فنون هؤلاء الذين تقدم ذكرهم . نحن لانعرف إلا القليل عن هذه الشعوب التي انتجته حتى يمكننا تمييز أصوله الدقيقة . وعلم الآثار ، الذي يؤكد وجود الانسان في افريقيا منذ العصر الباليوليتكي الأدنى ، يدفعنا الى الافتراض أنها كانت مسكونة في عهود ما قبل التاريخ بعرق زنجي اللون ، قريب من بعض قبائل غينية الجديدة الذين انحدر منهم بغمبيانيو وبوشيانو افريقيا الاستوائية والجنوبية ، الذين دفعوا الى مناطق هامشية ، وأقل راحة من مسكنهم القديم . كان عليهم التراجع منذ عصر ما قبل الفراعنة ، أمام الزنوج الحقيقيين ، أعني البانتوين . ذلك أن هؤلاء القادمين من الهند ، أو من الجنوب الشرقي الآسيوي قد ألقوا مراسيمهم في موجات متعاقبة على شواطئ افريقيا الجنوبية الشرقية ، وأخذوا شيئاً فشيئاً مكان شعوب أقل تطوراً منهم في المناطق الأكثر سراً . وانهض ، مع الوقت بعض من بين الفاتحين ، بالسكان الأصليين ، وفيما بعد ، بالبيض من سكان الشمال ، مما تولد عن ذلك سكان خليط توضعوا في الشمال الشرقي من القارة السوداء . ونعني بهم السودانيين ، والغانيين ، والصوماليين .

وحاولت مصر ، بعد أن شكلت امبراطوريتها ، وفي محاولات متعددة ، استعمار وادي أعلى النيل من النوبة المحتلة في عصر الأهرام الكبير ، في ظل حكم الاسرة الرابعة ، حتى السودان الشرقي ، الذي ضم في ظل حكم الاسرة الثامنة عشرة ، في أكبر أوقات التوسع المصري . ونظم الفينيقيون ، لحساب مصر ، حلات نجحت في محاصرة ساحل دوار افريقيا بحراً ، واكتشفوا مناجم النحاس الروديسية التي استغلت منذ ذلك الوقت . ودفعت قرطاجة ، في آثارهم تنظيم العلاقات التجارية حتى قبائل النيجر السوداء . وتعود أول اشارة هامة حول تاريخ الشعوب السود الى القرن الرابع بعد الميلاد . ذلك أن

امبراطورية غانا الكبرى التي قامت حول حوضي السنغال والنيجر^(*) مع زراعتها الغنية ، قد غدت آنذاك واحداً من مراكز الحضارة في إفريقيا السوداء . ولقد حالفها الحظ في اللحظة نفسها التي دخل فيها الإسلام إلى المغرب والسودان . فلقد امتدت ، حوالي العام ١٢٣٠ ، إمارة سودانية مسلمة إلى حد احتلال غانا ، وضمها إلى امبراطورية مالي الأوسع . وانتقلت هذه الأخيرة بعد ما يقرب من مائة عام ، إلى سيطرة شعب سوداني آخر ، هو الصونرهاي ، الذي كان بدوره ، يترك مكانه للمراكشيين . ودفع الإسلام ، بالإضافة إلى ذلك تسبباً آخر للعرب الذين اندفعوا لنشر الإسلام .. وللوصول إلى مناجم الذهب في إفريقيا الجنوبية . فلقد أسسوا على طول الشاطئ الجنوبي الشرقي سلطنتاً وهميأتاً ، وحتى مدناً حقيقة لاتزال خرائطها موجودة .

ولنعد إلى حوضي نهرى السنغال والنيجر ، مرتفعين بهما نحو السودان العربي حتى بحيرة تشاد . فالواقع أنه ، سواء أكان ذلك بسبب وسط ملائم ، أو ظروف تاريخية ، فإن هذه المناطق قد أفضت إلى مرحلة متقدمة أرقى استفاد منها الفن أيضاً فائدة . وعلى الرغم من سيطرة الإسلام أو تأثيره ، فقد بقيت بعض الشعوب مخلصة لمعتقداتها السلفية ، المؤسسة بصورة عامة على مذهب حيوية المادة وعلى طقوس الأرض ، بصفتها الآلة الأم أو زوجة الآلة الأعلى . وتلك كانت حالة الساديين الذين عاشوا في سهل تشاد ، قبل أن يتفرقوا ، في القرن الرابع عشر ، أمام تقدم الإسلام . وتبين مخلفاتهم على أنهم كانوا يستعملون الخزف ، مثلما كانوا يستعملون الآنية البرونزية . فلقد تركوا ، خاصة ، تماثيل صغيرة من الطين المشوي ، لعلها صور لأجدادهم ، تماثيل يذكر أسلوبها أحياناً بمنحوتات شعوب الميونين من النوع نفسه .

(*) ينبغي لا ي الخلط بينها وبين غانا الحالية التي كانت تدعى قديماً (الشاطئ الذهبي) .

وئمه بجموعة عرقية هامه اخرى ، ٥- جماعة الدوغان ، التي تختص في نحت متميز للخشب ، لأنها كانت ملتجئة الى منطقة ذات مرتفعات عسيرة صعبه في داخل التواه نهر النiger ، (ذلك الخشب الذي يكتسب وهو المعالج بصورة مناسبة ، والمدهون ، وبين أيدي النحاتين السود ، نبلا لانظير له) . ولأن الدوغانيين يستعملون أسلوباً هندسياً من أكثر الأساليب فتنه واغراء ، أسلوباً متاثراً بتقنية الحديد المطرق ، فإنهم حفروا غالباً سطوح مواد بسيطة في معينات تملك قيمة سحرية ورمزية .

وينحت السينوفيون ، الى الجنوب ، تماثيل وأقنعة خشبية في أشكال أكثر رشاقة ورهافة ، مثل تماثيل الباربيتون الصغيرة كذلك ، التي جلبت للفن الأفريقي ، برو وسها المزينة ، والممثلة بالظباء ، إسهاماً ملفتاً للنظر . فإذا ما كان الدوغونيون تكعيبين ، فإن السينوفيون يذكرون بهاتيس ، ونستطيع أن نقول ما هو أكثر من ذلك عن التماثيل النسوية الرشيقه جداً والتي نحتها التيميون ، من قبيلة كانت تسكن سيراليون . ويعيش ، الى الجنوب أيضاً ، على شاطئ خليج غينيا الاشانتيون ، المشهوروون برقة ما أنتجوا من حلي نحاسية (ذلك أنهم قد عملوا بالذهب ، على امتداد ثلاثة قرون سابقة ، بصورة جديرة باللحظة ، لأن أغنى مناجم ذهب العالم توجد في بلادهم) ، وفنيداهومي ، الصناع المهرة الممتازون ، الذين قدموا لنا أضخم تمثال أفريقي مصنوع من الحديد : تمثال غو ، الله الحرب ، الموجود في (متحف الانسان في باريس) . وهناك أخيراً اليوروبيون ، ناحتو تعبيرية دينها ميكية اليوم ، والذين صاغوا من قبل رؤوساً واقعية جداً ، رؤوساً ذاتات نبل مدهش ، والتأثيرون ، بالتأكيد بفن الحضارات المتوسطية الكبرى ، كما تشهد على ذلك اللقى المنحوتة من الطين المشوي والبرونز التي وجدت في مدیتھم المقدسة (ایفیه) .

إلا أن مفاجأة كبرى كانت تنتظرنا في هذه المناطق . فقد تطور غير بعيد عن (ايفيه) في القرنين الثالث عشر والرابع عشر فن ملفت للنظر (فخار مشوّي ، وحجارة منحوتة ، وبرونزيات) ، وفي دلتا نهر النيجر ، قامت مدينة (بينان Benin) عاصمة مملكة سوداء تحمل الاسم نفسه ، والتي أقام البرتغاليون معها علاقات تجارية متتابعة بدءاً من القرن الخامس عشر ، مدينة قال عنها رحالة هولندي ، في القرن السابع عشر ، أنها أكبر من امستردام ، مشيراً إلى روعة قصرها الملكي . ثم مرت المدينة ، في نهاية القرن بأزمة حادة لم تستطع الخروج منها تماماً . وسقطت أخيراً في عام 1897 في أيدي حملة انكليزية أتت تأثراً لقتل قنصل . عندذاك ، استطاعت أوروبا ، أخيراً أن تتعرف فصلاً جديداً ومدهشاً من فصول الفن الزنجي ، باكتشافها ، تحت سقف حظيرة مئات من تماثيل العاج ، وتماثيل البرونز خاصة . وتكتشف هذه الأخيرة عن رقة اعجمييه في تقنية صهر الشمع متقدة إلى حد أنه تردد في اعتبارها مصنوعة محلياً . فلقد افترض ، أولاً ، أنها مستوردة من قبل المسلمين أو البرتغاليين ، حتى اكتشف مؤخراً أن نحاتي البرونز البينيين قد تلقوا تقنيات العمل لدى غيرهم من مدينة (ايفيه) . وهل من الواجب أيضاً ، من أجل تفسير المشكلة كلها معرفة من أين تعلم اليورباويون ، بدورهم ، صنعتهم ؟ ذلك أنه من (ايفيه) أيضاً قد أتت تأثيرات التصوير النحتي : فنحن نعثر ، في أقدم رؤوس تماثيل (بينان) على صفاء النموذج الخاص بفن عصر يوروبا الكبير . إن نموذجيات « بينان » هن ، على كل حال ، صفائح البرونز بشخصيات ، تصف مشاهد قنص أو حفلات ، وكانت تزين دعامات القصر ، حسب استعمال مأخوذ عن مصدر ، ربما كان أوربياً . وتملك هذه الأعمال ، التي تؤرخ بالقرن السادس عشر ، نوعاً من التجانس والانسجام بحيث يفترض أنها ، إن لم تكن من صنع فنان وحيد ، فهي على الأقل نتاج

مدرسة تحكمها قواعد صارمة . وتعرض الوجوه مع استثناءات قليلة ، بفتح بارز ، وبصورة مواجهة ، مع وجوه من نموذج واحد : أنف عريض ومسطح ، وعيينان واسعتان مرسومتان بعناية ، وفم كبير غليظ الشفتين ، والتشكيل البسيط جداً ، هو أيضاً ، متناغم جداً . ويبقى غنى الديكور البادخ المطبق في الملابس أكثر الأمور ادهاشاً بتعارضه الفريد مع أسلوب عرض الشخصيات الصريح ، وصرامة الخلفيات المعتادة .

وإذا ما كانت (بيان) تؤلف حالة فريدة ، فإننا لانعدم البتة ثقافات افريقيا أخرى ، يستوحى فنها المتطور ، والغني أيضاً ، أقوى الروحانيات . فإذا ماغادرنا دلتا نهر النيجر محتازين الكاميرون ، التقينا في الجنوب ، على تخوم الغابون ، قبيلة البانغوبي ، أو الفانغ التي ينحوت أفرادها في الخشب القاسي تماثيل صغيرة (بيري) من أجل طقس عبادة الأجداد . ففي الأقنعة وعلى الصاري الجنائزي المنحوتين (اللذين يوضعان الى جانب علبة تحتوى جاجم الأجداد من أجل حمايتها) ، في هذه وفي تلك لا يخضع الأسلوب ، المتتطور حقاً لاهتمامات هندسية أو تعبيرية ، ولكنه يرمي إلى خلق إيقاع . وينجح في ذلك غالباً ، ويصنع متاخمو الباغويين من الباكونيين صواري أو صوراً ، لحماية حاجيات الدفين الشخصية ، وهن يمضى التمثيل البسط نحو التجريد . فالرأس يحتفظ ، أحياناً بصلة مع الحقيقة ، إلا أنه يعلو جسماً مصنوعاً من معين بسيط ، ويكتفى ، في حالات أخرى ، بشكل بيضوي (محدب لدى الرجال ، وم-curved لدى النساء) ، ومرتد صفائح من النحاس ، مع اسطوانتين صغيرتين في الوسط تذكران بالعينين . ويختص البايفيليون ، الأكثر قرباً من المتوسط ، بانتاج تماثيل للشفاعة أو لفك السحر . فالنوع الأول منها مزود بتجويف - مذخر متضمن أشياء سحرية ، أما النوع الثاني ، الذي يرمز الى العدو المطلوب ضربه ، المغروسة فيه مسامير أو أسنة ، تعني الشر

الذي يفتش عنه (هذا الاستعمال منتشر في العالم أجمع ، بها فيه أوروبا والتماثيل في الحالتين ، مطبوعة بواقعية وحشية ، منبودة في الفن الأفريقي الكبير الذي يهتم عادة بالتناغم ، والرشاقة أيضاً .

هانحن ، مع الباڤليين ، في حوض نهر الكونغو ، مركز الثقافة السوداء الآخر الكبير . اننا لا نعرف أيضاً تاريخ شعوب هذه المنطقة مثلما نعرف تاريخ السودانيين والنيجريين ، إلا أننا نعلم أن مجموعة عرقية ، صيادين رحل ، من قبيلة البالوبيا ، قد نجحت في السيطرة على هذه المنطقة الواسعة ، منشأة امبراطورية استمرت حتى زمن دخول الأوروبيين ، كان البالوبيون نحاتين كبار تنافس منحوتاتهم في الصفاء وتجاوز في الأصالة ، برونزيات مدنية (اي فيه) .
 وهم أيضاً ، صانعوا عدد من التماثيل الصغيرة الدينية ، كتمثال الشحادة المزعومة في متحف افريقيا الوسطى الملكي ، بمدينة (تورفورين) ، الذي يعكس اسلوب نحثه الشكلي روحانية عميقه ، ولقد ابتعدت هذه الصفة ، منقصة ، في أعمال دينوية ، كهذه المقاعد المزودة بتمثال امرأة ، والنماذجية في هذا التتاج . وغالباً ما تدل أقنعة البالوبيين ، بالمقابل ، على اتجاه نحو التجريد الهندسي ، المصحوب بتعبيرية قاسية ، ربما استوحها بيكساسو في لوحته (آنسات افينيون) . كان على البالوبيين ، على امتداد تاريخهم ، أن يجاهموا شعباً كونغولي آخر ، قوياً جداً ، سموه (باكوبا) ، أو شعب البرق . يتميز فن هذه الجماعة ، مثل فن بيان ، بنحت رسمي ، مصنوع احتفاء بذكريات ، ومفلتاً من كل تعريف أو تحديد دقيق ، فهو حيناً واقعية تكاد تكون اسلوبية ، وهي ناعمة أكثر من أن تكون قوية ، وهو حيناً آخر صور محدودة حتى لتبدو دقيقة ناحلة ، مغطاة كلياً بثلمات على شكل معينات ، ومطبوعة بجمود ظاهر .

ويعيش على تخوم الكونغو وأنغولا الباجوكيون ، الذين كانوا ، من قبل ، صيادي العبيد والمخيفين الذين تشهد تماثيلهم الدينية الصغيرة بشراستهم ، والذين خلفوها لنا بملامحها المرسومة بقوة ، وأعضائهما الجبار ، وأيديها وأرجلها المخططة لها بثقل . وإذا ما كان فنهم يؤكّد نشاط افريقيا التشكيلي ، فإنه يبقى ، بالتأكيد ، بعيداً عن الروحانية والتناغم ، بله الشفافية الكلاسيكية التي تمنع ، غالباً ، مظاهر الثقافة كثيراً من النبل .



الأدب والصراع السياسي في جنوب إفريقيا

ر. آ. تشيريومين

ترجمة: وليد قارصي

تميز الوضع في جمهورية أفريقيا الجنوبية على مدى العقد الماضي بنهاية حركة التحرر الوطني . فالطبقة العاملة الأفريقية الأصل (التي تعد خمسة ملايين عامل) أصبحت القوة الموجهة للعملية الثورية التي تضم جميع طبقات الأغلبية الشعبية المقهورة . فاضطرابات أواعام (١٩٧٢ - ١٩٧٤) وانفراط عام ١٩٧٦ الناجحة في سويفتو والتي قامت بها جماعات الكونغرس الوطني الأفريقي (جنوب إفريقيا) . . وأخيراً التنازلات التي قدمتها السلطة (وان كانت ظاهرية ومحدودة) والتي أدت إلى اضعاف بعض التشريعات الخاصة بالـ « أبارتيد » .

كل هذه الأمور مجتمعة تشهد بوجود أزمة في النظام الذي اعتبرته الدوائر الحاكمة نظاماً متناسقاً . وكما أكد زعيم الحزب الشيوعي لجنوب إفريقيا - يوسف دادو - فإن «محاولات اخضاع الشعب بالقوة هي محاولات فاشلة وإن المبادرة المحتومة قد انتقلت إلى أيدي الشعب ومنظماته التحررية» .

وانتشرت روح عدم الثقة والضياع والبلبلة في أوساط الأقلية العنصرية البيضاء وأصبحت شيئاً مألوفاً : « ماذا نرى خلف واجهة الرفاهية المزعومة ؟ - هذا ما يسأله الناس العاديون . فيأتיהם الجواب : كراهية المستعمرين من جهة والخوف والشعور بالذنب تجاه السود - من جهة أخرى » .

وتلعب المسألة العنصرية الدور الرئيسي في المجالات السياسية والاجتماعية والروحية راسمة الملامح الخاصة للوضع الثقافي في جمهورية إفريقيا الجنوبية . الوضع الذي يؤكد بوضوح القيمة المنهجية الثمينة لموضوعة لينين حول وجود «الحضارتين» في الثقافة الوطنية الواحدة في مجتمع الصراع الطبقي . وفي إفريقيا الجنوبية تتصارع الثقافة التقديمية الثائرة ضد نظام الفصل العنصري (الأبارtheid) مع ثقافة الوصوصة السياسية - الاجتماعية والتي تويد الأفكار العنصرية) حيث يرتبط تطور الادراك الفني ارتباطاً عضوياً مع تطور الادراك السياسي . وهذا يظهر بوضوح في إفريقيا الجنوبية أكثر منه في أي بلد آخر . إن ضرورة اختيار الموقف من القضية العنصرية تحدد المبادئ ، الفكرية والجمالية لأدباء جنوب إفريقيا كما تحدد الواقع الأيديولوجي و «الالتزام» المفتوح في ابداعهم . فإذا لاحظنا في بلدان أخرى من القارة وجود «تسيس» للثقافة بشكل عام في الوقت المعاصر فإن السياسة في إفريقيا الجنوبية تصعب المفاعل الرئيسي في الثقافة . وفي هذه المناسبة يجدر أن نذكر تصريح الكاتبة المعروفة في إفريقيا الجنوبية ذات الميل الليبرالية - نادين غودريمير - التي لاحظت منذ عام ١٩٧٠ أن : « الأدب الفني لأفارقة إفريقيا الجنوبية في مجتمع

يتناقض فيه لون البشرة مع الطبقة الاجتماعية - يعتبر في اغلبته أدباً بروليتارياً » .

وبالفعل فإن الموقف الحرج في أوساط المثقفين والمبدعين السود في افريقيا الجنوبية - من « الثقافة الوطنية » يتعاظم في شتى المظاهر . وهكذا فاننا أمام ظاهرة متناقضة : ففي افريقيا الجنوبية التي يتعرض سكانها الأصليون للعنصرية المت渥سة لم يتشر مبدأ « النيجريتود » أي « التعصب الزنجي » (على عكس ما حصل في كثير من بلدان القارة الافريقية) . ففي الوقت الذي اعتبر نشوء هذا المبدأ على شكل استنكار ضد الاستعمار الروحي فإنه يسمو « بالشخصية الافريقية » كما لو أنها تمتلك مجموعة من الصفات « الفطرية » مثل الإنسانية والروح الجماعية والتصور العاطفي للكون على عكس العقلانية الإنسانية للبيض وغير ذلك .

إلا انه في ظروف افريقيا الجنوبية فان الصراع من أجل تكيف الثقافة الزنجية الافريقية في اكثر مظاهرها « فطرية » وقدماً كان سيعني تقوية نظام التفرقة العنصرية ، لذلك ليس من قبيل الصدف أن يدعون العنصريون الى رفع شعار « المحافظة على حضارة البانتو » الذي يغطي محاولات تكريس نظام الحياة القبلية التقليدي والموجه نحو تحقيق « التطور العرقي المستقل » ونحو بعث الترايبياليزم في المجال الثقافي . وفي النهاية - نحو شق حركة التحرر الوطني .

من خلال هذا الوضع يبدو ذلك الشعار حاملاً نفس المعنى الذي سيحمله « التعصب الزنجي » . ولهذا السبب بالذات أظهر أدباء جنوب افريقيا ذوي الميل التقدمية - أظهروا بشكل محدود عدم تأييدهم « للتعصب الزنجي » الذي « يعزل الكتاب السود عن بقية العالم » - حسب قول الكاتب ريتشارد ريف - احد الأدباء القلائل الذين بقوا في جمهورية افريقيا الجنوبية واستمروا في نشاطهم الادبي .

ومنذ نهاية السبعينيات انخفضت وبشكل واضح أسهم نظريات «الادراك الذاتي الاسود» والتي تقارب بشكل او باخر التعصب الزنجي مع انها لعبت دوراً ايجابياً معروفاً في التشجيع السياسي للجماهير عندما صعب عمل الكونغرس الوطني الافريقي والحزب الشيوعي لجنوب افريقيا بسبب ملاحقة النظام لها.

في الوقت الذي يرى فيه ايديولوجيو التعصب القومي الثقافي ان الدعوة الى الثقافة الشعبية تعني تأكيد ثبات النظام وعدم خضوعه لعملية التطور التاريخي ، فان القوى الديمقراطية الثورية والبروليتارية في جنوب افريقيا تنظر الى التراث الثقافي من خلال مسوّر المنظور التاريخي وتوّكّد على محتواه الاجتماعي وتسعى الى استخدام خصائص التراث الثقافي للإدراك الجماهيري من أجل جذب الشعب للمشاركة التشجيعية في الصراع السياسي .

وتظهر في التقاليد الافريقية الوطنية قبل كل شيء العناصر المرتبطة مع الحركة المعادية للاستعمار ومع تاريخ المقاومة البطولية التي أبداها سكان القارة الأصليون للمستعبدين الامريكيين .

وقد كتبت حول ذلك بدقة مجلة «افريكان كومونيست» : « لقد لعبت التقاليد الأدبية الفنية للشعوب الافريقية دورا هاما في عملية التحرر الوطني . وكانت بمثابة مفاعل فني وسياسي . لذلك كانت وستظل ينبع الإلهام وأساساً شعبية الكثير من أعمال الأدباء المعاصرين » .

وفي دولة متطرفة صناعياً كجمهورية افريقيا الجنوبية تركت عمليات التمددين المكثفة آثارها العميقه على الادراك السياسي للأفارقة وهذا وبالتالي حدد خواص التفكير الفني حيث تضافرت وتفاعلـت بشكل متبادل المشكلة الافريقية النموذجية مع وسائل كشفها الآتية من حضارة اخرى . وهذه الوسائل بدورها كانت قد حصلت على انكسارات ذات نكهة خاصة .

إن التوجه نحو الاشكال الفنية المعاصرة لأدب الغرب يحدث في الادب التقدمي في جمهورية افريقيا الجنوبيّة ضمن مجال تقبل أفضل منجزات الواقعية النقدية وهذا يظهر بوضوح في أعمال الادباء مثل - آ . لاغوما وج . كوبوب ، وريتشارد ريف ، ود . كونينه ، وأ . ن . ك . كومالو وغيرهم .

ففي رواية آ . لاغوما « زمن الاخبطوط » تختد الازمة بين سكان احدى القرى الكثيرة في افريقيا الجنوبيّة والذين لا يرغبون في الاستسلام للقوانين الاجرامية في المجتمع العنصري وينهضون للكفاح ضد السلطات التي تحاول اجبارهم على ترك مواطنهم الاصلي وتهجيرهم الى الاراضي الصحراوية المقرفة في بانتوستان . هذه الازمة تحمل طابعاً شموليّاً ونموذجيّاً وتعكس الوضع السياسي في البلاد ككل .

« لقد قرر الشعب استرجاع ديونه وحانّت ساعة الحساب ان الناس يشعرون بهذا في جميع انحاء البلاد » - هذا ما تقوله احدى بطلات الرواية . وتعتبر رواية (لاغوما) نموذجاً واضحاً من (ادب المقاومة) . يرتكز الادب الديمقراطي في جمهورية افريقيا الجنوبيّة على مبادئ الشعوبية الاصيلة والتي تعتمد بشكل أساسي على انعكاس افكار الاستنكار والنضال التحرري ضد العنصرية وعلى اظهار نمو الادراك الذاتي الطبقي والوطني عند الجماهير . ويتبّع انغامات الجماهير في الصراع السياسي عندما نعلم أن مؤتمر اتحاد كتاب جنوب افريقيا والذي يضم الكتاب والصحفيين السود والمعقد عام (١٩٧٩) قد أكّد في قراراته على ضرورة توطيد الروابط مع النقابات المهنية الافريقية :

اليوم - زمن تمجيد الارادة
والصدق الذي يحرق الفؤاد
في العمل الحازم - في النضال . . .

هكذا يدعى في قصيده « زمن الفعل » شاعر جنوب إفريقيا والرجل الاجتماعي المعروف (د . بروتوس) والذي يعيش في منفاه الاجباري كغيره من إخوته في المهنة ويكرس ابداعه في سبيل تحرير وطنه من الظلم الاستعماري والعنصرية .

والجدير بالذكر أن « تسييس الأدب » يشمل أيضاً رعاة الاتجاه نحو الحضارة البرجوازية في جنوب إفريقيا والذي يتغنى مثلاً بالتفوق المزعوم للعرق الأبيض وينفون وجود أي شكل من اشكال التراث الحضاري للأفارقة .

فمثلاً يقوم أحد « دعائم » هذا الاتجاه الكاتب الغزير الإنتاج (س . كلوتني) ، بتمجيد دائم « لبطولات » البيض أثناء عملية احتلال إفريقيا حيث أتوا إليها - على حد قوله - « لأهداف تبشيرية حضارية » .

ويتعمد في أعماله حول المواضيع المعاصرة لتجنب اظهار التناقضات الموجودة في الواقع الجنوب - أفريقي . فالافريقيون إما أنهم يبقون خارج « الكادر » أو انهم خدم عديمو الوجوه أو « برابرة متوجهون » .

وفي تحليل مجموعة قصصية نشرها أمثال (س . كلوتني) كتبت المجلة الكبرى في جنوب إفريقيا « يونيا انجليش ستاديز » تقول : « مرة أخرى نحن أمام صيغ جاهزة وشخصيات مسطحة » . وكان هذا القول يؤكّد الخط الوصولي الواضح للأدب الرسمي . ويندمج هذا الاتجاه مع ما يسمى « باتجاه النجاة » الذي يدعو إلى الهروب من استيعاب المشاكل الحارقة للبلاد إلى عالم الغرابة والكليشات التجارية الرخيصة « للثقافة الجماهيرية » .

وقد ارتبط اسم ج . بيكر ، التي توفيت عام (١٩٧٧) ، بأدب « التسلية الخليعة » بينما يتبع كلوتني وشامبين وغيرهما طريقها « بجدارة » .

إلا أن قائمة « الطيف الحضاري » للمجتمع الأبيض لا تنتهي عند هؤلاء . إذ أن هذا الطيف يصبح تحت تأثير الاحداث السياسية العاصفة أكثر

تنوعاً . ويقوم بعض الكتاب الليبيون بفضح لا إنسانية نظام « الفصل العنصري الابارtheid » وينقلون الحياة اليومية غير الطبيعية والارتباك الروحي للأقلية ذات الامتيازات . وكقاعدة أصبحت أفكارهؤلاء الكتاب اكثراً راديكالية خلال الفترة الماضية واقتربت من مواقف القوى الديمقراطية الشورية . وليس من قبيل الصدف أن توجه الكاتبة المذكورة آنفاً سادين غورديمير - في روايتها « ابنة ببورخر » التي حصلت على تقدير رفيع من قبل النقاد العالميين - توجه نحو التاريخ البطولي والنشاط اليومي الحالي للمنظمات التقدمية في جنوب افريقيا . فبطلة هذه الرواية (التي تستحق أن تسمى رواية سياسية) ، ابنة أحد المستوطنين وهو شيوعي - روزا ببورخر - لم تكن دائئراً تفهم والدها في صبابها فتحاول تحت تأثير الاجواء المحبيطة تحليل المذاهب المعقّدة للنضال الاجتماعي وإيجاد موضع لها فيه . وتعكس قصة بحثها الفكري التطور الابداعي لغورديمير نفسها والتي تقف الان في صفوف المناضلين بلا هواة ضدّة نظام الابارtheid الرهيب .

إن نمو الامزجة المعارضة يظهر أيضاً بين الكتاب المستوطنين . ففي مؤتمر اتحاد الكتاب الذي يكتبون بلغة « الأفريكانز » ، المنعقد عام ١٩٧٨ ، ذكرت ضرورة الغاء الرقابة ونوقشت أعمال الحكومة في محاولتها الضغط على المعارضة من خلال الصحف . إن مثل هذه الحقائق تحمل الكثير من البيانات بالنسبة للوضع الثقافي والاجتماعي في جمهورية افريقيا الجنوبية إذ أصبحت الطرق السياسية المسدودة طرقاً مسدودة في مجال الثقافة أيضاً ، وأكثر من يشعر بذلك مثلوا الانتلجنسيّا الافريقيّة المرموقين .

وقد أدى الفرز الفكري بين الكتاب المستوطنين الى تشكيل مجموعة أدبية حول مجلة « سستيفير » (السستيفير - هم الستينيون) وقد منعت بعض أعمال أعضاء هذه المجموعة : أي . ليرو- وا . برینك وغيرهما . وقد صرّح

برينك ، الكاتب الكبير الذي تعرض للملاحقة من قبل السلطات بعد منع روايته « في ظلام الليل » عام ١٩٧٤ : « إذا كان الأدب المكتوب باللغة الأفريقانية » سيحمل يوماً ما بين سطوره معنى الثورة الأفريقية فإن الفضل في ذلك يعود - باعتقادي - إلى أولئك الناس الذين استطاعوا أن يقذفوا بكلمة « لا » في وجه النظام . وهذا بالضبط ما يفعله الكاتب المذكور الذي يضطر إلى اصدار كتبه في الخارج . وقد حصلت روايته (« تحت المطر » - ١٩٧٨) على شهرة واسعة . وهي تحكي عن حياة المستوطنين الذين بدأوا تدريجياً بالاقتناع بحتمية سقوط نظام الفصل العنصري . ويلخص عنوان المقالة النقدية في مجلة « إفريكان كومونيست » محتوى الرواية على الشكل التالي : « كيف يفكر المستوطنون الأفارقة حول الثورة » .

وفي عام ١٩٨٠ حصل (برینك) على جائزة ميديشي الأدبية الفرنسية لأجل روايته « الموسم الأبيض الجاف » حيث يستنكر الكاتب الإرهاب البوليسي والتعسف في إفريقيا الجنوبية .

إن أهم عوامل تطور الاتجاه الديمقراطي الشوري للأدب في إفريقيا الجنوبية هو انتشار وتأثير الأفكار الاشتراكية ونموها ونرى في الوقت الحالي التوجه الواضح نحو امتلاك منهج الواقعية الاشتراكية في نتاج العديد من الكتاب التقدميين بينما تنتقل مواقع هذا النتاج من « أدب الاحتجاج » إلى « أدب المقاومة » .

* * *

عن مجلة « آسيا وأفريقيا اليوم » عدد ١٩٨٢/٣ .



ترجمة: د. ماجد علاء الدين

أخذ الأدب الأفريقي في الآونة الأخيرة يحوز على اهتمام الكثيرين من النقاد وعلماء الأدب ليس في القارة الأفريقية فحسب ، بل على المستوى العالمي . ولم يكن هذا الاهتمام بالأدب الأفريقي مجرد مصادفة ، بل جاء للتطور العاصف الذي مرت به هذه القارة منذ عشرينات هذا القرن وحتى الوقت الحاضر . وتجلى هذا التطور في أن الأكثريّة الساحقة من بلدان هذه القارة قد حصلت على استقلالها السياسي وشرعت تناضل من أجل الاستقلال الاقتصادي والثقافي ، وتعمل من أجل القضاء على كافة أشكال الاستغلال الذي مارسته الإمبريالية العالمية ضد شعوب هذه القارة . كما بدأت البلدان الأفريقية المستقلة حديثاً بتطوير الثقافة بكل فروعها ادراكاً منها أن التخلف الكبير الذي يحيط على كاهل هذه القارة ناجم عن الأمية والجهل بالدرجة الأولى .

ومن الضروري الاشارة هنا إلى أن الأدب الافريقي الحديث قد أخذ يلعب دوراً هاماً في عملية النهضة الاجتماعية والثورة الثقافية التي مرت بها العديد من بلدان هذه القارة ، مع الأخذ بعين الاعتبار ، سبل التطور والعوامل التاريخية والدينية والاجتماعية التي تميز بعض المجتمعات الافريقية عن غيرها . ويقوم الأدب الافريقي بدور هام آخر وهو تعریف الشعوب الافريقية كيف من الممكن أن تدرك حقيقة نفسها وتحمل المسؤولية أمام مصيرها . وساهم الكتاب الأفارقہ بتعریف العالم على أهم القضايا التي تعانی منها القارة الافريقية ، وحدث هذا لأن الكتاب هم أقوى من أية وسيلة دعائية في تصوير العوالم التي يعيشون فيها لمختلف القراء . في شتى أنحاء العالم ، وليس هناك أي شك في أن الكتاب في فرنسا أو في بريطانيا أو في روسيا قد لعبوا دوراً هاماً بتعریف شعوب العالم الأخرى على بلدانهم أكثر مما عرف بها المؤرخون وعلماء الاجتماع والسياسة . وبفضل الكتاب الافريقيين أصبح الانسان المعاصر يملك تصوراً معقولاً عن الأفريقيين عامة وعن سكان كل بلد على حدة بكل ماتمتاز به فئات الشعب من اختلاف وتفاوت ومعضلات سياسية واقتصادية واجتماعية . ومن الجدير بالذكر أن آداب وحضارات الشعوب الافريقية قد تأثرت إلى حد بعيد بحضارات وثقافات البلدان الأوربية التي استعمّرت البلدان الافريقية قرونًا طويلاً ، حتى أخذ النقاد في علم الأدب يفصلون بين الأدب الافريقي المكتوب بلغة فرنسية أو انكليزية أو إسبانية والأدب القومي المكتوب باللغة الأم لكل شعب من شعوب هذه المنطقة . وهنا نرى أن من الضروري التوقف عند أحد الكتاب الافريقيين المعروفين وهو الكاتب السنغالي سيمبدين عثمان الذي يعتبر ناثراً كبيراً في بلده وفي القارة الافريقية عامة .

لحة عن حياته :

ولد سيمبدين عثمان في عام ١٩٢٣ في أسرة يمارس فيها الأب حرفة صيد

السمك في مدينة زينغينشور الصغيرة الواقعة على ضفاف نهر كازا مانس . سافر منذ سنوات شبابه الأولى إلى مدينة داكار وهناك عمل حجاراً وحداداً ومساعد ميكانيكي في أحد الكراجات . التحق بالجيش عندما بلغ الثامنة عشرة من عمره ، وأمضى أربع سنوات وهو يعمل في قيادة سيارة عسكرية على ضيق الحرب العالمية الثانية ، وكانت هذه الفترة مدرسة حقيقة بالنسبة للكاتب . إذ تعلم كيف يناضل ضد القوى السوداء الباغية من أمثال ألمانيا النازية . وبعمق يجيب أن تتوحد كافة الفصائل الوطنية لردع الخطر ، واقتبع بصرورته تصعيد النضال الوطني في كل بلد افريقي على حدة وفي افريقيا بأكملها من أجل التحرر الكامل من الاستعمار الكولونيالي .

ولقد أدرك الشاب سيمبین أن الدور الأساسي في توعية الشعوب الافريقية التي تعاني من الأمية يجب أن يلقى على عاتق الفئات المثقفة . وأدرك أنه من الضروري له ولكافحة أصدقائه أن يدرسوا بعد التسريح من الجيش . وهذا ما فعله في واقع الأمر وبالاضافة الى العمل المضني في ميناء مارسيليا أخذ يمضي أكثر أوقاته في الامسيات في الدراسة حتى أخذ يقدس الكلمة المطبوعة لأنه رأى في هذه الكتب سلاحاً فعالاً في النضال ضد الاعداء الخارجيين والداخليين .

التطور البداعي :

رأى الكاتب سيمبین أن مهام الكاتب الأولى أن يكون مسؤولاً عن مصير العالم بأسره ، وعليه أن يكون دائماً في خضم الاحداث التي يعاني منها شعبه ، وشعوب العالم قاطبة ، وعليه أن يعرف جذور المصاعب التي تعرقل مسيرة الشعوب نحو الحياة الأفضل ، وعليه أن يناضل ضد كافة أشكال التمييز العنصري واستغلال الانسان لأخيه الانسان

وانطلاقاً من هذه المبادئ اتجه الكاتب سيمين نحو تسجيل أفكاره الإنسانية في كتاب «عامل المרפא الأسود» الذي صدر عام ١٩٥٦ بعد عدة سنوات من العمل الدائم والمضني.

رواية «عامل المרפא الزنجي»

يعكس محتوى هذه الرواية موضوعاً هاماً للغاية ، إذ يبين المؤلف سيمين كيف يتم الاضطهاد العنصري للشعب الأفريقي ليس فيزيولوجياً فحسب ، بل فكرياً ومعنوياً أيضاً : بطل هذه الرواية كاتب أفريقي سنغالي اسمه «دياوفالا» يكتب رواية بعنوان «الرحلة الأخيرة لتاجر العبيد سير يوس» ، وبعد أن ينجز العمل في كتابة هذه الرواية ، يقوم بتسليمها إلى سيدة فرنسية «معروفة» في أوساط باريس الأدبية . إلا أن هذه السيدة التي وعدت أن تنشر الرواية باسم كاتبها ، كذبت بوعدها ونشرت المخطوطة باسمها ، وحصلت هذه الرواية على الكثير من الجوائز الأدبية . عرف الكاتب دياوفالا بالموضوع فسافر إلى فرنسا حتى يصفي حسابه مع السيدة الفرنسية ، ولكن هذه السيدة تموت فجأة بحادث تراجيدي لا دخل للكاتب دياوفالا به . إلا أن الشرطة الفرنسية تعتقل دياوفالا وتتهمه بالقتل المعمد وتحكم عليه المحكمة بالأشغال الشاقة مدى الحياة ، ولم تنفع جميع التبريرات والحجج التي تقدم بها دياوفالا نهائياً لأن المحكمة الفرنسية تعتبره متورطاً ، وانساناً منحطًا ، يعاني من العقد الجنسي نتيجة لون عرقه الأسود . وباستعداده أن يقوم - حسب وجهة نظر المحكمة - بأكثر الاعمال اجرامية وسادية ، ورفضت المحكمة أن تعرف بحقوق المؤلف بغض النظر عن الوثائق والمخطوطات التي تقدم بها والتي ثبتت حقه في تأليف الرواية .

يتناول الكاتب في هذه الرواية مسألة اجتماعية ملحة للغاية فهو يوضح الأسس التي يقوم عليها التمييز العنصري الذي يعاني منه الشعب الأفريقي في جميع أنحاء القارة الأفريقية في ظل سيطرة الاستعمار الأوروبي . ونتيجة لهذا فقد العمال الأفريقيون الثقة نيس بالحكام الاستعماريين فحسب ، بل وبإخوانهم العمال في المجتمعات الأوروبية .

ولقد حاول الكتاب البرجوازيون والنقاد الغربيون أن يقللوا من أهمية هذه الرواية ، فوصفوها بأنها رواية بوليسية لأن أهميتها لها ، وما هذا إلا للتقليل من أهمية مسألة الصراع التي طرحها سيمبین بكل جرأة مبيناً الظروف الصعبة التي يعيش فيها العمال الأفارقة . وكان النقاد على حق لو أنهم أشاروا إلى بعض الضعف في التنسيق بين الموضوعات والمسائل التي تطرحها الرواية . فمثلاً لم يتمكن المؤلف من سبك موضوع الحب الذي تناوله مع أحداث الرواية الأخرى .

« يا وطني ، ويا شعبي العظيم »

لم يمض عام إلا وصدرت رواية الكاتب سيمبین عثمان الثانية بعنوان « يا وطني ، ويا شعبي العظيم » وكان ذلك عام ١٩٥٨ . وجاء هذا ليؤكد عبرية الكاتب الأدبية ويجعله أكثر شهرة على المجال العالمي .

في هذه الرواية يتعرف القارئ إلى الكثير من جوانب سيرة الكاتب سيمبین نفسه ، وفيها ومن خلال البطل الرئيسي عمر فاي يصور المؤلف طفولته وأعماله في السنوات الأولى من حياته العملية كما يصور سنوات الحرب العالمية الثانية ، وحياته في فرنسا وما إلى ذلك من سيرة الكاتب ذاته يرتفع المؤلف في هذه الرواية إلى درجة أكثر وعيًا وادراكاً في فهم مسألة

الصراع الطبقي واستيعابها . فلم يعد يتوقف في هذه الرواية عند وصف المعاناة التي يعيشها العامل الافريقي في ظل الاستعمار الكولونيالي بل تجاوز ذلك لوصف البطل الوعي الذي يمتلك ناصية المعرفة في مقارعة الأعداء ، ويرى الطريق السليم الذي يقود شعبه الى التحرر الكامل . ويرى بطل الرواية عرفياً أن المهمة الأولى على درب نضاله هي تحرير الفلاحين من التبعية الاقتصادية للشركات الاحتكارية الغربية ، التي كانت تستغل الفلاحين أبغض استغلال عن طريق تقديم بعض القروض وشراء المحاصيل الزراعية بأرخص الأثمان التي تفرضها الشركات الاحتكارية العالمية ، وبين الكاتب كيف أن أحدى الشركات الاحتكارية أخذت تقدم البذار للفلاحين بلا ثمن على شرط أن يتلزم الفلاحون ببيع المنتوجات لها بالذات وحسب الأسعار التي تضعها ، وفي هذه الظروف الصعبة يعمل بطل الرواية من أجل تأسيس جمعية تعاونية تدافع عن حقوق الفلاحين وتفرض الاسعار التي تجدها مناسبة على المحصولات الزراعية . ومن خلال هذه الجمعية يحلم بحلول الوقت الذي يصبح فيه الفلاح مشاركاً في جمعية تعاونية طوعية تقوم بتجفيف المستنقعات وتستصلاح الأرضي ، وتببدأ التكنولوجيا الزراعية الحديثة بالعمل ، ويأخذ الفلاح كامل حقه . ولكن عملاء الشركات الأجنبية يقتلون بطل هذه الرواية عمر لأن الشركات الاحتكارية قد رأت فيه مواطناً افريقياً من نوع جديد بإمكانه أن يقود الفلاحين إلى التحرر من سيطرتها واستغلالها .

ولكن وعلى الرغم من مقتل عمر فإن أفكاره قد بقى في قلوب وعقول الكثيرين من أبناء شعبه ، وما المظاهر التي تكونت عند دفنه الا دليلاً قاطعاً على أن جهود عمر سوف تستمر في المستقبل ، رغم أنها في ذلك الوقت (أيام الاستعمار الكولونيالي) كانت غير ممكنة التحقيق ، وعلى الرغم من أحلام عمر في تلك الأونة كانت ضمن نطاق الخيال الرومانسي

ومن الجدير بالذكر أن الكاتب قد نظر إلى المستقبل بعيدين مفتوحتين وتوقع في هذه الرواية أن شعبه سوف يحقق الاستقلال السياسي والاقتصادي ويبني المجتمع الذي يقوم على أساس الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية والسير نحو بناء الاشتراكية .

وبالطبع كان بطل الرواية عمر يلاقي الصعوبات الكثيرة ليس من جانب الشركات الاحتكارية فحسب ، بل في اقناع الفلاحين الجهلة بصحة ما يقوله لهم ، وخاصة يلاقي الكثير من الصعوبات في اقناع الكهله الذين يؤمنون بالمثل والتقاليد القديمة ، ويرفضون الأفكار التقدمية الجديدة إيماناً منهم أن هذا هو مصيرهم في الحياة الدنيا . وهنا نلاحظ أن الكاتب سيمين قد عكس وضعًا شبيهاً إلى حد ما بالوضع الذي عكسه ميخائيل شولخوف في رواية « الأرض البكر حرثناها » وكذلك في رواية « الدون الهادئ » إذ يتم الصراع بين القديم والجديد ، بين أنصار الملكية الخاصة والملكية الجماعية التعاونية . وفي هذا المجال بالذات يصطدم عمر مع والده بالذات الذي اعتاد كغيره من الفلاحين على الذل والاهانة إذ يقول لابنه عمر : « لا يجعلك رأسك إذا انحنىت لذوي الأمر »

ومن جهة أخرى نلاحظ في الرواية أن الشباب هم الذين يفهمون هذه الآراء التي يطرحها عمر ومن هؤلاء كان الدكتور أبو والمعلم سيف ، والشاب غومي ابن التاجر وغيرهم من الشباب . وهكذا يطرح المؤلف موضوعاً آخرأ وهو الفرق الشاسع بين تفكير الأفريقي القديم وتفكير الشاب الأفريقي الجديد الحال بالحرية والاستقلال والعيش بكرامة . ويرى المؤلف أن النصر هو حليف الأجيال الشابة المناضلة من أجل المستقبل الأفضل .

والموضوع الثالث والأهم بالنسبة للكاتب سيمين هو الغاء جميع الفروق العرقية بين بني البشر ، وأكد المؤلف أن المعرفة والثقافة والنظم الإنسانية هي

الكافحة بإلغاء هذه الخلافات والصراعات العرقية . وفي هذه الرواية يعكس المؤلف هذا الموضوع من خلال الصراع بين والدة عمر العجوز رقية من جهة ، وزوجته الشابة الفرنسية من جهة أخرى . ولكن هذه الخلافات تضمحل وتنتهي بالتدريج من خلال علاقة الاحترام المتبادل والسعى إلى التقارب أكثر منه إلى التناحر . وخاصة بعد أن تلد هذه الفرنسية لها حفيداً وتصبح قرابة الدم أعمق من مسألة لون البشرة . وتصبح المسائل التي تقرب بين بني البشر أكثر فاعلية من الجوانب التي تفرقهم .

ولقد نشرت صحيفة « ليتر فرانسيز » مقالاً عن هذه الرواية جاء فيه : « إن أفريقيا القديمة ، أفريقيا الناس والأولاد ، التي حملت بخشووع الظلم وغياب العدالة تستيقظ من غفوتها . . . لقد أخذ الزنجي يشعر بكرامته الإنسانية ، ويعمل الآن من أجل أفريقيا الجديدة ، التي سوف تمجد كلمة « الحرية » كما تمجدها الشعوب المتحررة . وعن أفريقيا الجديدة المستيقظة كانت رواية « يا وطني ، ويا شعبي العظيم » للكاتب سيمب欣 عثمان

أختاب الآلة :

في هذه الرواية يرمز الكاتب إلى فكرة عميقة احتفظ بها الكاتب لنفسه مدة طويلة وهي العلاقة الدائمة بين فئات الشعب على اختلاف فصائله وقومياته وأجياله . وتعتبر هذه الرواية ظاهرة جديدة في الأدب الأفريقي عامه ، وفي أدب شعوب أفريقيا الغربية بخاصة . ففي الوقت الذي تكلم فيه المؤلف عن نضال بعض فئات الشعب من أجل الاستقلال ، كان دائماً يبرز الجانب العفواني في النضال ، أما في هذه الرواية فقد أكد المؤلف على عامل الوعي في إنجاح أي عمل ثوري

في هذه الرواية يعكس المؤلف مشروع تهديد السكك الحديدية عبر المدن الثلاث داكار ، تيس و باماکو ، والبطل الرئيسي في هذه الرواية هو الشعب العامل : عمال السكك الحديدية وأسرهم ، وبين المؤلف أن الصراع الحقيقي ليس بين البيض والسود بقدر ما هو صراع بين الذين يكذبون من جهة ، وبين الذين يعيشون على حساب جهود الكادحين من جهة أخرى . ومن خلال الاضرابات يدرك العمال ضرورة العمل المنظم والموحد ضد الاعداء الطبقين . وهكذا « أخشاب الآلة » - الناس يتحولون إلى مناضلين واعين ومدركون أنه بين الأوربيين البيض يوجد لهم أصدقاء ورفاق يتضامنون معهم في نضالهم .

ومن خلال هذا الصراع بين القوى العاملة والاعداء الطبقين من تجار وأصحاب مصالح مدعومين من قبل الشرطة والسلطات التنفيذية ومن القوى الرجعية يبين المؤلف أنه على طريق النضال يسقط بعض الضعفاء الذين يخافون من الصعوبات والتهديدات السلطوية . ومن خلال هذا النضال يتضح أن إفريقيا قد دخلت في مرحلة جديدة من حياتها إذ دخلت التكنولوجيا إلى مجال الزراعة وأصبح هؤلاء الفلاحون يعملون على الآلات الزراعية دون عناء كبير ، ولم يعودوا يتصورون حياتهم دونها . كما يبين المؤلف التحول الكبير الذي طرأ في حياة المرأة السينيغالية وكيف أخذت تشارك في الحياة العملية بكل جد ونشاط إلى جانب زوجها ، وأخذت تشعر بحريتها وكرامتها ، ومن بين هؤلاء النساء الانسانة الهدائة والحكيمة وصاحبة الإرادة الصلبة « راماتولايا » والمرأة الفقيرة « ميمونة » التي لاتتحني أمام شعورها بالفقر ، وتحافظ على كرامتها بكل تصميم وإرادة حرة .

والبطل الرئيسي في هذه الرواية هو ابراهيم باكايوکو الذي يعتبر العقل المدبر للحركة الشعبية ، وهو يمتاز بصفات الثوري المحترف الذي خرج من

صفوف هذا الشعب المكافح . وهو من حيث اكتساب الوعي قد اجتاز مرحلة هامة تخلوه وعن حق أن يقوم بدور القيادة . ويشبه إبراهيم من حيث التعامل مع رفاقه العمال . ومن حيث نضاله المبدئي « بافل فلانسوف » بطل قصة « الأم » للكاتب مكسيم غوركي ، بل يجد القارئ الكثير من أوجه الشبه والتطابق في بعض أحداث رواية « أخشاب الآلة » ورواية « الأم » ، وخاصة أن الكاتبان مكسيم غوركي وسيمبين عثمان قد عكسا مرحلة تكون الوعي عند الطبقة العاملة ، وادراك المفاهيم الثورية ومعرفة الأعداء الحقيقيين لكافة فصائل الشعب . كما يوجد شبه كبير بين موقف الأم نفسها في رواية مكسيم غوركي وموقف النساء - زوجات أو أمهات العمال المناضلين ضد الاستغلال والقهر والظلم والعبودية .

كان هذا في الفولتا :

عام ١٩٦٢ صدرت مجموعة قصصية للكاتب سيمبين عثمان تحت عنوان : « كان هذا في الفولتا ». واحتوت هذه المجموعة قصصاً قصيرة كتبها المؤلف في مختلف المراحل السابقة . ومن بين هذه القصص ، أقصوصة « زنجية من . . . » التي ترى في لون جلدتها مصيبة كبرى في عالم الصراع العنصري . وكذلك أقصوصة « الوعي الذاتي » يدرك النائب فيها أن مصلحته الحقيقة هي إلى جانب رجال الاعمال ولذلك يتم بهم أكثر مما يتم برفاقه السابقين . وهذا ما فعله الشاب الجميل داود في رواية « أخشاب الآلة » . وأخيراً قصة « الأم » التي كتبها المؤلف عام ١٩٥٧ وأهدتها لأمه وكتب في مقدمتها في صفحة الاهداء : أهدي هذا الكتاب لأمي ، رغم أنها لا تجيد القراءة . ولكن ، يكفي أن تمس غلاف وبعض صفحات هذا الكتاب لأكون

أسعد بنى البشر» . وبكلمة ان هذه الاقصوصة ، المسجلة على طريقة الحكايا هي نشيد الحب لكل الامهات .

وأكمل الكاتب من جديد في مجموعته القصصية « كان هذا في الفولتا » على أن مهمته الأساسية هي عكس حياة الشعب السينيغالي بكل أبعادها . ويتوقف خاصة عند حياة بسطاء الناس وتوضيح المسار الحقيقي للنضال الثوري ضد الظلم والاستقلال وتحقيق الاستقلال السياسي والاقتصادي ، والعيش في عزة وكرامة .

ولكن مصير الكاتب سيمبين عثمان أخذ يتعقد تدريجياً ، وخاصة بعد أن أصيب بحادث طارئ خلال العمل في الميناء عام ١٩٥٨ ، إذ وقع على ظهره ثقل وكسر العمود الفقري مما جعله يتلزم الفراش فترة طويلة . وإثر هذا الحادث على نشاطه الأدبي الذي بدأ يتسع خاصة بعد زيارته للاتحاد السوفيتي عام ١٩٥٧ ومشاركته في مؤتمر كتاب آسيا وأفريقيا .

ومن الجدير بالذكر أن الكاتب سيمبين عثمان كان يكتب نتاجاته الأدبية باللغة الفرنسية لأن لغته القومية « فولوف » لا تملك أحرفًا للكتابة سابقاً أما الآن فأخذ الكاتب يترجم نتاجاته بنفسه إلى لغته القومية . وشكل هذا العمل له سعادة حقيقة أن يرى أبناء قوميته يقرأون أعماله بلغتهم الأم .

ولم يقتصر نشاط الكاتب على العمل الروائي والقصصي فحسب ، بل تجاوز ذلك ليشارك في التأليف المسرحي والسينمائي . ورأى في هذين الفنين وسيلة هامة لايصال الثقافة والمعرفة إلى أبناء الشعب السينيغالي الذي ما زالت

فيه نسبة الأمية عالية ، وليس بإمكانه أن يتعرف إلى الأدب العالمي أو حتى الأدب القومي من خلال القراءة . ومن أجل هذا الغرض سافر سيمين إلى موسكو ودرس هناك أصول الفن السينمائي والخرج والتصوير ، وعاد إلى بلده ليخرج عدة أفلام منها التاريخية ومنها الوثائقية ومنها الفنية الابداعية ومن بين هذه الأفلام كان الفيلم الفني «بوروم سارت» الذي يروي قصة حياة أحد السائرين في مدينة داكار خلال يوم واحد . كما أخرج بعض قصصه الأدبية كأفلام ، وأخرج الكثير من الأفلام المتنوعة الأخرى التي حاز عليها الكثير من

الأوسمة والجوائز في المهرجانات الموسيقية الدولية . ولكنه وعلى الرغم من أنه قد أصبح من أكثر المخرجين السينمائيين شهرة في غرب إفريقيا فإنه حافظ على عمله الأساسي وتتابع نشاطه الأدبي مجدداً ومطوراً لتلك الأفكار الرومانسية الثورية بعقلانية أكثر وتحليل أدق .

الاستفتاء:

في عام ١٩٦٤ صدرت رواية «الاستفتاء» وفيها يعكس المؤلف الأحداث التي مرت على إفريقيا الغربية منذ عام ١٩٥٨ وحتى الوقت الحاضر . وتبدأ أحداث هذه الرواية من ٢٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٥٨ عندما اقترحت فرنسا في هذا اليوم على مستعمراتها أن تصوت «بلا» أو «نعم» للاستعمار الفرنسي . ومن المعروف أن القوى الديمقراطية لم تنتصر إلا في غينيا وحدها . وبالطبع أن المؤلف قد عكس التحضر الواسع والوضع العام في غرب إفريقيا عشية الانتخابات .

في مركز أحداث هذه الرواية نجد البطل الأدبي الدكتور- الطبيب تانغара الذي يعاني من عدة مصاعب في حياته ، ولكنه تمكن من استيعاب

أصول الطب الشعبي ، الافريقي ، وأسس الطب الحديث . واعتقد أن المشاركة في الحياة السياسية ليس من شأنه لأنه كان يعتقد أن الإنسان يفيد في مجال اختصاصه أكثر من أي مجال آخر . ولكنـه عندما يحرم من عمله وتهان كرامته يبدأ بالتفكير جيداً وبصورة واقعية أكثر من قبل . وأدرك تانغلاـرا جيداً أنه من الضروري العودة إلى رفاقه القدماء : الطبيب « كوفي » والفنان « ليو » اللذان أعتقداـ أن فشـل القوى التقدمية في الـانتخابات هو فـشـل كبير ، وعلى جميع القوى الوطنية أن توحد صفوفها أكثر من قبل لتحقيق النجاحات المرجوة .

وفي الرواية التي يغلب عليها الطابع الاجتماعي نجد أن المؤلف قد خصـنـ قسـطاـً كـبـيراـً من صفحـاتـها للـحـوارـ بينـ الـأـبطـالـ . ويعودـ هـذـاـ إـلـىـ تـأـثـيرـ المـسـرـحـ وـالـسـيـنـماـ عـلـىـ الكـاتـبـ ، كـمـ يـعـودـ إـلـىـ رـغـبةـ الكـاتـبـ فـيـ توـضـيـعـ الـافـكـارـ السـيـاسـيـةـ وـالـاجـتمـاعـيـةـ الـتـيـ يـنـاضـلـ مـنـ أـجـلـهـ الـأـبـطـالـ فـيـ هـذـهـ الرـوـاـيـةـ . وـلـكـنـ عدمـ تـحـديـدـ المـكـانـ الـذـيـ تـتـمـ فـيـهـ ، أحـدـاثـ الرـوـاـيـةـ جـعـلـ القـارـئـ يـتـعـدـ عنـ وـاقـعـيـةـ المـوـضـوعـ وـاقـعـيـةـ الـاحـدـاثـ وـيـقـلـلـ مـنـ تـفـاعـلـهـ مـعـهـ ، وـلـمـ يـتـحـسـنـ القـارـئـ الـمـشـاعـرـ الـوطـنـيـةـ ، وـالـسـيـكـوـلـوـجـيـةـ الـذـاتـيـةـ لـلـانتـهـاءـ الـقـومـيـ .

أزمنة - تشيوسان :

في عام ١٩٦٥ صدر كتاب « أزمنة تشيوسان » الذي يضم قصتين أحدهما تحت عنوان الكتاب نفسه والأخرى « ارسالية بريدية » ولقد أجمع النقاد عند تقويم هذا الكتاب على أنه من أفضل ماكتب سيمبین عثمان ، إذ استفاد من تجربة الأدب العالمي ومن تجربته الخاصة وابتعد قدر الامكان عن ايجاد الحلول المباشرة لتلك المشكلات التي يناقشها ، وغالباً ما كان يترك للقاريء أن يجد الإجابة بنفسه .

وفي قصتي هذا الكتاب يبين الكاتب أطر الاستقلال السياسي والاقتصادي الذي عملت من أجله الدول الأفريقية الاستوائية . ويبين كيف صعدت شعوب هذه البلدان في النصف الثاني من القرن العشرين نشاطها ونضالها من أجل الاستقلال وتقرير المصير . ويصور المؤلف أن المجتمع الأفريقي قبل الاستعمار الكولونيالي كان مجتمعاً لاطقرياً وبالتالي أن النضال من أجل الاشتراكية في هذه البلدان هو نوع من الحفاظ على التقاليد القديمة . والأفريقيون يناضلون من أجل احياء القيم الايجابية في الماضي وبناء المجتمع الجديد حسب متطلبات العصر .

في قصة « أزمنة تشيروسان » نجد أمامنا مجتمع الفلاحين في السينيغال بكل جوانبه بعد عدة سنوات من انتهاء الحرب العالمية الثانية . وهنا يتعرف القارئ إلى التخلف الكبير الذي تعاني منه القرية الأفريقية في ظل سلطات الاحتلال التي لم تنشأ المدارس ولا المستشفيات ولم ترسل مندوبيها إلى الريف إلا بجمع الضرائب فقط . ولم تشهد هذه القرى البعيدة أي تطور ملحوظ ، فقد كانت مقطوعة كلياً عن العالم الخارجي ، وكان أول لقاء لها مع العالم الخارجي عندما عاد عسكري شارك في قوات الانزال وحارب في الجزائر والهند الصينية . وقد عقله من رب الممالك الضارية . وفي هذه القرى أصبحت الحياة فاسية ولا معنى لها ، فقدت القرى أكثر رجالها في الحروب ، والنسمة يعيشن حياة كثيبة في وحدتهم . والكمالة عاجزون عن التفكير بالمستقبل الذي لا يعودهم إلا بالمصائب ، ولم يبق لهم إلا التفكير بالثواب في الحياة الآخرة - في الجنة .

ولكن الحدث المباشر في الرواية الذي أراد أن يفجر به الكاتب قبلة عنيفة ضد العادات العائلية والقبلية ، هو أن شيخ القرية قد ارتكب جريمة

أخلاقية إذ اغتصب ابنته رغمًا عن ارادتها . وعندما علمت زوجته - أم البنت المغتصبة قامت بعملية انتحارية وقتلت نفسها . وقام أخ الشیخ بتدبیر عملية قتل لأخيه ، إذ حرض ابن الشیخ - العسكري المجنون ليقتل أباه ، وهذا ما حصل ، وبالتالي يحصل ميدون على كرسي الزعامة . ولكن أمر ميدون والشیخ الديني يفتضح أمام الاهالي لما جعلهم يثورون ضدهما .

يبين المؤلف في هذه الرواية ومن خلال النقاش الذي يدور بين جماعتين من البشر أن المجتمع القديم بنظمه وتقاليده لم يعد يتناسب مع الحياة المعاصرة ، ومن جهة أخرى إن الاسس الايديولوجية التي يجب أن يبني عليها المجتمع الجديد ما زالت غير واضحة ، زد على ذلك أن الشعور بالمسؤولية أمام بناء هذا المجتمع الجديد ما زال عاطفياً في أكثر الأحيان وبعيداً عن الواقعية العلمية الالزمة لبناء المجتمعات المعاصرة على أسس سليمة .

أما بالنسبة لقصة «الارسالية البريدية» فيطالعنا المؤلف بأحداث من السبعينيات في هذا القرن . وتجري الأحداث في مدينة داكار بعد الاستقلال . وفيها ينتقد المؤلف عدم تحمل المسؤولية من قبل المواطنين الافارقة من أجل اخضاع الطبيعة وترويض الصعاب والتخلص من العقد النفسية ، والضعف الانساني .

بطل هذه القصة إبراهيمينا وينغ كهل أمي عاطل عن العمل ، ومن أجل أن يستلم إرسالية نقدية ، أرسلها له ابنه من باريس كان عليه أن يصطدم بالواقع البيرقراطي الذي تعيشه الدوائر الحكومية . وفي كل مكان يجد هذا الكهل الاحتقار وعدم الاهتمام والسخرية . ومن حسن حظه ، وربما لسوء حظه التقي صدفة بأحد أقاربه الذي يعمل موظفاً في دائرة البريد . فتعهد له

أن يكمل المعاملة ويستلم له النقود ، ولكن وبعد أن يحصل على هذه النقود « يضيعها » .

ولكن ورغم هذه اللوحة القاتمة التي يرسمها المؤلف عن وضع هذا الكهل ، فإنه لا يفقد الأمل في المستقبل الأفضل ، وخاصة بعد وقوف عامل البريد « با » إلى جانبه ودعمه في أصعب اللحظات مؤكداً له أن كل شيء سوف يتحسن . وبكلمة ، إن هذه الخيوط المضيئة إنما هي الأمل في المستقبل الأفضل للإنسانية .

ومن الجدير بالذكر أن كتب سيمين عثمان قد لاقت اقبالاً واسعاً بين القراء ، وحازت على العديد من الجوائز في معارض الكتب . وقوم النقاد العمق الاجتماعي ، والتتابع الفكري في أدب سيمين ، ونتاجاته الاجتماعية التي لا ترفض السلبيات فحسب ، بل توضح ما يجب عمله في المستقبل ، وكيف يمكن أن تتحرر الشعوب الأفريقية سياسياً واقتصادياً وثقافياً من كوابيس الاستغلال والاضطهاد والتمييز العنصري .



غاليتنا غاشرشيفا
ترجمة: الزاوي أمين

يعتبر الأدب الأفريقي أدباً شاباً ، فلقد ولد أغلبه في خمسينات هذا القرن ، وإنه أدب لا يملك تقاليده الأدبية المكتوبة ، لكنه يتطور بشكل مكثف ، عاولاً استدرك سنتين الصياغ التي سببها الاستعمار .

إن الفلكلور باعتباره جزءاً من التقاليد الشفوية ، كان حتى السنوات الأخيرة هو الشكل الوحيد للفن الفعلي في أغلب بلدان هذه القارة . ففي إفريقيا ظلت ثقافة القرون الخالية ، ثقافة الأسلاف ، محفوظة داخل مجموعة من الأساطير الجميلة والحكايات والخرافات والملامح والأيام (الواقع) الشعبية والأغاني . . . الخ .

كتب أحد الأفريقانيين (AFRICANISTES) الفرنسيين المعروفين وهو : « رولان كولان » (ROLAND COLIN) قائلاً : في أفريقيا ، في كل مرة يموت فيها شيخ ، تحرق مكتبة .

إن التقاليد الشفوية ، والفلكلور بشكل خاص ، تعد جزءاً لا يتجزأ من كل الثقافة الوطنية ، ولكن في حالة الثقافة الأفريقية ، هناك خصوصية تميز بها هذه الشعوب ، إذ أن الدخول إلى الحضارة الأفريقية يقوم أساساً على الخطاب الحي ، إذ أن أغلب اللغات الأفريقية لا تملك أبجدية حتى الآن ، ففي أغلب بلدان أفريقيا السوداء نشأت الأدب الجديدة في كنف لغات المتربيون القديم . لكن الفلكلور ظل يواصل تطوره في اللغة المحلية الأهلية ، مؤثراً بشكل واضح على أسلوب الكتاب المعاصرين من خلال تقاليده العريقة ، وأنساق صوره وشخصياته التقليدية وأشكاله وإيقاعاته الخ .

يستقطع بشكل وتطور الأدب الأفريقية اهتمام أساسيات : فمن جهة ، يلاحظ تأثر الكاتب بالتقاليد الفلكلورية لشعبه ، ومن جهة أخرى ، امتلاكه خبرة الثقافة الأدبية العالمية .

يؤكد الكتاب الأفارقة أنفسهم على ضرورة دراسة فلكلور بلدانهم ، فهذا الشاعر الغيني « نيني خالي - كمارا » (NÉNÉ-KHALI CAMARA) يكتب قائلاً :

« إن منابع وجذور أي أدب تعود إلى الإرث الثقافي الذي يتكون منه الفلكلور والأساطير والحكايات الشفوية الشعبية والحكم والأمثال ، التي هي خلاصة الخبرة التاريخية الجماعية . إن العديد من أشكال الثقافات القومية تكونت وتتطورت عبر قرون طويلة ، إن التطور الطبيعي لواقع الحياة ، يدفع الكاتب دائمًا إلى الاعتراف من المنبع الثر للتقاليد الثقافية الشعبية

وقد عبر الكاتب الجزائري مصطفى الاشرف ، في مؤتمر الكتاب الأفرو-آسيويين الذي انعقد في القاهرة سنة ١٩٦٢ ، عن وجهة النظر نفسها : **فائللا :**

« إن كل مشروع لدراسة ثقافة الشعوب الأفرو-آسيوية يتطلب قبل كل شيء دراسة منابع الثروة الثقافية لهذه الشعوب ». .

وقد أشارت العديد من مؤلفات الأفريقيانين (AFRICANISTES) السوفيات من فيلولوجيين (PHILOLOGUES) ونقاد أدبيين من أمثال أ. غالبرينا (E. GALPERINA) وإ. نيكيفوروفا (E. COTLIAR) وJ. بوتخينا (NIKIFOROVA) . . . الخ . إلى أهمية دراسة التقاليد الفلكلورية .

وحين نتحدث عن أنواع الفلكلور الأفريقي ، نميز فيه ثلاثة أنواع أساسية في الفن الشعبي الشفوي : الحكاية الحيوانية ، والحكاية الخارقة والملامح .

إن الحكاية الحيوانية الكلاسية ، تقدم في الفلكلور الأفريقي من خلال حلقات تزيد أو تنقص ، وهي ترتبط بموضوعات عديدة يجمعها بطل مركزي واحد (الماكر) ، وتتكلم الحكاية عن مختلف المغامرات والدسائس التي تخرج منها هذه الشخصية بأعجوبة ، مستغلة كل حيلها ومكرها . وإن أهم الحيوانات التي تلعب دور الماكر في الحكايات الشعبية المختلفة هي : الارنب البري (القوع) والعنكبوت والسلحفاة . . . الخ .

أما الشكل الحكائي الأكثر انتشاراً في الأدب الشفوي ، فهي حكاية الخوارق ، والتي تنحدر مباشرة من الأسطورة الإفريقية . إن أبطال حكاية الخوارق الإفريقية ، يمتلكون قوة خارقة (SURNATURELLE) يهزمون بها كل الوحوش والتنينات ، وانهم يصلون إلى مبتغاهم دائمًا ، فهم يبحثون عن امرأة

أوزوج متعدد كل المصائب . ان معنى « الخوارق » هنا يؤكّد ذلك الارتباط بين الفلكلور والافكار والصور الاسطورية (MYTHOLOGIQUE) . فالبطل يستطيع ان يتحول الى حيوانات مختلفة ، ويستطيع ان يصبح لامرأة ، ويشرب بركة كاملة .. الخ أما الأبطال الشانويون فهم يؤدون أدوار الخدم السحرة (فمثلا : يخلف الآباء للبطل إرثاً . متمثلاً في بعض الاشياء أو الحيوانات الخارقة فهذه البهائم تساعد البطل ، الذي يقدم لها معرفة دائمة .. الخ) وفي كثير من المرات فان « طوطم » (TOTEMS) العائلة او القبيلة هو الذي يحمل معل هذا الخدم الذي يحمي البطل . كما أنه من الممكن ان تحمل بعض الاشياء العجيبة معل هؤلاء الخدم ، وهذا يؤكّد مرة أخرى الارتباط الوثيق بين الفلكلور والمثلولوجيا (MYTHOLOGIE) .

أما فيما يخص الملحمـة ، فيمكن القول إن هذا النوع قليل الانتشار في الفلكلور الأفريقي ، ويمكن رد ذلك الى أن ظهور الجنس الملحمـي مرتبط مباشرة بمستوى التطور الاجتماعي ، وبشكل بنية الدولة ويعوامل اخرى .. ففي الفلكلور السوداني الغربي عرفت الملـحـمة باعتبارها جنساً أدبياً شفهـياً في أرقى أشكالـها . وان الحكايات البطولـية والفروسـية موجودـة لدى الكثـير من شعـوب القـارة . لكن ، وحدـها الملـحـمة البطولـية ، (LÉPOPÉE HEROIQUE) هي التي عـكـست بشـكـل واضحـ موضوعـة مـلحـمة النـضـال ضدـ الـاعـداء ، من أجـلـ استـقلـالـ البـلـادـ والـشـعـبـ ، كما عـبرـت عنـها مـلحـمة « سـونـدـجـاتـاـ » (Soundjata) . تلكـ الملـحـمةـ البطـولـيةـ . « سـونـدـجـاتـاـ » بـطلـ وـطـنـيـ ، أـقامـ عـدـةـ منـشـاتـ ، وهـزمـ عـدوـهـ الـمـلـكـ . السـاحـرـ « سـونـجـورـ » (SOUMANGOUROU) منـ أجـلـ تـحرـيرـ بلـادـهـ وـشـعـيـهـ . وـتـعـدـ مـلحـمةـ سـونـدـجـاتـاـ منـ الـاعـمالـ الـادـيـةـ الـشـعـرـيـةـ الشـفـهـيـةـ الـأـكـثـرـ شـعـبـيـةـ فيـ جـهـوـرـيـةـ مـالـيـ .

يولي الكتاب الافارقة أهمية كبرى للفلكلور . وهم في الرقت نفسه

المتحمسون لجمعه ودراسته فهم الذين ينقبون عن الحكايات والخرافات والالفاز والأمثال والاغاني الشعبية .. الخ .. ففي الفلكلور يجد هؤلاء الكتاب الوسائل الغنية للتعبير والاسلوب ، بعد ان يشحذوها بمضامين معاصرة وجديدة . فتنمو داخل مؤلفاتهم ، بشكل آخر ، أشكال الخرافات القديمة والملاحم الشفهية . تلك التي راكمتها حكمة الشعوب منذ العصور .

وتعرف الحكايات الشعبية ، التي أعاد صياغتها الكثير من الكتاب الافارقة الكبار ، رواجاً شعبياً واسعاً ، ومن بين هؤلاء الكتاب نذكر : بيراكوديوب (BIRAGO DIOP) وسمبدين عثمان (SEMBÉNE OUSMANE) من السنغال ، وبرنارد داديه (BERNARD DADIE) من ساحل العاج ، وبنجامان ماتيب (BENJAMAIN MATIP) وإللونج ابني يوندو (ELOLONGUE EPANIA) من الكاميرون . وماكسيليان كينوم (MAXIMILIEN QUENUM) من بنين ، وأموس توتولا (AMOS TUTUOLA) وشينوا أشيب (CHINUA ACHEBE) من نيجيريا .. الخ .

ويظل الكاتب السنغالي «بيراغوديوب» الذي يكتب بالفرنسية ، أكثر الكتاب الافارقة استلهاماً لفلكلور أفريقيا الغربية بطريقة حساسة وبمتهى الدقة ، وتعد مجموعاته القصصياتان «حكايات أمادوكومبا» (DÁ MADOU) ، «الحكايات الجديدة لأمادوكومبا» (LES NOUVEAUX CONTES DÁ MADOU KOUUMBA) 1974 ، «الحكايات الجديدة لأمادوكومبا» (LES NOUVEAUX CONTES DÁ MADOU KOUUMBA) 1958 موضوعات الحكايات الشعبية الأفريقية .

وفي حكايات «بيراغوديوب» نلمس بعض الخصائص المحلية التي توجد في بعض حكايات شعوب العالم الأخرى ، وقد أشار الكاتب نفسه الى ذلك ، ولكن هذا لا يعني ان هذه الحكايات غير أفريقية غربية ، ففي هذه

الكتابات يكشف بيراغوديوب تلك الحياة التقليدية العربية في القرية الأفريقية ، بكل ما تشمل عليه من معتقدات وتقاليد أهلية . وفي هذه الحكايات يجد القارئ عالماً من اللوحات الفنية الخاصة بالدغل الأفريقي . وبين بيراغوديوب ، سبب تسمية كتابه بـ « حكايات أمادو كومبا » (LES CONTES D'AMADOU KOUUMBA) قائلاً : إن أمادو كومبا هو ذلك الشاعر الساخر (الحكواتي) ، وراوية العائلة . وإنه رمز الحكمـة الأفريقية ، فهو الذي روى كل هذه الحكايات ، . . . ويضيف بيراغوديوب قائلاً : إنه لم يفعل شيئاً سوى استذكار أقوال هذا الغريـو (الحكواتي) واعادة صياغتها وترجمتها الى الفرنسية .

ويعد الكاتب العاجي (من ساحل العاج) برنارد دادي (BERNARD DADIÉ) ذا شهرة واسعة ، في أفريقيا الغربية ، ليس كشاعر أو مسرحي أو ناشر فقط ، بل وكجامع للفلكلور . ففي سنة 1953 نشر بـ . دادي جموعته « الخرافات الأفريقية » (LES LEGENDES AFRICAINES) وبعد ذلك بستين ، أي في عام 1955 نشر كتابا آخر بعنوان « التنورة السوداء » (LE PAGNE NOIR) ، ومثلاً فعل بـ . ديوب ، فان برنارد دادي ، أكد في كتابيه على العناصر والخواص الإنسانية العالمية في الفلكلور الأفريقي ، وقد عبر عن ذلك في احدى مقالاته عن مفهوم الحكاية قائلاً : « ان الحكمة المختزلة في حكاياتنا ، تعادل حكمـة الشعوب الأخرى ». .

وقد اعتبر الحكاية ، عنصرا هاما في تدعيم الوحدة والشمولية ، وبالنسبة اليه فان الحكاية هي اكثـر الوسائل اهمية في ربط الانسان بالارض . لأن كل حكايات العالم تتلقـي جميعا في مفهوم واحد اخلاقي وانساني ، حول الخير باعتباره قيمة انسانية خالدة ، والشر كقيمة زائلة ، وفي كل حكايات الشعوب نجد ذلك التجسيد الحلمي للعدالة الاجتماعية والانسانية .

ويمكن اعتبار مجهودات بيراغوديوب وبرنارد ديدبي ، من خلال عملية استئثار الفلكلور كقيمة حضارية وايديولوجية وثقافية في اعمالهم الأدبية هي الخطوة الأولى نحو بناء آداب وطنية أفريقية قبل الاستقلال ، فاعمالها الأدبية جسدت من خلال الصورة الفلكلورية مجموعة من الافكار الثورية ، إذ انها جعلا الفلكلور في خدمة قضية نضال الشعوب الأفريقية ضد مستعمرها .

وفي ظل الحرب التحريرية ، كان الكتاب يكتبون بطولات شعورهم من خلال الارتكاز على موضوعات البطولة في الحكايات والملاحم الأفريقية ، وهم في ذلك يقومون بدعاوة الى صحوة شعورهم واستنهاضها ضد الاستعمار .

ومن خلال هذه العلاقة أدخل الشاعر والمسرحي الغيني « كاتيا فوديا » (KEITA FODÉBA) الفلكلور الى أعماله الأدبية ، فاعتمدت قصائده أسلوباً وشكلاً فلكلورياً ، إذ انها كتبت على شكل نثر ايقاعي او شعرى (PROSE RYTHMÉE) وهي تقرأ مصحوبة بالآلات موسيقية وطنية أفريقية : كورا - (CORA) وبلافون (BALAFON) وطامطام (TAMTAM) . لقد قرب كاتيا فوديا قصائده من أشكال الأغاني الشعبية تلك التي يغنيها الحكواتي .

وعلى هذا الشكل كتبت قصيده (الفجر الأفريقي) التي صورت بطريقة درامية مصير شاب أفريقي اسمه « نعمان » (NAMAN) ، كان يناضل في صفوف الجيش الفرنسي ، ولشجاعته فقد منح وساماً . وفي طريق عودته الى قريته الغينية ، حيث يتظره الأهالي بفرح ، باعتباره بطلاً أفريقيا ، يقتل غير بعيد من قريته على يد أحد الضباط البيض ، ومن هنا تحول القصيدة الى إدانة للعنصرية واللامعذالة .

وبالاضافة الى الشكل التقليدي الفلكلوري الذي تجسدت فيه القصيدة ، فإن كاتيا فوديا وظف في قصيده تلك الصورة التقليدية العريقة للباز ، وتمثلت القصيدة بتلك الصور التي تتغنى بالفجر الأفريقي وهي ترمي

إلى تأكيد أن النهار سيهزم الليل ، ومن هنا جاء عنوان القصيدة . وتبتدئ القصيدة بالفجر وبه تنتهي ، رغم الجُو المأساوي الذي خيم على القصيدة إلا أن نهاية القصيدة كانت متفائلة :

« ويطلع الفجر .. وفي أشعة الشمس الساطعة نشاهد بازاً جباراً .
إن رمز إفريقيا الجديدة .

وتشير توظيفات الحكايات الأفريقية القديمة انتباهاً كبيراً ، في حكايات سمبين عثمان SEMBÉNE OUSMANE وهو أحد أكبر الكتاب السنغاليين التقديرين . وهو كاتب متميز بنصه الروائي الذي يحافظ داخل خطابه على الثقافة الأصلية للأفارقة .

لقد جال سمبين عثمان في كثير من دول غرب إفريقيا ، لدراسة الفلكلور : مؤكداً على أن دور الكاتب المعاصر هام جداً ، بذات الأهمية التي كان عليها دور «الحكواتي » . في أفريقية القديمة . يقول بهذا الصدد :

« في غابر الأزمان . في إفريقيا الكلاسية ، لم يكن «الغريو» الحكواتي ». ذلك العنصر الحي في قبيلته أو عشيرته أو قريته . فحسب ، بل كان شاهداً صريحاً على كل واقعة . فهو الذي يسجل ، وهو الذي يطرح أمام الكل ، تحت شجرة النقاش ، كل أعمال وحركات كل واحد . إن مفهومي للعمل الثقافي ينطلق من هذه العلاقة ليقى قريباً من الحقيقة ومن الشعب . »

وبالنسبة لسمبين عثمان ، لا يعد الفلكلور حقلًا للدراسة الجادة والعميقة ، لكنه في المقام الأول ، ذلك الجزء الذي يجد حضوره واستمرارية وجوده داخل كل مؤلفاته ، وإن موقف سمبين عثمان من التراث موقف خاص جداً وأصيل ، إذ ما يهمه في الحكايات الشعبية هو ذلك المضمون الاجتماعي . وبذلك بدت توظيفاته للفلكلور أيديولوجية أكثر منها فنية ، فهو يبدع حكماً مجازية تتصل مباشرة بالواقع ومشكلاته المعاصرة .

أما الكاتب النيجيري الكبير (شينوا أشب) (CHINUA ACHÉBE) والذي يكتب بالإنجليزية (ANGLOPHONE). فقد وظف هو الآخر بشكل واضح العناصر الفولكلورية في مؤلفاته ، ففي روايته الأخيرة (رمضان الإله) LA FLECHE DU DIEU يعرض الروائي مشاهد كاملة تتصل بالاحتفالات الطقوسية التي ترتبط بالفن الشعبي الشعري او الاسطوري ، وإذا الرواية مليئة بالحكايات الشعبية والأغاني والأمثال والأقوال المأثورة (DICTONS) والتغرييات السحرية ، كلها منتظمة داخل سياق الحدث الروائي . ومن خلال ذلك كان شينوا أشب يهدف إلى مزج المادي بالمعنوي (المعتقدات) ، وعبر هذه الوحدة يتجلّى الموقف الأيديولوجي للكاتب . ذلك الموقف الذي يدين الجشع .

لقد كان الكاتب بتوظيفه الفولكلوري يزع إلى إداء دور تربوي وأخلاقي (أيديولوجي) . وهذه الموضوعة معروفة في الفلكلور الأوروبي « لنتذكر من ذلك : الحكايات الروسية « بير - جيل الصغير » LE PETIT PÉE — GEL و « الاثنا عشر شهرا » LES DOUZE MOIS) او الحكاية الفرنسية « الجنستان » LES DEUX FÉÉS الخ ..

إن العناصر الإنسانية هي وحدها تستحق الشرف والاحترام والمكافأة : الطيبة ، الشجاعة ، احترام العجزة ، الإنسانية ، لكن الشر على العكس من ذلك يجب أن تنزل به العقوبة والعقاب .

*) عن « آسيا وأفريقيا اليوم » العدد 5 ، سبتمبر - أكتوبر ١٩٧٩ .

شِعْر

قصائد حديثة

من إفريقيا

نفحات شعرية من إفريقيا

قصائد للشورة الفلسطينية

روجيه غوتزومو

مختارات من شعر الـ ٢٠٠٠

ليوبولد سنغور

قصيدتان إفريقيتان

ترجمة: محمد موفق النبوي

ترجمة: بشار بشار

ترجمة: سعد حاتي

ترجمة: جمال شعبان

ترجمة: مورين جلال



ترجمة : محمد موفق الشرع

كايرن منسا :

ولد الشاعر الكبير (كايرن منسا) في غانا عام ١٩٢٣ ، درس العلوم في جامعة كامبريدج ، ثم درس التعليم في لندن ، عمل مدرساً لبعض سنوات في لندن وبوون حاز عام ١٩٧٠ على جائزة المارغريت الأدبية لمجموعاته الشعرية .

ترى مجموعاته تغيراً في امزجته ، ويتحول شعره بعذوبة موسيقية واقعية نحو الواقع وبالعكس . كتب عن افريقيا والشعور الوطني ، واكثر ما ميزه به و . ر . دارثون قابلية الرائعة في استحضار المرئيات ونفحها بطريقة مثيرة .

« امحق الكره بين الاجناس »

« Destroy the Hatred
between the Races »

امحق الكره ،
ودع الانسان :
الا اذا كان الاثنان . متطابقين .

اقتلع هذه الجريمة
بين انسان وانسان ،
واطرحها في الشمس .

كي لاتنتب جذورها ثانية ، احرقها كلها ، واذا
استطعت ،
انس ماسبيته من أذى .

« لتكن »
« TO Be »
الحقيقة افعى متباوونة
تتحرك في غور حديقة .

تنسل خفية تحت الاعشاب ،
خوفاً ، او لمبة ،
بينما نمر بها دون انتباه ودون حذر .

لكي نعيشها ، يجب ترويضها
عمل مخادع محفوف بالمخاطر
به يكون الموت ثمن الرعب
والنصر جائزة الحياة .

الولادة المحتضرة

« Dying Birth »

الموت عندي
هو أشبه بالذهاب الى الخارج في عطلة
وإذا كان الموت لا بدّ مدركي
فأتمّنى لو استطعت ان اخطّط له . . . وان أعد العدة .
كما كنت سأفعل
إذ اتعلّم نحو السعادة
في مكان ما ، فوق بعض الرمال الباردة ، تحت الشمس
عرضة لريح منعشة مضمحة بصدى البحر
مع صديق
بعيداً عن المدينة حيث يبدأ النحيب .

« ثمن الاسم »

« The Price of a Name »

فراش ، نظيف ، دافئ ، مرتب
لليلة شتاء . . . وحيدة ،
ووجه لطيف او اثنان ،
هذا كل ما احتاجه هنا
في هذه المدينة .
بالأسف
ما أدفعه الآن سبعة اضعاف

من أجل ليلة قاسية في هذا الفندق
مع جبهة من ورق بدلاً من وجه
لقد دفعت من أجل اسم . اسم ؟
نعم ، كلنا يفعل هذا .
اذكر أي اسم مشهور ،
قل لقد قال ذا وذاك ،
عن الفن ، عن الحب ،
عن السياسة وأثار المخدرات
عن الحبوب أو عزيمة الكفاح ،
وحالا نهض
لنستنشق الهواء
نُبهر بعقب الاسم ، نشتري
أية نهاية بأي سعر .

« افتراض »

« Suppose »

« افترض . دعنا نفترض »
هكذا بدأ كل شيء .
هكذا تبتدئ الاشياء .
هكذا ولدت قوانيننا ،
ولهذا توجت الفلسفه .
هكذا رسمت الخطوط ،

هكذا تسلقت الاسلال الشائكة الجدران .
لتبقى عرقنا مقسماً .
بساطة ، واستقامة ، ومنطقية
من تلك الخطوة آلاف الاميال .

أيمكن - ولو على سبيل الافتراض -
ان نرى من الجذر حتى الزهرة .

« السنون الضائعة »

« Lost Years »

قضت شبابها
تعلم كيف تطهو
وعرفت الآف الاطباق ،
ولكن الرجل الذي تزوجته مؤخراً
يتناول الخبز والحليب فقط .

بيضة

« An Egg »

أنت
تمسك
بشدة مسرفة
تسحق
 بينما ينبعي
 أن ترى فري
 بيضة
 تصلح للأيدي
 الناعمة
 الثابتة

 لا

« Donit Worrg »

حبي كضوء شمعة
 في ليلة معتمة
 ولكنها سالمة كما تسلم البيضة
 في كوم تراب النمل⁽⁺⁾

(+) مساكن النمل : يبني النمل أكواماً من التراب الناعم ويصل طولها أحياناً ثلاثة أمتار . وتأخذ شكلاً مخروطياً .

غابرييل اوكارا

ولد اوكارا عام ١٩٢١ في (بومودي) ، نيجيريا .
درس الصحافة في جامعات امريكا .
بدأ كتابة القصة عام ١٩٦٤ ، وفي عام
١٩٦٧ ظهرت اول مجموعاته الشعرية في كتاب
(اورفيوس السوداء) .

« بيانو وطبول »

في مطلع يوم بجانب نهر
أسمع صدى طبول الغابة
نغم روحي ، مثير ، دام
كبدن ينづف ، يخبر عن بداية الفتوة الاولى ،
ارى الفهد متحفزا للانقضاض ،
النمر يزجع على وشك
الوثوب
ويربغ الصيادون بسهامهم الموجهة .
وتخر دمائي ، جارفة ،
تطيع بالسنين ، وحالا انا
رضيع في حجر امي ،
حالا أمشي ببساطة
مسالك لا جديد فيها
وعرة ، وشديدة الالفة مع الدفء العاري

للاقدام الهازعة ، والقلوب الضالة
في الاوراق الخضراء والزهور البرية النابضة .
ثم اسمع نحيب بيانو
يتحدث منفردا في سبل معقدة
كونشيرتو
يتغصن بالدموع ،
لمواطن بعيدة
وآفاق جديدة
ذات ألحان متزاوجة ، متضاربة ، متألفة .
يضيع في متأهات تعقيداتها
يتوقف فجأة في منتصف مقطع
تحت تهديد خنجر .
وأنا ، أتوه في سديم فجر
بمحاذاة نهر
أهيم بايقاع نغم متتصوف
بين طبول الغابة والكونشيرتو .

« PIANO et DRUMS »

by : GABRIEL Okara

سيبير يان ايكونزى :

ولد سيبير يان ايكونزى في مدينة (مينا) ، شمال نيجيريا عام ١٩٢١ . درس في ابادان ، غانا ، وتخرج من جامعة لندن حيث درس الصيدلة ، وأخذ بتدريس مادة الكيمياء في نيجيريا .

اصبح فيما بعد مدير ادارة في وزارة الاعلام . كتب قصصاً للأطفال ، والف قصصاً قصيرة وبعض الأشعار . كتب قصيده « فتيات اللاugas » عام ١٩٦٦ - وصدرت في كتاب ايسكا .

« فتيات اللاugas »

المدينة فتاة تنهادى

تنهادى مع بزوغ الفجر

حقيقة يد فوق ذراعها

تنحدر جائعة .

تسير ظهرا

توق مفعم بالحيوية

تسير في الغسل

أساور متلائمة

بعمال وكبر ياء .

المدينة فتاة تنهادى

دوماً تنهادى

دوماً تخطط

دوماً تتسلق

نحو قمرة الطيار

تسلق مسارح الاحداث
لتعترش الاعالي
حيث تستطيع الفتيات فقط الاعتلاء
من يقدر على تجاهل
فتاة جلدتها لامع في الشارع
كاملة الزينة ، من شعر رأسها حتى طلاء أظافرها
رأس مرفوع . . . وصدر مشدود .
كفل مهتز بدلال معذب .
عينان تتأرجحان بتحدد ، ياويلي منه . .
تبدو وكأن العالم لها
والمدينة مرفاها
فالفتيات دوماً يتهادين
يفسدن حركة السير
يقلقن المكاتب
يناشدن وجوه الرجال
من خلف نوافذ العمل
يهيجن المشاعر
يستدعين الاهتمام
في افريقيا التي هي بلد الرجال
المدينة فتاة تتهادى . .
دوماً تتهادى

by : Cyprian Ekwensi

« The Girls of Lagos »

عن كتاب ايسكا
الكاتب : سيبيريان ايكونكري

ادبيايو فاليفي

شاعر من قبائل الاليوربا ، جنوب نيجيريا . اختصاصه الرئيسي في الفولكلور النيجيري . نالت قصيده الشعرية « الاستقلال » الجائزة الأولى للأدب الاليورباتي في مهرجان نيجيريا للفنون عام ١٩٥٧ .

« الاستقلال »

لا شيء عذب .. مثلما هو الاستقلال
انه ليوم عظيم عندما يشتري العبد حريته
عندما يستطيع العبد ان يذهب بجلب الماء
ولن يقول له أحد : أتيت متأخراً !
عندما يجلب حطب الوقود
ويستخدمه لطيخ طعامه
حين يستطيع العبد ان يحضر الى بيته بعض اليام (١)
كل يوم ، وهيء منه وجنته
عندما لا يخدم العبد أحداً ،
بل يخدم نفسه فحسب !
أي يوم ذاك ، حين يستيقظ العبد ليرتاح لا ليذهب
لمزرعة رجل آخر !
حين يبدأ العبد بزراعة مزرعته لحسابه الخاص ..
أربعمئة وعشرون صفا من اليام !
حين سيزرع الذرة وينقب اليام .
حين يبيع محصوله ويستفيد من ثمنه مع عائلته .

سوف لن يعمل بعد ذلك دون ثمن .
ولن يضيع شيخوخته في خدمة الآخرين .
سيتهج العبد ، يتهج ويتهج ..
سوف يقفز في الهواء ويصفع على جسده بيديه .
سوف يعني أغنية ويقول :
ساعدوني ، فأشكركم . أنا محظوظ .

ان الانسان الذي لم تكن حياته يوماً مرتئية
لا يعرف مشقة العمل قبل بزوغ الفجر .
الانسان الذي لم يكن .. يوماً عبداً
لا يعرف مشاق صبي الاسطبل
لن يعي ابداً ما معنى ان
يمسح الندى عن أوراق الأشجار ف الصباح
ويبقى في المزرعة حتى ما بعد الغيب - يقطع اليام .
في الفصل الجاف أو الماطر ..
لامناص من ذلك
قد رأت عينا العبد أشياء كثيرة .

اذا كانت حياة الشخص مرهونة وكان طويلاً بطول شجرة
الاوغن^(*) في سوق الملك

اليام : نبات ارضي ، يشبه شكله الخارجي جذع شجرة ، وطعمه كالبطاطا
الحلوة . ويعتبر غذاء رئيسياً وعاماً عند الشعوب الافريقية .
شجرة الاوغن : شجرة فارهة الطول .

سيبقى ضئيلاً ككلب قزم في عيبي سيده .
ولو أن العبد كان مهترئاً كعصاة قديمة .
وأجرب ككلب عجوز وضعيف .
سيبقى أبداً سيداً .
قد رأت عيناً العبد كل شيء !

ليس هناك اليوم الذي خدم فيه الفيل الظبي
أرسل الظبي الفيل إلى النهر
ضرب الظبي الفيل
شم الظبي الفيل على الجسر
ذكره بأنه غني ، ولذلك قدر على امتلاكه .
لكن الفيل قبل العتاب بود .

قال الفيل : هذا ليس لأنني أحمق ،
أو لأنني لست راشداً .
لو أن العبد تحرك بانتباه ،
سيكون قادرًا على شراء حريرته بعد وقت طويل ،
طويل .

لم يكن الوقت متأخرًا للفيل
كي يشتري نفسه حرام ويصبح قائد الحيوانات .
دعونا ننفصن عن الآلام بصبر .

نقتل الحشرة على جسدهنا بلطف
لتتأهب جميعنا لشراء أنفسنا وعتقها
فنحن مايزال لدينا الأرض ، ولدينا المعاذق .

لدينا اشجار الكوكا ، والموز .
لدينا نواة النخيل والفول السوداني .
لنقاوم ، علنا نستطيع حرث مزرعتنا .
لننجو من العبودية والارهان .
ليصبح جميع شعبنا احرارا .

مترجمة عن لغة اليوربا

الشاعر : Adebayo Faleti

أغنية حب

هشة كالزجاج ، فتاتي ،
أولمستها ستنكر .
فلا تقترب كثيرا -
هنا مكان خاص جدا .
تحت ثديها الايسير ، في راحة كفها .
ووجدت بصماتي - أماهي فتركت بصماتها في وجهي ،
بصمات خاص ، ولكن على ملا
يعني الاسى جالها ، وتتنفس ندوتها سحراً .
والآن ، لا أمتلك منها شيئاً
سوى زمن مكسور من جيدها .
لكن ، هل ستتركني يوماً ما حراً .
ان مرآة نفسي مقيدة

بنظرتها الغامضة المؤذية .
وجسمها الجميل المفعم بالأسرار .
أوه اياك والاقتراب
فهنا مكان خصوصي جدا ،
إن ما أبكيه هو المرأة الغادرة
التي تقدم صورتها من خلال وجهي

C. J. DRIVER الشاعر :

« Elegies of Light » : « A Lov Song »

(تأملات في النور)
س . ج . درايفر جنوب افريقيا



نفحات شعرية من أفريقية

ترجمة: بشار شار
مراجعة: الياس بدوي

توق

اشتد يانشيدي الموجع
ويحزني
على الكونغو وفي جيورجيا
وعلى أنهار الأمازون

اشتد
يا حلمي بالرقص الأسود
في الليالي التي اكتمل قمرها

وليشتَّد ساعداً ي
ولتشتَّد عيناً ي
وليشتَّد صراغي

وليشتَّد الظهر الملتهب بالسياط
والقلب المهجور
والنفس الغارقة في إيمانها
وليشتَّد الشك
قاسية أناشيد ي
على أحلامي
على عيني
على صراغي
وفوق دنياي المنعزلة
علق الزمن

النداء

الشاعر : يوحنا ميتيا

لست أخشاك فقلبي ناضج ،
سامضي للقائك ذات مساء ، هناك
على قمة رغبتي ، خلف سور
النهار البشري ذي الأنوار الجديبة .
لست أخشاك ، فأنت وعدى

كما شمس الصباح هذا المساء
في أعماق نفسي افتح الأجناف ،
وأجعل بهجتي في احتضان قدرك .
تعال ! فإني اعرف الرنة الطويلة
هذه الخطوة التي أصغي إليها بارتعاش ،
تعال ! فقد احتفظت لك بصمتى النقي
الذى أعددته بالمشقة والعرق ،

تعال ! المكان هنا نير لأننا نسمع
ها هو الباب مفتوح والنافذة !
وعلى عتبتي توقف الزمان
أيها الأمير ، كل شيء جديد ويمكنك الظهور !

ما هم أن أكون جيلة وحتى طيبة ،
ما هم أن أكون أهلاً لاختيارك !
يكفيك أن أكون لك ما يحب ذاته
يكفيك يا حبيبي أن أكون لك

هل أنت لي هذا الطريق الطويل الذي يسلكه قلبي ؟
هل أنت لي العصفور المرهف الذي ينساب في البعيد ؟
هل أنت لي البلد المظلم ، الكثير الوعود
حتى انتخبت ، في العشية العذبة ، لحاجتي إليه ؟

تستطيع أن تأتي ، تستطيع ، فإني أؤمن بمعجزتك
ألاست منذ اليوم الأول قسمتي ؟

آه ! إني أنتظرك كأنها بفعل وحي الآلهة
أنت ، يا أنت ، إني أحمل صورتك في نفسي ، بعيداً في نفسي !
أيها الأمير ، عندما تأتي من الهضاب الضبابية
بتهم خطو الذين يهبون ذواتهم دونها رجعة
حينذاك تفيض ينابيع الوديان
أيها الأمير ، عندما تأتي ، سيكون ذلك على الدوام !

أيها الأمير ، عندما تأتي سيكون الأمان في الأرض
وتتهاوى البساتين تحت وطأة النحل
أيها الأمير ، عندما تأتي تنضح ثمار المانجا
وتنسج أخواتي سللاً واسعة ، وهن يغنين بصوت خفيض .

أيها الأمير ، عندما تأتي ، سيكون جسدي روحه
وسأتعلم بهجة الفراشات
وسأعرف لماذا ينحني نبات الainiam
برأسه على الدعامة في الأثلام الخصبة .

أيها الأمير ، عندما تأتي ، سيكون قلبي الجرة
المفتوحة بملء حوافيها لطوفان العسل !

حينما أفكِرْ أَنْكَ آتَ يطْبِيشْ أَمْلِيَ الْمَجْنُونْ
يَارَسُولَ الْحُبِّ الَّذِي يَحْمِلُ إِلَى السَّمَاءِ !

أَيَّهَا الْأَمِيرُ ، عِنْدَمَا تَأْتِي سِيَضْحِي الرَّجُالِ طَبِيبِينَ
فِي الصَّبَاحِ الْأَبْدِيِّ ، وَتَضْحِي النِّسَاءُ جَمِيلَاتٍ ،
وَتَمْتَلِئُ عَيْنَا الشَّيْخِ بِالْغَفْرَانِ ،
وَيَصْفَقُ الْوَلَدُ بِيَدِيهِ فِي ضَوءِ الْقَمَرِ الْعَائِدِ !

أَيَّهَا الْأَمِيرُ ، عِنْدَمَا تَأْتِي ، سَتَنْفَتَحُ الدُّرُوبُ
الدُّرُوبُ الَّتِي تَمْضِي كَيْ لَا تَعُودُ . . .
وَسُوفَ أَعْرَفُ الْمَرْحَلَةَ فِي ظَلَالِ النَّخِيلِ
وَيَسْتَهِي مَنْفَايَ بِهَا أَنْكَ سَتَكُونُ هَنَاكَ !

أغانيات للصيد

الشاعر : أونيسيمو سيلفيرا

فِي حَلْقَاتِ الْمَسَاءِ
كَانَ أَبِي يَقْصُّ عَلَيْنَا حَكَاهَاتِ مَدَنِ جَائِعَةِ
فِي كُلِّ الْأَمْسِيَاتِ الَّتِي لَا نَجِدُ مَا نَأْكُلُ فِيهَا
وَالْأَمْسِيَاتُ بَعْدُ أَيَّامِ السَّنَةِ

فِي حَلْقَاتِ الْمَسَاءِ
كَانَتْ أُمِّي تَعْدُنَا بِقَمْصَانِ جَدِيدَةِ

لعيد أيار في سلامنسا
وقد قطعت أمي وعداً
بقدر القمحصان التي لم تستطع اعطاءها

في حلقات المساء
والبطون تتنفس بالديدان
كنا ننشد متحلقين
(هات أيها القمر مغلياً
نعطيك حليباً)
أوهام عبيد يظلون أنهم تحرروا
أوهام أطفال يظلون أنهم يخدعون القمر
إن سفينة النخasse هنا
إن سفينة النخasse هنا

«الغونغون»

الجزيرة تموت نهاراً من جراء المجاعة
- وفي كل يوم
الجزيرة تنهض في الليل من أعماق النسغ
- وفي كل ليلة
يا أصوات قيثارات نائحة
يا أصوات أنانات مبعثرة
ما عساك تروين للنجوم

الأداء تنهك
والعضلات تحتاج
فماذا عن المهد ؟

أيتها الأصوات السوداء
يا أصوات اقنعة تشطّبها الآلام
إن الحياة تدعوك للانشاد على الأرض
على الأرض
على الأرض
على الأرض

سنكون حاضرين

كنا نعيش
بسطاء
مسلمين
منذ فجر الزمان
كنا أخوة جياعنا
وكانا نأكل ثمارنا
ونشرب ينابيعنا
ونستنشق هواء أريافنا
كنا نعبد آهتنا
وننشد ونرقص
في ضياء القمر

كنا نعيش
بسطاء
مسالمين . . .

وذات يوم
نزلت إلى شواطئنا
أسماك القرش

وانتهى السلام
والأنشيد
والرقصات

لقد انقضوا على أخواننا
كالصقور

لم يكتفوا
بالمحيطات والأجواء

كان لابد أن يستولوا على أراضينا
لماذا ؟

لماذا يا ربِي ؟

كانوا يملكون البندقية
ويملكون الكحول

ويملكون قبل كل شيء
الكذب والكراهية . . .

لم تفهم أراضينا
فانتزعوا
أشقاءنا
وشقيقاتنا
وابناءنا
إلى قارات أخرى .

كان علينا أن نزرع حقوقهم
ونملاً صناديقهم
ليدفعوا لنا

صنوف المذلة
والعنف . . .

ولكن كان ثمة « توسان » !
وكنا نحن أبناء الشمس
نحتفظ بأمل
حياة أفضل
وكنا نغنى
ونرقص

مع شعاع الآب
كما هي الحال في إفريقيا
في حضورنا وساحات غاباتنا .

كان لنا قلب من ذهب
في غاباتنا وساحاتها
وعلّمناهم
الإيقاع والألحان الدافئة
التي من بلادنا .

فالزنجي ما أشدّ كرمه !
ولكتّهم غنوها
وياسو الغناء ! . . .

إننا الآن نطوف
العالم أجمع
بطبولنا
ولذة الحياة فيما .

إن صحّكاتنا لا تضاهى
لأنّها صافية صريحة
لأنّها نقية جميلة
لأنّنا ذوّو أسنان قوية بيضاء

أيدينا ليست
فارغة

سنمضي إلى موعد
القارب الخمس
بأناشيدنا ورقصاتنا
بأفئدتنا المتقدّة
صداقة
وطيبة
وسلاماً
نحمل معنا أصالة
ثقافتنا .

ولن ينقص إصبع واحد ، لا
لن ينقص إصبع واحد
في اليد النورانية
التي ستحمل مشعل
الكلي

افريقيا المظلمة

أعشق أيام الزمن الغابر
كربيات أيام الفضيلة والعفة

حينما كان يعيش رجال ير وعون
وحيوانات جامحة
في تناغم وثيق .

إني أعيش أفريقيا في ذاتها
أفريقيا الأصيلة ذات الجلال
لؤلؤة الماضي النفيسة
ما كانت مواطن جمالها قد تفتحت كلها
ولا يجدت مواطن سحرها كلها
في أيام الزمن الغابر .

ولكن أعيدوا إلى أفريقيا تلك
بأفضل ما فيها وأسوأ ما فيها
ودعوني حراً في إعادة خلق
أفريقيا الله العظيمة
المزданة بسحر الأيام الماضية .

ولكن هبوني إلى ذلك ،
وقد جاءت من بعيد البعيد ،
قوانين « فاراديه » الخصيبة .

هبوني كل ذلك
ومن أفريقيا هذه التي تاهت زمناً طويلاً

سينشق كما العنقاء
عالم جديد اسمه افريقيا

حينما كانت الرؤية قصيرة والمعارف بسيطة
دعاني الناس « افريقيا المظلمة »

« افريقيا المظلمة » ؟
أنا التي رفعت الأهرام الملكية
وأمكنت في إسار سحرها
مصالح القياصرة الفاتحين ؟

« افريقيا المظلمة » ؟
أنا التي هزت سرير طفولة
الحضارة المتعثرة
على ضفاف النيل الشارد ، النيل واهب الحياة
وقدمت لجمهرة الأمم في الغرب
هدية يونانية !

إن بريق الحديد والفولاذ المبهر
قد يحجب أحياناً القيم اللامادية ،
وحينما ازدريت قوسي وسهامي العتيقة
غير آبهة بالحديد والفولاذ
سموني « المظلمة » في العالم كافة .

ولكن ما يسمو ثمناً على الفولاذ البارد والحديد
هو فن الهدوء والطمأنينة
في التفكير المشترك
والعيش المشترك !

أني اعرف عالماً
عالماً ديس بالأقدم
محظى العظام مرتهناً
عبر القرون الطامعة
وهو بعد لم ينجز
إنه أفرقيا

العالم الذي يولد
ويستفيق الآن
من غفوة طويلة طويلة
يفور بالقوة

التي تلي الراحة
هو أفرقيا

أني اعشق عالماً
عالماً لا يقدر بثمن
والموطن العذب للأنغام

التي تأسر النفس
ولأصوات الطبول الحادة كالحرب
إنه افريقيا

سوف أموت في سبيل عالم
عالم رائع
وليس من أرض
في الشرق أو الغرب
تجتذبني بقدر ما يفعل
إنه افريقيا » .

الحرية ، الحرية يانفسي

الشاعر : راي أونزا (جونبور)

عيوننا فظة
تلك التي تقول لنا إن الناس بيض
أو صفر أو سود
وانهم أغنياء أو فقراء

في حين لا يبلغ الفؤاد
سوى هذا السائل المبعث من
كل كائن بشري والذي يدعونه
الحب
حب الحقيقة

والجمال
والعدالة
والحرية
يعني حب القريب
والفرد في حد ذاته
والانسانية بعامة
لأنه الله
وبالتالي القانون
والخلق .

ليس ذلك اليوم بعيداً
ذاك الذي يبصر فيه قريبه
لابعينيه الفظتين
بل بفؤاده الحساس
المستنير بضياء سلطان فكره الرائع

وإذ ذاك لن يبقى بيض
أو صفر أو سود
لن يبقى فرنسيون
وسويسريون وألمان وامريكيون
وعرب وروس وبابانيون
وانكليز وصينيون وفارسيون

وأفارقة
بل بشر فحسب

ولن يبقى أغنياء أو فقراء
بل كائنات مفكّرة تحرّرت من الفاقة

لن يبقى « متمدّنون » أو « متواحشون »
بل أخوة كلهم متضامنون
تتكامل إنجازاتهم
ويسيّمون في رفاه الجميع

ولكن لابد لذلك
من القضاء قضاء مبرماً على آفة
الجهل والفقر

وأن لا تظلّ سعادة الفرد ملكاً له وحده
بل سعادة الجميع ؟
وأن يتمنى كلّ لقريبه
ما يرغبه لذاته على الأقلّ

وبعدما تتجاوز مرحلة التمنيات
إلى مرحلة الإنجازات
ينبثق مجتمع جديد

يغذيه النسخ المنطلق من كلّ منا
ويوفر لكلّ واحد وللجميع
أساس السعادة التي يتوق إليها
كلّ منا ،

يعني
الخبر والتعليم
أي الحرية
حرية حرية ياهواي
حرية يانفسي ويقلبي
حرية ياحياتي
حرية
لا في الاختيار المحدود
لحدود
ومعتقد
ولون بشرة
بل تأليف يوحّد الكون بأسره
في كلّ لا ينفصل (*)

(★) - القصيدة طويلة ، وقد جرى الاكتفاء بهذا القسم .



المنفي

لقد شئت يا اخي ان تعلم
 من أين أتيت
 انا المنفيُ الكبير في هذا العصر
 انا من يحوب العالم أجمع
 وحب الوطن كامن في متناعي .



أنت تعلم باني اتعثر
وان روحي ممزقة
وقلبي جريح
وأني ولدت مقصيًّا عن وطني
ولدت في الصباح الباكر
في أنائي مكان من غاب مضياف
تظللني خيمة صُنعت من اديم معزى .
إن وطني يدعى فلسطين
وسأعود اليه بحَجَرة الطواطم^(١)
كيماء ابني ثانية قريتي
التي دكتها الصهيونية .

■

انا يا صديقي جندي فتى
أبصر اموراً جمة
في لغة النار
لذا ينبغي لنا أن نظل معاً
في ملتقى نضالي الأسمى
كيماء نحتفي وشيكًا
بنصرنا النهائي !

(١) Totem حيوان يعتبر ذا صلة خاصة بفرد أو بقبيلة فيتخد بذلك رمزاً .

قصيدتي المفضلة
(الى فتاة فلسطينية)

سأنظم صباح الغد
قصيدتي المفضلة
ولاني أبحث . . .
أبحث عن حلقة رقصات المقاتلين
أبحث عن ابتسامة فلسطين
تنسم على شفتي حبيب قوي
ولكنني منذ الآن اغرق الفكر فيها . . .
حين أراني
يوم ذكرى السنوية البهيجية
مُثقل الذراعين بأطواق الماسية
أنشد لك على أوتار
قيثارة مفتونة :
« يا يوم الحرية ، يا يوم النصر
يا يوماً فلسطينياً . . .
يا يوماً أسمى
يا يوم الشموس النقية »
وأتابع قصيدتي
على ايقاع نضالك المشروع
كبيها تحقيقي حلمك القديم
تحت قوس نصر القارب كلها ! . . .

فلسطين المجيدة

من يهزم بالغناء في وجودي
في زمن النضال الأسمى هذا
إن لم تكن فلسطين المجيدة
فتبسيط الأغنية في روحي
حتى غروب المذيان .



إن فلسطين الشامخة في اللهيـب
العنيدة في الكفاح
تُلْصق بآفاقـي
أمل وطن أم يزحف به برـكان
ذو حـمـمـاً اصـلـيـةـاً .



وإن الدم المراق على درب وحيد
ليكشف لي عن أمور
عن ظلال تائهة فوق شاشة الـأـزـمـانـ
في هذه الدنيا . الدم المرتشـف بـمـرـارـةـ
في شـرـابـيـنـ النـصـرـ .
ماذا فعلتم بالأـصـبـاحـ العـذـراءـ .
أـصـبـاحـ أـطـفـالـ فـلـسـطـينـ
أـنتـمـ يـامـنـ تـصـبـونـ

اطناناً من الشقاء
فوق قلبي وشمسها .

■
ويا أيها الشعب المقاتل
إن اغتيتك في اللهب
 وإن مرقدك في اللحم المحترق
لألاف الشهداء
المتساقطين من أجل شواطئك .

■
فأثبتْ لبنيك
أن الحب في درب الشرف
نبض امرأة وفيّه
في سُمْت غضبك العتيّ .

■
وعلى كنوزك الوافرة
التي هي ارضك ورجالها
أفضل بأغانيك الحلوة
كيميا يهلك إلى الأبد
الجفاف فوق شفتي حياتك ،
أنت يامِن يقاوم
سنابك خيول القراصرنة
أنقذني من هذه اللغة اللاهبة

التي ستجعل مني
توأم الوليد من دمك المراق .

■
وافلسطين الترملات التي لا عداد لها
فلسطين التي تغطيها الجراح
هلا أرهفت سمعك الى هذه الصرخة العميقة
المنبثقة من شاعرك ، وحارس سلامك ؟

■
إنه ليتمنى أن تغدو إرادة تحريرك
باباً مُشرعاً على مشرقِ
رببي أطياف ومباءات نحل ،
وأن تجعلني من انسياقات دمك
لهمّاً قوياً لمقاتليك
في آتون هاجرة الشمس ،

■
إنه ليتمنى أن تنصبِي رادارتك^(٢)
في خبايا حضورك
وأن تفوه في كل اللغات
باسم قصيدة السلام الفرحة .

(٢) في الأصل : Radars وهي اجهزة تحديد وجود الشيء وموقعه بواسطة اصدار

الموجات اللاسلكية .

مرة واحدة

مرة واحدة أطرح سؤالي على عروس شعري
كبيها تفسر لي ظاهرة
مرة واحدة أضع بين يديها عصا
بعذوبة من كرمة محترقة .
حقاً إن لدى
قصة واحدة أسردها ،
باباً واحداً أفتحه
قصيدة طويلة أنشدها - واحدة
وبلبلتي ، ويوم واحد
لصبي واحد -
روح ممزقة واحدة
في سبيل حُكم شيطاني - واحد



مرة واحدة

لصبيّ وحيد لا يظلله سقف
مرة واحدة
ابتغى أن اعلن انتصار
الثورة الفلسطينية .

يقين

لأفتاً أعمل الفكر
في بشعارات هذا العالم المهرم

المتكمي إلى كتفي الواهتين
وقد علمتني أمي
أنني لكي أمضى نحو السعادة
عليَّ أن أهوى الأرض وبنها .

■
ألا إن السعادة تأتينا
لآلئ متعددة الألوان
وعناقيد نقية
على خط النضال نفسه
تأتيك تباشير الضياء ثم يحل الليل
وتعود البهجة التي نبدعها
فتموت في أيديكم
وتنقلب الابتسامة حنيناً .

■
ألا إن بنيك يا فلسطين سيف وبون إليك
حاملين رسائل ودمى فضية اللون
سيعودون إليك أية الوطن البطولي
أيها النجم السندي لألف وجه محفور
وليتتصر الحب
الذي وحدهم حول صدرك .

ولدي !

مضى آباءك خلف البحار
فترجموا منفاهم في جميع الرياح
كيم يمجدوا هوية الوطن
أما أنت : فلو عرفت ان تفكّر
ما انسحقت بالملطر .
لوعرفت أن ترصد .
لاستطعت باولدي
أن تحظى بالترحيب بك كبطل .
فاسحذ إذن اسلحتك المزدوجة
واجعل من نفسك مقاتلاً عظيماً
ثم سرم مع عهود حياتك
وحتّ خطاك كيم عبر المحيطات
وتتسحق الوحش وشهواتها المتعددة الاشكال
فستتبعك حقائقك
ثم تقود خطاك ! ...

أنتم

أنتم يامن تدركون
أن خبز الحرية
يحمل في مذاقه
علة حياة الوطن .



أنتم يامن تعلمون
أن الصبي يظمأ
إلى عقود ياسمينة
إلى الريح الاليفة
كيميا يُنهي مسيرته الطويلة
نحو الوان الشمس المتنوعة .

أنتم يامن كان في ميسوركم
أن تنقلوا في حقائب خزفية
كامل العدالة الضرورية
لإيذان بالفجر القريب .

أنتم يامن كان في مقدوركم
رغم خداع الوحش واوهامها ،
الوحش التي لارأس لها ولا ذنب
أن توّقعوا على حقوق مولدهم .

أنتم يامن تدركون
كما ندرك نحن بدورنا
انه لن يكون ثمة سحرَة
في ميلاد احلامكم

أنتم يامن القيتم

في آفاق اليقين الأربع
إياءاتكم الملؤنة بقوس الجسد

أنتم يامن تعلمون
أن جميع الغاصبين
سيهلكون وشيكًا
في آتون محظوراتكم

أنتم يا من اغتلتם
جميع تجار الغش
في سبيل حقوقكم الكاملة
في ثوب من ضياء

أتري اعوزكم السلاح
كي تصرعوا به وحوش الشواطئ الصامتة
أنتم يامن تمضون بسرعة العواصف
تحملون حقائقكم للشموس الحقة ؟

المصدر :

Roger Goto Zomou :

(1) Poèmes Pour la sevolution Palestinienne — 1978

(2) Temoignages ELoquents Poèmes — 1978

(وقد نقلنا هاتين المجموعتين الشعريتين الى العربية)



مختارات من شعر الرئيس

ليوبولد سنغور

ترجمة د. جمال شحيد

ولد الرئيس والشاعر ليوبولد سيدار سنغور في مدينة «جوال» في السنغال عام ١٩٠٦ . وبدأ دراسته في داكار ثم انتقل إلى باريس عام ١٩٢٨ لتابعتها . والتلقى في مدرسة لويس الكبير في باريس بصديق شبابه جورج بومبيدو ، وحصل عام ١٩٣٣ على التبريز في الأدب ، وكان أول أفريقي دخل التدريس الجامعي . وفي السنة نفسها التلقى بالشاعر المارتينيكي إيميل سيزير فأسسوا مجلة صغيرة أطلقوا عليها اسم «الطالب الأسود» طرحا فيها مقوله جديدة أسموها «الزنوجة» ، وأخذت هذه المقوله فيما بعد أبعاداً سياسية وتاريخية وثقافية كبيرة ، وسرعان ما استقطب الرجالان كثريين من المتحمسين أو الأعداء الحاذدين .

وبالاضافة إلى مهنة التدريس كان سنغور يسعى لتحسين الوضاع المعيشية والثقافية للنازحين الأفارقة في فرنسا . وعندما نشب الحرب العالمية الثانية ، التحق سنغور بصفوف المقاومة الفرنسية ضد النازيين الذين سجنهوا عام ١٩٤٠ وعفوا عنه بسبب توعك صحته . فعاد إلى التدريس والسياسة . وعام ١٩٥٥ - ١٩٥٦ عينه ادغار فوروز وزير دولة في وزارته . وعام ١٩٦٠ تم انتخابه بالاجماع أول رئيس لجمهورية السنغال بعد حصولها على الاستقلال .

وبالرغم من مشاغله السياسية ، إلا أنه بقي يكتب الشعر ويبحث في الأدب . وكان متميزاً في شعره ، إذ استطاع التوفيق بين ثقافته الفرنسية العميقة وانتهائه الثقافي الأفريقي الأرسخ . ويعتبر شعره صعباً ، لابل طلسمياً أحياناً ، مع أنه يطفع بالغنائية . ولقد كتب سنغور دواوين شعرية عديدة : أغاني الظل (١٩٤٥) ، قربين سوداء (١٩٤٨) ، الآثسيويات (١٩٥٦) ، الليليات (١٩٦١) ، رسائل الشتاء (١٩٧٣) ، وجمع « مختارات من الشعر الزنجي والملغاشي الجديد باللغة الفرنسية » (١٩٤٨) قدم لها جان بول سارتر . كما ألف بعض الكتب النظرية في الأدب والسياسة منها : « اللغة والشعر الزنجي الأفريقي » (١٩٥٤) و« الحرية » و« الأمة والطريق الأفريقي نحو الاشتراكية » (١٩٦١) . وفي عام ١٩٦٩ تم انتخاب سنغور عضواً في الأكاديمية الفرنسية . ولقد حصل عام ١٩٦٣ على الجائزة الدولية للشعر .

ويعتبر أدب سنغور ملتقى لحضارات عدة ، تجتمع فيه المسيحية والوثنية . الأفريقية والاسلام والثقافات الأفريقية (الزنوجة) والغربية ، دون اغفال للمسائل الاجتماعية والاقتصادية في العصر . ولقد نادى بالاشراكية الأفريقية . وهذا التمازج الكبير بين الثقافات ، يقترب سنغور من المفكرين الليبراليين الكبار الذين طبعوا القرن التاسع عشر بروحهم الانسانية المتفائلة ، إنه يمثل وبحق روح الليبرالية في بلدان العالم الثالث .

الزوبعة

تقتلع الزوبعة كل شيء حولي
تقتلع الزوبعة مني الأوراق وتأله الكلام .
أعاصير من الجوى تزمر بصمت
إلا أن السلام يخيم على العاصفة اليابسة
وعلى فصل الأمطار الهارب !

أيتها الريح المحتدمة ، ريح الفصل الجميل ،
أنت احرقى كل زهرة وكل فكرة باطلة
عندما تعود الرمال لتسقط على كثبان القلب .
أيتها الخادمة كفى عن حركتك المسرحية
وأنتم أيها الأطفال كفوا عن العابكم وضحكاتكم العاجية .
وأنت فلتتحرق النار التي تنير ليلى كعمود وخوصة ،
فلتحرق صوتك وجسمك ، ولتجفف عطر شهوتك .
أيها الروح إشعال شفتي الداميتين
وانضج على أوتار الكورا التي لي^(١)
وليرتفع نشيدي طاهراً كإبريز غالام .

من ديوانه : أغاني الظل (١٩٤٥)

(١) الكورا : آلة موسيقية أفريقية تراوح أوتارها بين ٣٢ و١٦ وترًا . وهي الآلة المفضلة لدى شعراء الملحم والملطولات .

دعاة للأقنعة

أيتها الأقنعة ! أيتها الأقنعة !

القناع الأسود والقناع الأحمر ، وأنت أيتها الأقنعة المبرقة

الأقنعة المنتشرة في الجهات الأربع حيث ينفح الروح

أحييك في صمت !

ولست الأخير أنت ، قناع الأجداد برأس أسد ،

انك تحرسين هذا المكان الساقط وتنعين كل ضحكة امرأة

وكل ابتسامة ذابلة

انك تقطررين هواء الخلود هذا حيث أستنشق هواء أجدادي .

أيتها الأقنعة ذات الوجوه الصافية ، الخالية من كل غمazaة أو

تعضّن ،

أنت التي شَكَلت هذه اللوحة ، هذا الوجه وجهي

المنحنى على مذبح الورق الأبيض ،

على صورتك ، أصيخي إلي !

هاهي أفريقيا ، المالك توت - هي حسرجة

أميرة تدعو للشفقة -

وكذلك أوروبا التي يربطنا بها الحبل السري .

أيتها الأقنعة ، حدّقي بعيونك الجامدة على أولادك المأمورين

الذين يهبون حياتهم كما يهب الفقير آخر ثوب له ،

كي نجيب بأننا حاضرون لدى بعث العالم

كما الخمير ضروري للدقائق الأبيض

اذ من يعلم الایقاع لعالم آلي ومدافع ميت ؟

ومن يهتف بهزيج الفرح كي يوقظ الموتى واليتامى عند الفجر ؟
قولي ، من يعيد ذاكرة الحياة لامرئ تمرّقت آماله ؟
يقولون إننا رجال القطن والقهوة والزيت
يقولون إننا رجال الموت .
إننا رجال الرقص الذين تشتد أقدامهم عندما تخبط أديم
الأرض القاسي .

(أغاني الظل)

آن وقت الرحيل

آن وقت الرحيل ، فلن أضرب من بعد جذوري العميق في
هذه الأرض اللزجة الرخوة
أسمع نقر السرفات يفرغن ساقين من شبابها
آن وقت الرحيل ومجاهدة المحطات والريح العاصفة التي تصفع
أرصفة المحطات المفتوحة في المدن الريفية .
قلقُ الرحيل دون يد ساخنة في يدك .
إنني ظمىء للفضاء الفسيح والمياه الجديدة ، لأعبَ من جرة
وجهِ جديد تحت الشمس
دون أن تفصلني عنها غرف الفنادق أو الوحدة المدوية في المدن
الكبرى .

هل هو الربع - السفر ! - ذلك العرق الليلي الأول واليقظة من
السكر . . . والانتظار . . . ؟

أسمع أيتها الفتاة الهوائية - وتحتنا مجموعة العجلات على السكة - أسمع هناف البوق الطويل يسائل السماء .
أولعله صهيل دمي المذكور
كمهر جمعت ورفست في فجر آذار القصسي ؟
آن وقت الرحيل :

هاهي رسالتك
هل كانت عيناك المفتوحتان تسبقانك إلى عيد الربيع ؟
انكِ ما زلتِ تشبهين فتاة الامس تماماً ، بطلعتك السوداء
ورأسك الزنجي المشتعل كقمة جبل الأستير يل^(١)
نفرقت صويخباتك ، ك أيام الشتاء البيضاء أو ك حبات فرط من
سهام إحدى الآلات .
وعرفت يدي يدك وساقي ساقك ، ووجدنا الایقاع الأول
ورحلت . إذ قد آن وقت الرحيل .

تیاروی

أيها الأسرى الزنوج ، أريد أن أقول أيها الأسرى الفرنسيون ، أحقداً
أن فرنسا لم تعد فرنسا ؟
أحقداً أن العدو قد سلبها وجهها ؟
أحقداً أن حقد الآثرياء قد اشتري سواعد فولاذية ؟

(١) - أكمة في مقاطعة البر وقاضي فرنسا.

ألم يطهر دمكم الأمة التي نسيت رسالتها بالأمس ؟
قولوا لي : ألم يمتزج دمكم بدم شهادتها الطاهر ؟
أستكون جنائزكم مثل جنائز العذراء / الرجاء ؟

دم ، دم ، أيها الدم الزنجي دم اخوتي ، إنك تلطف طهر
أحرمي
إنك العرق الذي يتضبب فيه قلقي ، إنك الألم الذي يُبْعَثِّرُ
صوتني
وووي ! إسمعي صوتي الأعمى يا أرواح الليل الصماء
الخرساء .
مطر من الدم القاني الكثيف ! وقلبي يبتهل للسماء وللرحمة .

أيها الأموات إنكم لم تموتوا عبثاً ! إن هذا الدم ليس ماء فاترة .
إنه يروي أملنا بغزارة وسيزهُر في الغسق .
إنه ظلماناً وجوعنا الفرسان ، هذان الملاكان المطلقان
كلاً ، لم تموتوا عبثاً ، إنكم شهدود أفريقيا الحالدة
إنكم شهدود العالم الجديد الذي يبدأ غداً .
أرقدوا أيها الأموات ، وليهدهدكم صوتي ، صوتي الغاضب
الذي يؤرجه الأمل ،

(من ديوانه : قربين سوداء ، ١٩٤٨)

أناشيد من أجل سينيار

(مع القيثارة)

يد من نور دعدهدت جفني الليليتين
وارتفعت بسمتك في الضباب السائع الريتيب على بلاد الكونغو
وتواكب قلبي مع الشيد العذري لطيور الفجر
كذا دمي المتناغم قدّيماً مع الشيد الآييسن للنسع في أغصان
الأذرع .

هاهي زهرة الدغل ، هاهي النجمة في شعري والربطة المحيقة
بجبه الراعي الصنديد .

سأستعيق القيثارة التي تعطي ايقاع السلام للقطعنان
وطبلة النهار تراني جالساً في ظل أهدابك قرب منهيل « فيملا »
وفيما ، أرعى الخوار الأشقر لقطعنانك .

إذ إن يداً من نور هذا الصباح دعدهدت جفني الليليتين
وطبلة النهار واكب قلبي نشيد الطيور العذري .

(مع الخلام^(١))

لقد أبقيت طويلاً بين يديك الوجه الأسود للمحارب
كما لو كان غص قدرى قد أناره .
من الأكمة رأيت الشمس تغيب في خلجان عينيك .

(١) - الخلام آلة موسيقية افريقية تشبه قيثارة بأربعة أوتار .

مني أرى وطني والأفق الصافي لوجهك ؟
مني أجلس من جديد خلف طاولة نهذك الداكن ؟
وفي الغيش يجثم عش كلامك العذب .
سأرى سهوات آخرى وأعينا ثانية
سأشرب من منهيل أنفواه آخرى أرطب من الليمون
سأنام تحت سقف ضفائر أخرى بعيداً عن العواصف .
ولكنني كل ستة ، عندما يقدح « روم » الربيع زناد الذاكرة
سأختسر على مسقط رأسي وعلى مطر عينيك فوق ظما
البوا迪 .

(مع الخلام)

لقد اصطحبتك إلى قرية الأهراءات ، إلى أبواب الليل
وكتُ دون كلام أمام لغز ابتسامتك الذهبي .
غسل وجيز سقط على وجهك ، نزوة أهبة .
من عليهما الأكمة معقل النور ، لقد رأيت بريق نورتك ينوس
وشعرك المعقود كان كشمس نغوص في ظلال مزارع الأرض ،
عندها حاصرتني أهواجس والمخاوف القديمة الخائنة أكثر من
ال فهو

- إن العقل لا يستطيع أن يقصيها أبعد من الأفاق النهارية .
هل عم الليل إلى الأبد ؟ أه من الرحيل دون وداع !
سابكي في الظلام ، في باطن الأرض الأمومي
سارقد في صمت دموعي
إلى أن تلامس جبهتي فجر فمك الأبيض .

(مع فيشارتين)

لقد غزلت لك أغنية لطيفة كهمس حامة في الظهيرة
وكان خلامي بأوتاره الأربعية يصاحبني بهدوء
ونسجت لك أغنية ، إلا أنك لم تستمعي إلى .
لقد وهبتك أزهاراً بربة ذات عطر سري كعيون الساحر
وكان بريقها ساطعاً كالغسق في « سانغومار » .
لقد وهبتك أزهاري البرية ، فهلا تركتيها تذبل
أنت التي ترُوحين النفس بالألعاب البشر ؟

(مع كلارنيت وبلافونغ)

هلا يعني العشاق في نور المستقبل الشفاف ؟
هلا يتغدون على أنغام الكلارينيت بالوصال الليلي كعشاق
الآمن ؟
أين أنا من رضاب الأفواه الجميل ومن الغصن الذابل ؟
يا أمطاراً خضراء !
وإذا لم يبعث المسيح في الربع الآيبس ؟ إني أكره رقصات
المبتدئين .
وإذا لم أخطفك على جوادي البربرى ، مسكاً بشونتك فوق
قلبي
بين الصرخات وطلقات الدم وصفير المدى الكياسة ؟
سأقطع صلات القربي كلها ، سأقيم حرساً للحب

من أجل ليلة لا تنتهي . حميمي صوتك أكثر من العش الداف ،
وشفتاك الرقيقةتان تهذنان صدرني الصافر كأفعى سوداء .
ساقطع كل علاقاني الأوروبيّة لانسح فصيدة على ساقي
الرماد ،

لا يهمني ذلك الاسم الذي يعني على باب المذبح
ستخلو الجنة لدى فيكون غيابك دينونة للعاشق .

(من ديوانه : لياليات ، ١٩٦١)

غزلية المياه

أيها الصيف أنت أنت يا صيف ، يا صيف مملكت الطفولة
عذن الصباحات المغمومة بالشفق وروعة الظاهرات ، تلك
ال صباحات المحادنة كتحريمية النسر .

يا صيف صمتنا اليوم المثقل بالغضب تحت نظر الإله الغير
ترأك جزء من قدرنا المحفور بقصوة على برنامج العصر
تسقط المدن المتباھية وتثنّ تحت سماء لا رجاء منها
تخترقها سموم الصواعق ، وتفقد الأنهار منبعها وسبيلها .
ويغيب كوب النبيذ المتغب ! ويغيب قدح الماء في المشارف

المشعة

حيث وحدها الماء تروي أي ظمآن للبراءة !
النار ! النار ! الجدران الملتهبة في شيكاغو ، النار ! النار !
الجدران الملتهبة في عمورة

نار على موسكو . والله واحد للشعوب الملحدة التي لا تجترأ
الكلام المقدس .

- أيها الشاعر ، من الأسكيموس و سلاهم ، إنك الأيدي الغضة
الخاطفة على جبين الغابات العذراء .

واستلقي الغرب والشرق والشعوب القصبة على الرمال ، إنها
مقدمات السفن الحجرية التي سحقها البطل الصنديد .
هودا فرعون مصر تسحقه حية موسى و عصاه .

يإلهي ارحم الصالحين العشرة ، وارحم الصين التي صليت من
أجلها كثيرا في طفولتي

يرحم نفسك يا من جعلت الكلمة تزهر ، وزينت بالقلائد
وصول أيام كما يزين الجيد الكريم
يامياء اليوم الثالث أنا ديك

يامياء اليابس الصامتة ، يامياء العلي الصافية ، يا ملجا !
يامياء السبيل والشلالات

ياميها صالحة ، ولكن أنت يامياء الرحمة أنا ديك بصراخ متقطع
صادق

يامياء الأنهر العظيمة والبحر الأوسع والبحر الأزرق
وأنتما أيها الفرقان يا من تديران المياه بحركة متعاكسة تختلط
فيها الوحدة

أرثي حالك ياميها مقدسة للتفكير
فليتحلل القمر من نقشه ، وليخلف الموت الحياة ، كهامة
الفجر وكذا الشمس كمحتون ينبعث منه الذكر عندما يسدل الليل !

وأنت ياميها نجس نصبوا إلى التطهير حسب عبارتي

إن القصيدة تجعل كل شيء موزون شفافاً .
يا مياهها وبلة وأسنة ، يامياه العاصم المحمّلة بالآلام والأفراح
والأمال والأحلام والمؤودة .
أيتها المياه اجري اجري وصبي صبي في البحر .
فككل مياه مهدورة وكل مياه نادمة تغسل الملح .
يإلهي صنعت متى سيد الكلمة
أنا ابن الجابي الذي ولد رمادي هزيلًا
وسمنتني أمي المتهور ، لأنني كنت أغيبص حال اليوم .
لقد منحتني بذلك غير المساوي قوة الكلمة
يإلهي أصح إلى صوتي : فلتتمطر ! وأمطرت
وفتحت بذراعك الصاعقة شلالات الغفران
إنها تمطر على نيويورك ، على أنديونغولور ، على إنديالاخار
إنها تمطر على موسكو ، على بومبيدو ، على باريس وضواحيها
على مالبورن ومسينا ومورزين
إنها تمطر على الهند والصين - أربع مئة صيفي غرقوا وانقذ
مليونان ، منهم الصالح ومنهم الطالع
فلتمطر على الصحراء الكبرى وعلى ميدل ويست ، وعلى
الفيافي وأراضي القمح والأرز
على رؤوس القصب والزغب
ولتبعث الحياة بلون الحضور .

(ديوان غزاليات)

Leopold Sedar Sengor : Poèmes .
Paris , Seuil , 1973 . (Collection Points)



قصيدة إفريقيستان

— ترجمة: موريس جلال —

الشاعر: برنارد داديه (Bernard Dadié)
 كاتب وشاعر افريقي من ساحل العاج . ولد
 عام ١٩١٦ وتلقى الدروس الابتدائية العليا . وبعد
 سنوات قضها في التعليم ، عمل طويلاً في المعهد
 الفرنسي لافريقيا السوداء (في دكار ، السنغال) . كتب
 الكثير من النصوص المسرحية والقصائد والروايات . وقد
 اشتهر بروايتيْن هما : *الدثار الأفريقي* : (١٩٥٥)
La sande les Jouss fagne nors
 (١٩٥٦) . وقد انتقينا من شعره القصيدة التالية :

اشكرك يا إلهي . . .

- أهديك يا إلهي وأشكرك ،
زنجياً أسود خلقتني
وحلة من كل الآلام كونتني
وعلى هامتي شيلت العالم
فها أنذا أرتدي خلعة « الستور » ،
ومنذ الصباح الأول
أحل العالم وأتحمل .



- لون مناسبة هو الأبيض ،
ولون كل يوم هو الأسود
ومنذ المساء الأول
أحل العالم وأتحمل .



- مثلوج الصدر مسروّر أنا
بشكل رأسي وهيأته ،
حبل العالم قد كون رأسي .

رضيُّ البال والقلب أنا
بشكل أنفي وهيأته
إذ ينبغي لأنفي أن يتسم
كل رياح العالم .



- برج النفس مغتبط أنا
بشكل ساقٍ وهيئتها ،
إذ تأبهان للعدو
ونهيب كل اشواط العالم .



- أحدك يا إلهي وأشكرك ،
زنجياً أسود خلقني
وجلة من كل الآلام كوتني .



- ستة وثلاثون سيفاً
قد اخترقت قلبي

ستَ وثلاثون جذوة
قد أحرقت بدني
وعلى كل جلجلة أهرق دمي
فتخضبت به الثلوج .
وعلى كل المشارق
ضرجت دعائى الطبيعة .



- وعلى ذلك مسرور أنا
إذ أحمل العالم برمته ..
مسرور أنا بذراعي القصيرتين
وبدراعي الطويتين
ويشفتي الأدلاءين .



- أحدهك يا إلهي واسكرك ،
زنجبلاً أسود خلقتنى .
لون مناسب هو الأبيض
ولون كل يوم هو الأسود .
أحمل العالم برمته .
منذ فجر الازمة ،

وعلى العالم نعلو ضحكتي
فتخلق النهار في الليلي .

★ ★ *

- أحذك يا إلهي وأشكرك
زنجياً أسود خلقتني . . .

—

الشاعر : ديودونيه كاديمانزوبي (Dieudonne Kadima - Nzaji) ولد عام ١٩٤٧ في مدينة بانزييفيل الكونغولية - الزائير ، حالياً . وكان أحد الشعراء الشباب الذين نزلوا إلى مسابقة أدبية أقيمت في العاصمة كينشاسا (١٩٦٩) تحت رعاية وتحكيم الرئيس السنغالي السابق ليوبولد سيدار سنغور ، وهو من أعلام الأدب والشعر والسياسة في إفريقيا السوداء . والقصيدة التالية فاتحة المجموعة الشعرية التي تقدم بها هذا الشاعر الشاب إلى هذه المسابقة ففاز فيها بالخائززة الثالثة .

مقدمة

- أمي ، أيتها المرأة العظيمة
أيتها المرأة الوسيمة ،

أود أن أشاهد عيال الرمادي
يتالق في غدير مقلتي الساطع .
أود أن أشاهد وأعاود ،
في بؤبؤيك القاتمين ،
توهج الشعلة الزرقاء ،
شعلة العطف والحنان
تدفق صدري المقرور .



- أيها القناع ، أيها الضوء الطرئي الخافت
عند تماشير الفجر
يا جمال ماوراء هذى الحياة
لا يتبدل ولا يتحول
أيها الجمال الثابت في جموده
يأمثال السلف الشعائري
يقيم في البخور الهروب من كونخنا الدخين
أحبي فيك نيل الضياء سكته بين جفني
أحبي فيك صرخات الحب الحالصة
تجتاز سماه صداقتني ومودتي
كومض البرق الخاطف



- أمي ، أيتها المرأة العظيمة
أيتها المرأة الوسيمة
من قدرك الفارع المنشوق
طالما همت على وجهي في المفازة العارية
وطالما تهت في ضفائرك السحرية
عارضات الحياة
أنوه فيها فينة بعد فينة .
وطالما شعرت بنهر دمك الدامس كالليل
يهدر في أعماق ذاتي .

★ ★ ★

- لقد شعرت بقصائد وفيرة الألوان
تتدفق في عروقى المشدودة ،
قصائد ارفعها اليك واهديها
في عزلي الباردة كالمنية
انت يا أمي ، أيتها المرأة العظيمة
أيتها المرأة الوسيمة

★ ★ ★

- لكم أستحمست في عطفك وعدوبتك ،
وفي جوف راحتيك رویت عطشي

من راح الحياة ونبيذها :
ولكم غسلت جبهتي
انا شيد شفتوك العذبين .



- أمي ، أيتها المرأة العظيمة
أيتها المرأة الوسيمة
إليك أنفاس قلبي المتداعية
إليك قصائدي
صرخات دم ابنك الشهيد
فريسة الكرب والجزع الشديد .



قصة

لقاء في الظلام	جيمن تكرك	رجاء د. حسام الخطيب
الأشياء تدعى	شينياوا تشيجي	ساده الشكرة شينياوا تشيجي رسائل المائج العابرين
موت صبّي	تشينيا الشجي	ترجمة: محمد سليمان الشرع
الظبي والفيتل وفرس البحر		ترجمة: د. عبد الرحمن الصدر

١٩٠٤ - ٢٠١٤ : دار المعرفة للطباعة والتوزيع



جيمس نوكوي
ترجمة د. حام الخطيب

كان متكتأً على باب الكوخ . رأى أباه ، الذي كان عجوزاً ناحلاً ولكنه نشيط ، مقبلاً من شارع القرية ، وعلى جانبه يتدلّى كيس وسخ نوعاً ما ، ومصنوع من خيوط (الكاليكو) المتينة . وكان أبوه يحمل هذا الكيس دائماً . وكان جون يعرف ماذا في الكيس : التسورة ، وكتاب صلوات ، وربما دفتر وقلم . كان أبوه واعظاً . وكان جون يتساءل دائماً ما إذا كان أبوه هو الذي جعل أمه تكف عن رواية الحكايات له بعد أن أصبح من رجال الله ، إذ أن أمها توفيت عن سرد الحكايات له منذ مدة طويلة . وكانت تقول له : « الآن ، كف عن طلب مزيد من القصص . فقد يأتي

أبوك » . وهكذا كان يخاف أباء . . . ودخل جون الدار ونَيْهُ أمه بقدوم والده . وبعدها دخل والده . ووقف جون جانبًا ثم مشى باتجاه الباب ، وتأهل قليلاً ، والشكوك تساوره ، ثم هم بالخروج :

- ياجون ، ياجون .

- بابا

- ارجع

وقف ، يساوره الشك ، أمام والده . ووجب قلبه بسرعة متزايدة وأطلَّ من داخله سؤال مفاده :

هل هو يعلم ؟

- اجلس . . أين أنت ذاهب ؟

أجاب جون بمراؤفة :

- للترحه يا أبي .

- إلى القرية ؟

- حسناً ، نعم . أعني لا أقصد مكاناً معيناً على وجه التحديد .

ولاحظ جون أن أباء يحدِّق فيه تحديقاً قاسياً كما لو كان يقرأ وجهه . وتنهَّد جون تنهداً خفيفاً جداً . ولم ترقه طريقة أبيه في النظر إليه . إذ كان أبوه ينظر إليه دائمًا كما لو أنه خاطيء ، وينبغي أن يكون تحت المراقبة على الدوام . وقال في قلبه « نعم أنا خاطيء » . ويسكب شعوره بالذنب لم يواجه نظرة أبيه بل تجاوزها بنظرة استغاثة إلى أمه التي كانت تفشر البطاطا . ولكنها بدت مذهولة عن كل شيء من حولها .

قال أبوه :

- لماذا تهرب يبصرك ؟ ماذا ارتكبت ؟

وانكمش جون على نفسه من الخوف . ولكن وجهه ظل بلا تعبير ، وكان في مقدوره أن يسمع خفقان قلبه المشتّد ، الذي كان يشبه صوت مضخة تضخ الماء . وشعر أن أباه لابد يعرف كل شيء عن الأمر . وفكّر :

« لماذا يعذبني ؟ لماذا لا يقول على الفور أنه يعرف ؟ »

ولكن صوتاً آخر قال له :

« لا إنه لا يعرف ، ولو أنه عرف لانقض في الحال عليك . »

وأعطاه هذا الصوت بعض السلوى . وجابه أباه الحاد بشجاعة .

وقال الأب :

- متى تكون الرحلة ؟

ومرة ثانية فكر جون : « لماذا يسأل ؟ سبق أن أخبرته بالأمر عدة مرات .

وقال :

- الأسبوع القادم ، يوم الثلاثاء .

- حسناً . غداً نذهب إلى السوق . أتسمعني ؟

- نعم يا أبي .

- لك أن تصرف .

- شكرأ يا أبي .

وشرع يتحرك .

- جون !

- نعم . وكاد قلب جون يتوقف عن الحركة .

- تبدو في عجلة من أمرك . لا أحب لك أن تتسلّك في القرية . أعرف الشباب . تذهب إلى هناك للاستعراض وإثارة الانتباه . لا أريد أن أسمع عن

أي شغب في القرية .

وخرج جون وقد ازداد ارتياحاً . وكان يستطيع أن يخمن ما الذي يعنيه أبوه بعدم رغبته في المشاغبة في القرية . وللمرة الأولى نطق سوزان :

- لماذا تضطهد الصبي إلى هذا الحد ؟

ومن الواضح أنها انتصت بانتصارها إلى المسرحية كلها دون أن ت bers بنت شفة . وقد آن أوان تكلمها . ونظرت إلى واعظها العجوز الخشن الذي كان قريباً منها طوال حياتها . لقد تزوجته منذ زمن طويل جداً . وما كان باستطاعتها أن تتذكر عدد السنين . وكانت سعيدتين . ثم اهتدى الرجل وأصبح كل شيء في المنزل بصبغة دينية ؛ حتى إنه منعها من الاستمرار في سرد الحكايات للطفل : - أخبر به عن يسوع . يسوع مات من أجلك ، من أجل الطفل . عليه أن يعرف ربّه .

ولكن لم يخف عليها أبداً العذاب النفسي الذي كان يوقعه على الولد (هكذا كانت دائمة تشير إلى جون) ، وبما الولد وفي نفسه خوف أبدي من أبيه . وتساءلت دائمة : هل هو حب الرجل لأنها أم أنه نوع من الضعفية ، نعم ، ربما لأنها الإثنان « فسقاً » قبل الزواج ؟ وكان جون ثمرة هذا الفسق . ولكن هذا لم يكن خطأ جون . وإن الولد هو الذي يحق له أن يجار بالشكوى . وكانت تسأله دائمة هل يفعل الولد ذلك ؛ ولكن لا . كان الطفل صغيراً جداً حينما غادروا (فورت هول) . . . ونظرت إلى زوجها . لقد ظل صامتاً ، وإن كانت يده اليسرى ، تعبر أعن الضيق ، تتحسس وجهه .

- كأنها هو ليس ابنك . أم لعلك . . . !
- ممم ، يا أخت .

وكان في صوته توسل . كأنها كانت تبغي الدخول في مشادة ، ولم يكن كفناً لها . الحق أن النساء لا يمكن أن يفهمن . النساء نساء ، سواء أكنّ نقيّات

أم لا . ينبغي أن يعملن على حماية أولادهن من كل تأثيرات شريرة . يجب أن ينسو في ظل خطأ الرب . ونظر إليها وعلى وجهه بعض نقطية . لقد جعلته ينزلق إلى الخطيئة ولكن ذلك حدث منذ زمن طويل . على أنه قد أنسى . ولا ينبغي لجون أن يسلك الطريق نفسه .

- عليك أن تسمع لنا بالرحيل . تعلم أنني أستطيع أن أرحل ، أن أعود إلى فورت هول . وعندذاك كل أمرى ...
ولكنه قاطعها بقوله .

- انظري يا أخت . كان دائمًا يدعوها « أخت » أخت في الرب - بالمعنى الكامل . ولكنه كان يتساءل دائمًا ما إذا كانت روحها قد خلصت . وكان يصل بقلبه :

- يارب . كن مع أختنا سوزان .
وكان يكمم بصوت عال :

- تعلمين أنني أريد للولد أن يتبرع في رحاب الرب . - ولكنك تعذبه بذلك ، وتجعله يخافك .

- لماذا ؟ لا ينبغي له أن يخافي . ليس عندي ما أضمره ضده .
- أنت مسؤول . أنت . أنت كنت دائمًا قاسياً عليه . ووقفت ...
وسقطت القشور من حضنها وتکومت على الأرض .
- ستانلي .

- يا أخت .
فاما وقد فوجي بحدة صوتها . فلم يرها قبل على هذه الشاكلة .
يارب . انسز الشيطان من داخلها . خلصها في هذه الدقيقة . ولم نقل
ما أرادت أن تقوله . وصرف ستانلي بصره عنها . كانت تلك مفاجأة ، وبدا كما
لو أنه يخشى زوجته . لو أخبرت أهل القرية بذلك لما صدقاً . وفتح توراته
وأخذ يقرأ ، فلديه يوم الأحد موعدة لجمع من الإخوة والأخوات .

وعادت سوزان إلى الجلوس وشغلت بعملها . وكانت امرأة أقرب إلى الطول ، نحيلة ، وتدل ملامعها على أنها كانت يوماً ما جليلة . وما كانت تعرف ما الذي يُورق ابنها . هل هي الرحلة المقلبة ؟ ظلت دائماً تشدق عليه .

وفي الخارج كان جون يتسعك دون هدف في الممر الذي يؤدي إلى بيته . كان يقف إلى جانب شجرة قرية من البيت ويرقب القرية كلها . وكانت تند أمام عينيه أكواخ وصفوف من الأكواخ الطينية والعشبية وفي روز وسها ما يشبه العصي البربرية كأنها تشير إلى السماء . وكان الدخان يتتصاعد من الأكواخ المختلفة . وكان ذلك يعني أن نساء كثيرات قد عدن من (الشامباس) . وسرعان ما سوف يغيب الظلام . ومن ناحية الغرب كانت الشمس - تلك المسافرة الوحيدة طوال النهار - تسرع إلى بيتها خلف التلال الملقعة بالضباب . ومرة ثانية نظر جون إلى الصنوف المتكدسة من الأكواخ التي كانت تشكل قرية (ماكيسيو) ، وهي إحدى (مدن الفطر) الجديدة التي قامت في مختلف أرجاء البلاد على أثر نشوب حرب (ماوماو) . كانت قبيحة جداً . وأحسن بوخر الألم في قلبه وبالرغبة في البكاء .

- أكرهك . أكرهك . لقد جئت عليَّ بمنحي الحياة . اغرب عنِّي .
لولاك ما حدث ذلك .

ولم يصرخ ولكنه كان يراقب .
وكانت امرأة تتوجه إلى حيث وقف . وكان هناك ممرٌ مزدَّى إلى القرية قريب منه . وكانت تحمل حلاً كبيراً من (الكوني) جعلها تتحني تحته كأنهناء شجرة أكاماً . وحيثه ..

- أنت بخير يا نجوني (جون)
- لا بأس عليَّ يا أم .

ولم يكشف صوته عن أية مرارة . وكان جون مهذباً بطبيعته . وكان كل

امري، يعرف ذلك . وكان مختلفاً عن غيره من أبناء القرية المتعلمين التكبيرين ، أولئك الأبناء الذين أنوا من عند الطرف الآخر من المياه ومعهم زوجات بعض أوزنجيات يتكلمن الإنكليزية . وكان يتصرفون كالأوربيات تماماً . وكان جون محبوباً ، ونموذجاً للتواضع والكمال الخلقي . وكلهم كانوا يعلمون أن جون لا يمكن أن يكون قبيلاً - على الرغم من أنه ابن قسيس . واستمر في الحديث عن القرية ودروها .

- متى تذهب الى ؟

- ماكرييري ؟

- ماكييليل .

وضحك ، إذ كانت طريقتها في لفظ الاسم مثيرة للضحك . وكذلك طريقة ضحكتها . واستمتعت بذلك . ولكن جون أودي في نفسه ، إذن كلهم يعرفون الأمر .

- الأسبوع المقبل .

- أتمنى لك الخير .

- شكراً . يا أم .

ولفظت بهدوء ، كأنها تريد أن تحسن لفظ الاسم :

- ماكييليل !

وعادت إلى الضحك من نفسها ولكنها شعرت بالتعب . وكان الحمل .
نفلا .

- حافظ على نفسك يا بني .

- رافقتك السلامة يا أم .

ونحركت المرأة التي كانت واقفة طوال الوقت . وهي تبكيت كحمار .
ولكنها بدت بوضوح مسروقة من لطف جون .

وظل جون يلاحقها بنظراته لمدة طويلة . كيف تعيش هذه المرأة كل يوم بيومه ، وتكتئ ، وتنظر سعيدة ؟ أها نفقة كبرى بالحياة ؟ أم أنها تنق بالفبالة ؟ إنها - ومثيلاتها من الذين لم يتصلوا بذروب الرجل الأبيض - تبدو كما لو أن لديها مانعنى الأمثل عليه . وإذا كان يتبعها بنظراته كان يشعر بالفخر لأن له رصيده طيباً لديهم ، ولأنهم يقدرونها تقديرًا عاليًا . ثم دق النذير . . . (سيعرف أبي ، وسيعرفون) . وما كان يدرى أي الأمرين يخفى أكثر : الإجراء الذي يتخذه والده حين يعلم بالأمر أم خسارة تلك الفتاة الصغيرة التي غرسها في نفوس الفروقين البسطاء حين يعلمون بالأمر . لقد خشي أن يخسر كل شيء .

وقصد بعد ذلك المقهى المحلي الصغير ، والتلقى أناساً كثيرين عثروا له التوفيق في حياته القادمة في الكلية . وكلهم كانوا يعرفون أن ابن القس قد ختم كل معرفة الرجل الأبيض في كينيا ، وأنه سوف يقصد أوغندا . وقد فرأوا ذلك في (بارازا) وهي جريدة أسبوعية سواحلية . ولم يمكث جون طويلاً في المقهى . كانت الشمس قد أفلت واستراحت وبدأ الظلام يخيم . وكانت وجة العشاء جاهزة . وكان أبوه فقط ما زال يقرأ التوراة خلف الطاولة . ولم يرفع بصره حينما دخل جون . وساد سكون غريب في الكوخ وكانت أمه أول من خرق الصمت :

- تبدو غير سعيد .

وضحك جون . كانت ضحكته قصيرة متوترة . وأجاها بسرعة .

- لا يا أمي .

ونظر إلى والده . ورجا في سره ألا تكون (واموهو) قد وصلت .

- إذا ، أنا مسرور .

وما كانت تعرف . تناول عشاءه وخرج إلى كوخه . كوخ رجل . كان لكل شاب كوخه . ولم يكن مسموحاً أبداً لجون أن يأتي بزيارة إلى كوخه .

وكان «ستانلي» لا يريد أية مشكلة ، حتى إن وقوفه مع إمرأة كان يُعدُّ جريمة . كان والده قميئاً أن يقرّعه بسهولة . كان يخشي والده ولم يكن يدرِّي سبب ذلك . وكان في مقدوره أن يثور كما يفعل كل الشباب المتعلمين . أودَّ المصباح . وأخذَه بيده . وتذبذب الضوء الأصفر بشدة وانطفأ . وعرف أن يديه ترتجفان . وأخذَ ملعقه بسرعة مع كوفية ضخمة كانت ملقة على فرشته غير المرتبة . وترك المصباح مشتعلًا ليراه والده فيظن أنه في الكوخ . وغضَّ جون شفته السفلية غيظًا . ومقت نفسه لأنَّه كان أشبة بالبنات . وكان ذلك غير طبيعي لولد من عمره .

ومثل خيال ، استرق الخطى عبر الباحة وانتقل إلى شارع القرية . وقابل شباباً وشابات يذرعون الشارع . وكانوا يضحكون ويتحادثون ويتهامسون . وكانت تبدو عليهم إمارات السرور وفکر جون . إنهم أحراز أكثر مني . وحسد انطلاقتهم . لقد خرجو عن المقاييس الأخلاقية التي يحاول الآخرون فرضها على المتعلمين . وتساءل : أكان يرغب أن يقادهم الأدوار؟ وأخيرًا أتى إلى الكوخ الذي كان يقع في قلب القرية . كان يعرفه جيداً - وباللاؤسق . وكان حائزًا ما الذي ينبغي أن يفعله . أينتظروها في الخارج . ولكن ماذا لو أن أمها خرجت بدلاً منها؟ وقرر أن يدخل .

- هودي .

- ادخل نحن هنا .

ونزع جون قبعته قبل دخوله . ووجدهم جميعاً هناك ما عدناها ماعدا التي أرادها . وكانت النار في الموقد خاوية . وكان هناك فقط قبس ضئيل من مصباح مشتعل يغمر الكوخ بشيءٍ من الضوء الخافت . ويداً له أن اللهب وظلله العملاق على الجدار يسخران منه . ودعارةٌ لا يعرّفه أبوها (واماها) ،

وحاول أن يكون (تحيلاً) وأن يغير صوته عندما ألقى عليهم التحية . ولكنهم عرفوه وانشغلوا به . إذ ما كان مكنا لهم أن يأخذوا مأخذ الاستخفاف زيارة من كان مثله ، متعلماً يعرف كل عالم الرجل الأبيض ومعرفته ، ويزمع الرحيل إلى بلد آخر غير بلده . ومن يعرف ؟ لعله كان مهتماً بابتיהם . فقد حدثت دائمةً أشياءً أغبر من ذلك . وبعد ذلك لم يكن التعلم هو كل شيء . ومع أن (واماها) غير متعلمة فلها فنتتها ، وهي جديرة أن تأثير قلب أي شاب بنظراتها وابتسامتها .

- تفضل واجلس . خذ المقعد .

- لا .

ولاحظ بمرارة أنه لم يقل لها (يام) .

- أين (واماها) ؟

وألقت الأم نظرة متصرفة على زوجها . وتبادلـا نظريـي تعرـف . وعـض جـونـ شـفـتهـ ثـانـيـةـ وـشـعـرـ آـنـهـ يـكـادـ يـفـجـرـ . وـضـبـطـ نـفـسـهـ بـصـعـوبـةـ .

- لقد خرجت لتجمع بعض أوراق الشاي . وسوف تعدد لك بعض الشاي حين تعود .

وغمـتـ بـكلـمـاتـ مـتـلـعـثـمـةـ غـيرـ مـسـمـوـعـةـ :

- أخـشـ أـنـ . . .

وخرج . . . وكاد أن يصطدم بـوـاماـهاـ الـقـيـ كـانـتـ قـادـمـةـ وفيـ الكـوـخـ تـبـادـلـ الزـوـجـانـ الـحـوارـ :

- ألم أقل لك ، ثم بـنـظـرـةـ المـرأـةـ .

- أنت لا تـعـرـفـنـ هـؤـلـاءـ الشـبـابـ .

- ولكنك تعلم أن جـونـ مـخـتـلـفـ ، وـالـجـمـيعـ يـتـحـدـثـونـ عـنـهـ ، وـهـوـ اـبـنـ قـسـ .

- نعم . . . م . . ابن قيس . أنيت أن ابنته مخونة ؟

وكان الزوج العجوز يتذكر حياته الخاصة . فلقد انقى لنفسه زوجة فاضلة طيبة ، ترعرعت على أساس قيم القبيلة . ولم تعرف أيُّ رجل آخر . وتزوجها وعاشا سعيدين ، وفعل ذلك رجال آخرون من حيَّة ، وكانت كل فتياتهم عذراوات . إذ كان محظياً على الشاب أن يلمس الفتاة قبل الزواج حتى لو نام معها في فراش واحد ، كما كان يحدث فعلامع كثير من الفتيان والفتيات . وبغد ذلك أتى الرجال البيض ، يبشرون ببداية غريبة ، ويطرقون غريبة . وتقبل الناس ذلك . وتحطم معيار السلوك لدى القبيلة . ولم تستطع العقيدة الجديدة أن تبقى شمل القبيلة مجتمعاً . وأنقذ ما ذلك ؟ فالرجال الذين اتبعوا الدين الجديد أوقفوا ختان الفتيات . ولم يسمحوا لأبنائهم أن يتزوجوا المختونات . . . نفو . انظري ماذا حدث بعد ذلك . ذهب شبابهم إلى بلاد الرجل الأبيض . وماذا جلبوا معهم ؟ النساء البيض . أو نساء سوداوات يتكلمن الانكليزية . آه . ما أسوأ ذلك . والرجال الذين لم يسافروا كذلك لم يعبأوا بشيء . اخذوا من الفتيات غير المتزوجات خليلات هم ثم تركوهن مع أطفال لا آباء لهم .
وأجابت الزوجة .

- مالفرق ؟ أليست (واماهم) من أفضل الفتيات ؟ على أي حال جون مختلف .

- مختلف ! مختلف ! نفو . كلهم سواء . وأولئك المتفانون بالطلاء الأبيض لأساليب الرجل الأبيض هم الأسوأ . ليس في داخلهم أي شيء . لاشيء . لاشيء هنا . وأخذ قطعة من الخشب وحرك بعصبية النار الهامة . وداخله خدر غريب . وارتقيف ، وشعر بالخوف ، وأشفق على قبيلته . لأنه الآن رأى أن الذين تلقعوا بطلاء الرجل الأبيض لم يكونوا المتعلمين فقط بل

القرية بأسيرها . وارتجف العجوز وبكى من الداخل . حرنا على القبيلة التي تقوضت .

ولم يكن أمام القبيلة أي منفذ . وما كان لها أن تعود سيرتها الأولى .
وتوقف عن تحريك النار وحدق بقصبة في الأرض .
ـ استغرب لماذا جاء ، استغرب .

ثم نظر إلى زوجته وقال :

ـ أرأيت أي سلوك غريب لدى ابنتك ؟

ولم تجب الزوجة ، كانت مستغرقة في آمالها العراض الخاصة .

ومشي جون مع (واماهاو) صامتين . وكانت الشوارع والمنعطفات المندخلة معروفة لها تماماً . ومشت (واماهاو) بخطوات سريعة خفيفة . وأدرك جون أنها في حالة نفسية طيبة . وكانت خطواته ثقيلة ، وحاول تجنب الناس على الرغم من الظلام . ولكن لماذا يشعر بالعار ؟ كانت الفتاة جميلة ، وربما أجمل فتاة في كل منطقة ليمورو . ومع ذلك خشي أن يراه الناس معها . كان ذلك خطأ . وكان يعرف أنه كان في مقدوره أن يحبها ؛ بل عند ذاك أيضاً كان يتساءل ما إذا كان يحبها أم لا . ربما كان من الصعب أن يحب ولكن لو أنه كان واحداً من أولئك الشبان الذين قابليهم لما كان تردد في الجواب .

وقف خارج القرية . وقف هي كذلك . ولم يكن أي منها قد نسب بكلمة طوال الوقت . ربما كان الصمت يتكلم بصوت أعلى من الكلمات .
المهم أن كلاً منها كان واعياً جداً لوجود الآخر .

ـ هل يعرفون ؟

وساد صمت . ربما كانت (واماهاو) تقلب السؤال على وجهه .

وتوسل إليها :

ـ لاتركني انتظر . أجيبني من فضلك .

وشعر أنه منهك . منهك جداً . مثل رجل عجوز وصل فجأة إلى نقطة النهاية في رحلته .

- لا . طلبت مني أن أمهلك أسبوعاً آخر . انتهى الأسبوع اليوم .

همس جون بخشونة :

- نعم . ومن أجل هذا جئت .

ولم تتكلم وأنا ماهو . نظر إليها جون . وكان الظلام يفصلها الآن . وما كان يستطيع رؤيتها فعلًا . وأمامه كانت صورة والده - بكر يانه الدينية وتسلطه . وفكرة ثانية : أنا ، جون ، ابن القدس ، المحترم من قبل الجميع والذاهب إلى الكلية ، سوف أسقط ، أسقط على الأرض .

ولم يرغب في التمعن بالسقطة . ووجد نفسه فجأة ينهمها :

- كانت تلك غلطتك .

وكان في صميمه يعرف أنه يكذب .

- لماذا تستمر في مثل هذا القول ؟ لا ت يريد أن تتزوجني ؟
وتنهى جون . ولم يعرف ماذا يفعل . وتنذر قصبة اعتادت أنه أن ترويها له .

.. مرة كانت هناك فتاة ليس لها منزل تأوي إليه . ولم يكن في مقدورها أن تقدم إلى الأرض الجميلة وترى الأشياء الطيبة لأن (إيريمو) كان في الطريق .

- متى سوف تخبر بهم ؟

- الليلة .

وغمره اليأس . بعد أسبوع سيذهب إلى الكلية . لو أنه استطاع أن يقنعوا أن تنتظر ، إذا لم تتمكن من الإفلات ثم العودة بعد أن تنحر العاصفة والنسمة . ولكن عند ذلك ربما سحبت الحكومة منحه . كان خائفاً وتخاللت صوته نبرة توسل حين التفت إليها قائلاً :

- انظرني يا واما هو . متى أنت حا . . . أعني على هذه الحال ؟
- أخبرتك مرة بعد مرة أنني حامل منذ ثلاثة أشهر ، وتزداد يومياً ريبة
أمي . أمس فقط قالت إنني اتنفس مثل امرأة تحمل طفلاً .
- انظرين أنك تستطعين الانتظار ثلاثة أسابيع أخرى ؟ ضحكت .
آه . تلك الساحرة الصغيرة . عرفت حيلته ، ضحكها دائمًا يثير في نفسه
انفعالات عديدة .

قال :

- طيب . أمهليني إلى الغد فقط . سأجده حلاً . سأخبرك غداً بكل
شيء .
- أوفق . غداً . لاستطيع الانتظار أكثر من ذلك إلا إذا كنت تنويني
لتزوجني .
لم لا تزوجها ؟ إنها جميلة . لم لا تزوجها ؟ أحبها أم لا ؟

وغادرته . وشعر جون أنها تستغله عن عدمه . وارتخت ركبته وفقدنا
القوس . وعجز عن الحركة وخرّ على الأرض متocomاً . وتصبب العرق بزيارة
على خديه ، كما لو أنه كان يركض بشدة تحت شمس قوية . ولكن عرقه هذا
كان بارداً . واستلقى على الحشيش ، وما كان يجب أن يفكّر . آه . لن
يستطيع أن يواجه أباءه . أو أمهه . أو المحترم كارستون الذي كان يثق به أشد
الثقة . أدرك جون أنه - على الرغم من تعليمه - كانت يفتقر إلى الأمان مثل
كل شخص آخر . وما كان يفضل واما هو بشيء . إذا لماذا لا تزوجها ؟ لم
يكن يعرف . كان جون قد ترعرع على يد أب كالفيبي ودرس على يد معلم
كالفيبي - راهب . وجرب جون أن يصل إلى رب . ولكن من كان يصل إلى رب كارستون ؟
بداله ذلك زيفاً . وبداله أشبه بالتجديف على الإله . أكان
يستطيع أن يصل إلى رب القبيلة ؟ لقد سحقه الشعور بالإثم .

واستفاق . أين كان ؟ ثم فهم . كانت واماها قد تركته . اعطته يوماً واحداً . وقف . وشعر بأنه تخشن . وسار إلى البيت يخطوا وانية . ومن حظه أن الظلام كان يخيم على الأرض كلها وعليه . وكان يتردد في ذهنه صدى الضحك من الأكواخ المختلفة ، وصدى الأحاديث الساخنة والمشادات . وكانت تتراءى له من خلال شقوق الأبواب ذبذبات النيران الحمراء . أين نجوم السماء ؟ سأل جون نفسه ؟ ونظر إلى الأعلى . كانت نجوم السماء باردة نائية ونظرت إليه نظرة غير ذات معنى شخصي . وكانت تسمع هنا وهناك أصوات عجموعات من الصبيان والبنات في ضحك أو صرخ . وبدا أن حياتهم تسير كالمعتاد . وعزز جون نفسه بالتفكير في أنهما أيضاً سوف يضطرون لمواجهة يوم تغيرتهم .

كان جون حائراً . لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا لا يستطيع تحدي كل التوقعات ، وكل فرص المستقبل ويتزوج الفتاة ؟ لا . لا . هذا مستحيل . كانت مختونة ، وكان يعرف أن زواجه بها لن يحظى بموافقة أبيه والكنيسة . ولم تكن متلعة - ولم تتجاوز الصدف الرابع بالأحرى . إن الزواج بها سيدمّر كل فرصة يمكن أن تناح له للذهاب إلى الجامعة .

حاول أن يتحرك بنشاط . عادت إليه قوته . . وانسراح فكره وخياله . حاول أن يفسّر موقفه أمام عالم يشير إليه بإصابع الاتهام . وقد فعل ذلك سابقاً عدة مرات منذ أن عرف الأمر . وظلّ يتساءل ماذا كان في مقدوره أن يفعل . لقد أغرتته الفتاة . كانت جذابة ، وكانت ابتسامتها ساحرة . ولم يكن هناك من يهالها بين فتيات القرية ، وكذلك لم تُتفقها أية واحدة منها في مستوى التعليم . كان تعليم النساء ضعيفاً . وربما كان هذا هو السبب الذي حدا بالشبان الإفريقيين الذين يتعلمون في الخارج أن يحضروا معهم الزوجات . وكان هو نفسه يرغب في أن يذهب مع الآخرين ولاسيما مع المجموعة الأخيرة

الكبيرة من الطلبة الذين أموأوا أمريكا . آه . لو أن واما هو كانت متعلمة ، وغير مختونة ، . . . لربما إذا كان أعلن ثورته .

كان الضوء مازال يلتمنع في كوخ أمه . وتساءل ما إذا كان عليه أن يذهب للقيام بصلوات الليل . ولكنها نفى الفكرة . وربما لم تكن لديه الجرأة لمواجهة أبيه . وكان الضوء قد انطفأ في كوخه . وقُتِّيَ لوأن والده لم يلاحظ ذلك .

نهض جون مبكراً . كان خائفاً . ولم يكن عادة ذا وساوس ، ومع ذلك لم يحب أحلام تلك الليلة . حلم بالختان على نحو ما كانت عادات القبيلة تفرضه . وأتي شخص ما - لم يتبيّن ملامعه - وأخذ بيده لأنه أشفع عليه . وذهبَا ، ذهبا إلى أرض غريبة . وبطريقة ما وجد نفسه وحيداً . واحتفى الشخص . وأتي شبح . وعرف فيه شبح البيت الذي تركه . وجّه الشبح إلى الوراء . وأتي شبح آخر هو شبح الأرض التي أتى إليها . وقاده من ناحيته ، وتنافس الشبحان . ثم أنت أشباح أخرى من جميع الجهات وجرته إلى جميع الجهات حتى أخذ جسمه يتساقط كسفناً . وكانت الأشباح هلامية ولم يكن في مقدوره أن يثبت بأي منها . كانت كلها تتجاذبه وكان يتناهى إلى لاشيء ، لاشيء ، ووجد نفسه يقف بعيداً ولكن لم يكن ذاك نفسه . كان ينظر إلى الفتاة ، الفتاة في الحكاية . لم يكن لها مكان تذهب إليه . ولكن حين توجه إليها فقد طريقه كان وحيداً تماماً . . . كان هناك شيء مدمري توجه إليه ، يقترب ، يقترب . . . واستيقظ . كان غارقاً في عرقه .

الختان في الحلم لا يشير بالخير . إنه تذير موت . . . أزاح وطاه الحلم بضحكة . وفتح النافذة ليرى أن المنطقة كلها مكسوة بالضباب . كان الطقس تموزياً نموذجياً في ليصورو . وكانت التلال والهضاب والوديان والسهول التي تحيط بالقرية قد ضاعت تحت غطاء الضباب . وبEDA المكان غريباً جداً . ولكن

كان فيه شيء من فتنة السحر . كانت ليمور وأرض تباين ، وكانت تثير افعالات مختلفة في أوقات مختلفة . وكان جون يفتن بالأرض ويعن إلى لسها ومعانقتها أو إلى مجرد الاستلقاء على العشب . وفي أوقات أخرى كان يشعر أن كل شيء يصده : الغبار والشمس الحادة ، والطرق المليئة بالخفر . ولو أن كفاحه كان فقط ضد الغبار والضباب والشمس والمطر لقنع بذلك ، قنع بالعيش هنا . على الأقل ربما شعر أنه لا يعب أن يموت ويدفن في أي مكان آخر سوى ليمورو . ولكن كان هناك العنصر الإنساني الذي تحمسد رذائله وخيانات الناس بعضهم البعض في القرية الجديدة القبيحة . وقفز إلى ذهنه حادث الليلة الماضية وطغى ، ورده إلى ضعفه السابق ، وانسل من تحت أغطيته ، وخرج من الكوخ . سيدهب اليوم إلى السوق . ولم يكن يشعر بالارتياح . كان يراوده شعور غريب بأن علاقته مع والده ربما كانت غير طبيعية . ولكنه أبعد الفكرة عن ذهنه . الليلة ستكون ساعة الحساب . وهزته رجفة بمجرد التفكير في ذلك . لسوء حظه أن هذا الجرح عكر حياته في وقت ينتهي فيه للذهاب إلى ماكيريري ، وبدونه كان يمكن أن تندلع علاقته مع والده أفضل من ذي قبل .

ذهب إلى السوق . وطوال النهار كان جون هادئاً وها ينتقلان من حانوت إلى حانوت يشتريان الأغراض من التجار الهنود الذين كانوا طوالاً ناحلين ولكن يقطنين . وطوال النهار تسأله جون في نفسه لماذا يخاف أبيه إلى هذا الحد . لقد نشأ على الخوف من أبيه والارتفاع كلما سمع منه كلاماً أو أمراً . ولم يكن جون وحيداً في ذلك . كان الجميع يخافون ستاني .

كان يعظ بقوة عارمة كأنها تتحدى أبواب الجحيم ذاتها . وحتى في أوقات الاضطراب كان يستمر في الوعظ مؤيناً مقرراً ، أمراً . وكل أولئك الذين لم يلتفوا الخلاص كان مصيرهم جهنم . وفوق ذلك كان ستاني معروفاً

بملاحظاته العظيمة المتشددة أخلاقياً - لعلها كانت مسرفة في التشدد وأقرب إلى طبيعة الشرم . وما كان أحد يلاحظ ذلك ، ولا سيما من الرعية التي كان يرعاها . وحين كان رجل راشد يخرق القوانين كان يتعرض للنجر أو الحرمان . وكانت مجموعات الشبان والشابات ، من يأتون لكتاب رضى الله والكنيسة (وهو شيء واحد) ، عرضة لايقاع عقوبة الحرمان ، وهكذا كان على الكثيرين من الشبان أن يخدموا سيدين في آن واحد ، فيسهرون عند خليلاتهم في الليل ويقصدون الكنيسة في النهار . وكان البديل الوحيد هو أن يتركوا الكنيسة نهائياً .

وكان موقف ستانلي أبوياً من جميع أهل القرية . فعلى المرء أن يكون صارماً بالنسبة لما يمتلكه . ويسبب ذلك أراد ليته أن يكون مثلاً طيباً للجميع ، وأراد لابنه أن ينشأ على الخلق القويم . ولكن الدوافع التي تحرك أعمال الإنسان قد تكون مختلفة . فما كان في مقدوره أن ينسى أنه فست قبل الزواج . وكان ستانلي أيضاً تائجاً لما أصاب القبيلة من تمرّق تحت تأثير الرباح الجديدة .

ولم تستغرق جولة الشراء وقتاً طويلاً . والتزم والده بما كان يسود بينهما من صمت ولم يشر إلى الليلة السابقة لا بالتصريح ولا بالتلميح . ووصل إلى البيت ، وكان جون يطمئن نفسه إلى أن كل شيء على ما يرام ، وفجأة ناداه أبوه .

- جون .

- نعم يا أبي .

- لماذا لم تأت للصلة في الليلة الماضية ؟

- نسيت . . .

- أين كنت ؟

لماذا تَسأْلني ؟ أَيْ حق لَكَ فِي أَنْ تَعْرُفَ أين كُنْتَ ؟ يوْمَاً مَا سأْتُورُ
ضدك .

ولكن جون أدرك فوراً أن هذا العمل العصبي أبعد من طاقته - إلا إذا
طرأ طارىء ما ودفعه إلى ذلك دفعاً . كان العصبيان يحتاج إلى إنسان يمتلك
مالا يمتلكه جون .

- أَعْفُ .. أنا .. أنا كُنْتَ ...

- عَلَيْكَ إِلَّا تَنَامْ مِبْكَراً قَبْلَ أَنْ تَتَمَّ صَلَواتُكَ . تَذَكَّرُ أَنْ تَأْتِيَ هَذِهِ
اللَّيْلَةِ .

- سَأَغْفِلُ .

شيء ما في صوت الصبي جعل الآب ينظر إليه . وانصرف جون .
وحتى الآن كانت الأمور معقولة .

حل المساء . ليس جون كالليلة الماضية ومشى بخطوات متزنة نحو
المكان المصيري أنت ليلة الحساب . وما كان قد فكر بشيء . بعد هذه الليلة
سيعرف الجميع . حتى المحترم كارستون سيعرف الأمر . وتذكرة المحترم
كارستون والكلمات الطيبة التي باركه بها في المرة الأخيرة . وما كان يجد فيه تذكرة
مثل هذه الأشياء ، ومع ذلك خطرت له الكلمات . كانت تبدو مكتوبة بوضوح
في أهواه أمامه أوفي القسم المظلم من عقله :

« أنت ذاهب إلى الدنيا . والدنيا تتضرر مثل أسد جائع لتبتلعك
وتنتهمك . لذلك احذر الدنيا . قال يسوع : تمسك بـ ... »

وشعر جون بألم . لم يغزه في لحظة وهو يتذكرة تلك الكلمات . وأخذ يتأمل
سقطه المقبلة . نعم . إنه ، جون ، سوف يسقط من ببابات السماء منحدراً
إلى ببابات الجحيم المفتوحة . آه . إنه يرى ما سيحدث ويعرف كل ما سيقوله
الناس . سوف يجتذبون صحبته وسوف ينظرون إليه شزاراً بنظارات ذات معانٍ

عديدة . ومشكلة جون أن خياله ضُحِم سقطه من الأعلى إلى حدود تتجاوز كل معقول . وأدى الخوف من الناس ومن العقاب إلى امتلاء تصوره للسقطة بالرعب القاتل .

واقتصر جون لنفسه كل أنواع العقوبات . وحين خطر له أن يفك في خرج لم يفتقد ذهنه إلا عن أساليب خيالية ومستحيلة . وعجز عن الاستقرار على رأي .

ولأنه عجز ، ولأنه كان يخشى أباء والناس ، ولأنه كان يجهل حقيقة موقفه من الفتاة ، أتى إلى البقعة المتفق عليها وليس لديه ما يقولها لها . وبداله كل ماسي فعله سيكون قاضياً عليه .

وفجأة قال لها :

- انظري يا واما هو . دعني أتحرك نفوداً . ويمكن أن تقولي إن غيري هو المسؤول . هناك فتيات كثيرات فعلن ذلك . وعندئذ يمكن أن يتزوجك الشاب الذي تلصقين به التهمة . بالنسبة لي الأمر مستحيل ، وأنت تعرفين ذلك .

- كلا . لا أستطيع أن أفعلها . كيف تغزو على .. على ..

- أعطيك مثني شلن .

- كلا .

- ثالثة .

- كلا .

وكان قد أخذت تبكي تقريباً . آلمها أن تراه هكذا .

- أربعون ، خمسة ، ستة ،

كان جون قد بدأ هادئاً ولكن صوته أخذ يتهدّج تدريجياً وأزداد تأثره .

وأخذ يغلب عليه اليأس . أكان يعرف عم يتحدث ؟ كان يتكلم بسرعة ،

وبلهث كأنها هي في عجلة من أمره . وكان الرقم يرتفع بسرعة - تسعة آلاف ، عشرة آلاف ، عشرون ألفاً

إنه مجنون . إنه يزيد . ويسرعه أخذ يتحرك في الظلام باتجاه الفتاة . ووضع يديه على كتفها وتسلل إليها بصوت أحش . وفي أعماقه ، كان شيء مرعب يدفعه ، هو صدى الغضب المتوعّد لوالده ولقربيه . إنه يهز وأماهه بعنف ، في حين أن عقله يطمسه إلى أنه يربت على كتفها بلطف . نعم ، فقد السيطرة على عقله . لقد ارتفع الرقم الآن إلى حسين ألف شلن وأخذ يزداد . وأماهوا خائفة . تتزع نفسها من بين يديه ، وتهرب من هذا المجنون ، من ابن المتعلّم لرجل دين ورع .

يمهري وراءها ويمسكتها ، ويناديها بكل أنواع الكلمات العزيزة . ولكنه يهزها ، يهزها ، يهزها ، . . . ها . . . ها .

ويطوق عنقها ويضغط . . . وتنಡ عنها صرخة مرعبة ثم تسقط على الأرض . وهكذا فجأة يتنهى الصراع ، وتتوقف الأرقام ، ويقف جون مرتخياً مثل ورقة شجرة في يوم عاصف .

ما أسرع ما سيعرف الناس أنه خلق ثم قتل .

عنوان القصة :

A Meeting in the Dark

James Ngugi

ملاحظة :

يعود الفضل في اختيار هذه القصة الشيرة إلى السيدة محمد موفق الشرع التي نشرنا لها ترجمات من إفريقية في هذا العدد .



الأشياء تتداعى

تشينوا أتشيجي

دراسة للدكتورة: ليلى الملاع الصابرية

قد يكون تشينوا أتشيجي Chinua Achebe روائي أفريقياً الأول وإن لم يكن كذلك فهو لاشك من أكثر كتابها شعبية ، ليس في القارة السوداء فقط بل في الأوساط الأدبية الأوروبية والأميركية أيضاً . وقد تكون روايته الأولى **الأشياء تتداعى** *Things Fall Apart* العمل الرئيسي الذي ساعد الكاتب النيجيري على انتزاع مكان الصدارة بين كتاب أفريقيا الغربية بشكل خاص وكتاب أفريقيا الأنجلوفونية بشكل عام . واستطاعت هذه الشعيبة المتزايدة في أواخر السبعينيات إلى سماح دولة عنصرية مثل أفريقيا الجنوبية

١ - نشرتها لأول مرة دار وليام هايسن عام ١٩٥٨ ، كما نشرت لأول مرة في سلسلة الكتاب الأفارة AfricN Writers Series عام ١٩٦٢ .

يندرس هذه الرواية في مدارسها الثانوية برغم مناوتها للدخول الأوربي (المتحضر)apis نشرت الأشياء تداعى عام ١٩٥٨ أي قبل استقلال نيجيريا بعامين فقط . وأصبحت بعد الاستقلال احدى المقررات الدراسية في الصفوف الاعدادية والثانوية لارتباطها بشعور الاعتزاز بالهوية الافريقية والماضي الافريقي . ففي عام ١٩٦٥ وحده نفذت عشرات ألف نسخة من الرواية في نيجيريا وحدها وأعيد طبعها مرات عديدة^(٢) .

وبالرغم من كون هذه الرواية باكورة انتاج أتشسي فإن شهرته الأدبية ترتكز عليها بشكل كبير بالرغم من توالي صدور روايات أخرى له لاتقل عنها قيمة من الناحية الأدبية على الأقل مثل *No Longer at Ease* (كيف فقدت السكينة ١٩٦٠) و*A Man of People* (١٩٦٤) و*Arrow of God* (١٩٦٦) .

لقد نالت الأشياء تداعى اعجاب الناقد الغربي والافريقي على حد سواء ، فقد اعتبرها الغربي أول رواية كلاسيكية تنبع من افريقيا الاستوائية تعيد خلق الميثولوجيا السوداء ، آهتها وأساطيرها وحكاياتها ، لتغنى عالمًا بدأ يضيق بمعرفته للميثولوجيا البيضاء ، فقط ، لتعرف بوجود كان قد أنكر ، ولتحكي فاجعة حضارة لم يأبه لها .

أما القاريء والناقد الافريقي فقد وجد في الرواية رؤية تحليلية ولكن بكثير من الشاعرية والانسانية لحياته قبل الغزو

٢ - أعيدت طباعتها عام ١٩٦٢ ، ١٩٦٣ ، ١٩٦٤ (مرتين) ، ١٩٦٥ (مرتين) ،

١٩٦٦ ، ١٩٦٧ ، ١٩٦٨ ، (مرتين) ، ١٩٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٨ ،

الأبيض وللتحول الفكري والنفسى والمعيشى الذى نجم عنه أساس الأوروبي الأفريقي . لقد أصبح أتشىبي بفترة وجيزة من الزمن موسى مدرسة أدبية تخصه يطبع العديد من الكتاب إلى مباراته وتقليله فقد استطاع أن يكون لنفسه جهوراً من القراء المحليين ومن العبث يمكن أن يتهمه أحد في أنه يتوجه في كتاباته إلى القارئ الأجنبى وليس إلى المواطن الأفريقي ، الاتهام الذى اضطرر أن يعاشه أتشىبي لفترة طويلة من الزمن . كما يمكن لأى باحث في الأدب الأفريقي أن يتقصى بكل سهولة الآثار الواضحة التي تركها الكاتب على العديد من المؤلفات الشابة الأفريقية كأعمال روبرت سيردماغا Robert Serumaga من أوغندا وجيمس نجوجي James Ngugi من كينيا ، وغيرهم كثُر .

لقد عمل أتشىبي على الإشارة إلى أهمية الفرد الأفريقي في صنع تاريخ إفريقيا ومن ثم حاضرها ومستقبلها ، وبعودته إلى الوراء زمناً إلى فترة ما قبل الغزو الأبيض ، أراد أن يذكر أبناء قارته بالكرامة التي اعتزوا بها يوماً ويضروا استعادتها والمحافظة عليها . يقول أتشىبي « لو كنت أنا الله ذاته لاعتبرت أعظم خطابانا قبولنا ، لسبب أو لآخر فكرة التخلف العرقى . لن يفيد الآن أن نفعل ونلوم الآخرين ، بالرغم من أنهم يستحقون اللوم والإدانة . ما نحتاج إليه هو أن ننظر إلى الوراء ونكتشف أين بدأنا نخطىء ، وفي أي زمان بدأ المطرizمنا . كما يؤكدى في مقالة له « الكاتب كمعلم » على أن مهمة الكاتب الأفريقي تتلخص في مساعدة مجتمعه على استعادة إيمانه بنفسه والتخلص من كل العقد التي ولدتها سنتين من الإهانة والذل والخنوع . وما كتابات أتشىبي ذاتها إلا عواولات ناجحة لإعادة خلق ديناميكية مجتمع حي .

نعم ، استطاع أتشيبي أن يعيد خلق عالم أفريقي بحث ، وأن يعيد هذا الخلق بنفس قوته وصلابة ووضوح رؤية الخالق ؛ لم يكن في كل هذا مفترجاً وإنما ارتبط بخلقه ارتباطاً عاطفياً جعل من الخلق وجوداً حيوياً حياً ينبع بالانسانية . وما يحاول أتشيبي قوله بكل بساطة هو أن أوروبا لم تعرف افريقيا على الحضارة بل أن تلك لها حضارة عريقة بها . لم يكن أمامه إلا أن يدير ظهره للاله الأبيض ويتجه من جديد إلى آلهة افريقيا السوداء يعيد الخوارطويل الذي انقطع بينه وبينها ويعيد تغيير وبناء ماتداعي من الأشياء . إن مايلمسه القارئ في هذه الرواية هو مفهوم الحضارة الذي يعتقد بجذوره إلى الواقع والحقيقة ، الواقع الذي يضم عالماً وجموعة من الأفراد تجمعها مباديء واضحة ومعتقدات راسخة ، عالم متكملاً غير أنه صغير . وهذا بالطبع عالم مثالي لا يمتلك فهناك الشمولية وهناك المحدودية ، هناك الوضوح وهناك المجاز ، هناك امكانية النجاح والتلقو كها في شخصية أوكونوكو Okonko البطل الرئيسي للرواية وهناك الفشل الذريع كما في شخصيته والده أوكيوي . لكل شيء في هذا العالم أهميته ، ليس فقط كل حدث وكل دافع ، وإنما كل فرد وكل شيء ، لكل شيء معناه لأن ما يرتبط بنظام الوجود الروحي والأخلاقي يتتدفق من خلال الوجود الفيزيولوجي . ولا يعترض هذا التدفق الوجودي أي شعور مغلق من الذاتية أو الفردية أو أي حجم يصعب احترافه .

يطرح تشنوا أتشيبي في رواياته موضوعاً رئيسياً يدور حول النتائج المأساوية التي أسفر عنها التماس الأوروبي الأفريقي .
ويعالج المشاكل الاجتماعية والنفسية التي خلفها ولوج الرجل الأبيض وثقافته في حياة الرجل الأفريقي وثقافته ، الحياة التي ظلت منغلقة على نفسها لفترة طويلة من الزمن مما أدى إلى التداعي والاضطراب اللذين هزا الوعي الأفريقي .

اختصار أتشبيهي الأسلوب المأساوي لمعالجة هذا الموضوع بدل الأسلوب الساخر الكوميدي كما فعل عدد من الكتاب الأفارقة بالرغم من أن هذا لا يعني عدم جدية هؤلاء ، والطرح المأساوي هذا يحتاج إلى تنظيم دراميكي خاص للأحداث يرتبط فيها كل حدث بالأخر ليسفر عن أنموذج مأساوي كما في الرواية الكوميدية تماماً حيث يتطلب كل موقف اهتماماً خاصاً يؤدي إلى التأثير المهزلي . فالمأساة تعني أن تطغى قدرية عنيفة على حياة الأشخاص تتجاوز قدرة الفرد على فهمها أو إيقاف حتمية حدوثها . وهذه المنهجية تحتاج إلى تطوير شخصيات ومواصفات على حد سواء . إن أهمية روايات أتشبيهي عامة والأشياء تداعي خاصة لاتتيح فقط من الموضوع بل من هذه القدرة على تمثيل وتقديم الشخصيات وهي تعمل وتتحرك وتتفاعل مع أقدارها بالإضافة بالطبع إلى رؤيتها الخاصة التي تقع وراء عالمه الخيالي وتسبح عليه واقعاً وحقيقة .

تكشف القراءة الأولى للرواية عن العناصر الرئيسية للقصة التي تدور في داخل شرقي نيجيريا (أرض الآييو) في قرية تدعى يوميوفيا فيها بين عام ١٨٩٠ و ١٩٠٠ . وأوكونونكو Okonkwo بطل الرواية رجل متوسط العمر (حوالي ٣٨ عاماً في بداية الرواية) من قبائل الآييو . يقضى أوكونونكو الجزء الأكبر من حياته عماولاً القضاء على صورة الإنسان الضعيف الخامنل التي ارتبطت بشخصية والده وكانت أن ترتبط به لولا أنه أثبت جدارته بين قومه ، أولاً كمحارب قدير ومصارع لا يقهـر ، ثانياً كمزارع جددـوب . يكاد أوكونونكو أن يكلـل أحـلامـهـ بـنـيلـ لـقـبـ عـالـ يـسـبـغـهـ عـلـيـهـ قـوـمـهـ ، غـيرـ أنـ حـادـثـةـ طـارـةـ أدـتـ إـلـىـ وـفـةـ صـبـيـ شـابـ حـالـتـ دونـ ذـلـكـ . فـقوـانـينـ الـقـبـيلـةـ حـتـمـتـ عـلـيـهـ أـنـ يـرـبـ وـعـائـلـتـهـ إـلـىـ قـرـيـةـ مـجاـوـرـةـ لـسـبـعـ سـنـينـ . خـلـالـ هـذـهـ الـأـعـوـامـ مـنـ النـفيـ ، تـبـدـأـ فـلـولـ الرـجـلـ الـأـيـضـنـ فيـ غـزـوـ بـلـادـهـ عـلـىـ شـكـلـ بـعـثـاتـ تـبـشـيرـةـ وـمـعـوـثـينـ رـسـمـيـنـ مـنـ الـحـكـوـمـ الـبـرـيطـانـيـةـ . يـعـودـ أـوـكـونـونـكـوـ مـنـ نـفيـهـ لـيـحـثـ أـبـنـاءـ يـوـمـيـوـفـيـاـ عـلـىـ مـجـاهـةـ الرـجـلـ

الأبيض ومقاومته بل طرده من المنطقة كلها . غير أن أهل البلدة لا يقدمون له الدعم المطلوب . تتطور الأحداث وتؤدي إلى مقتل أحد رسل الرجل الأبيض ، يكتشف بعدها أوكونكو أنه فقد دعم قبيلته له ، وأن أبناء جلدته قد تخلوا عنه للرجل الأبيض ، فيشق نفسه .

يكاد يكون هذا التلخيص المقتضب هيكلًا أجوف لرواية أتشيبي ، فالتغييرات والتجديدات التي أدخلتها أتشيبي على فن الرواية لا يمكن تلخيصها بل لا يمكن اكتشافها إلا بعد التمحيص في النص ذاته .

تنقسم رواية الأشياء تداعى إلى ثلاثة أجزاء رئيسية . الأول ، ويشمل أكثر من نصف الرواية ، بفصوله الثلاث عشرة ، يرسم بشكل مفصل صورة واضحة ثابتة للحياة التقليدية في بلاد الأيبو قبل قيوم الرجل الأبيض . يتسم هذا الجزء باهتمامه بالحقائق الاجتماعية والبيئية غير أنه يشكل البذور التي تشر في الجزيئين التاليين حيث يبدأ الصراع بين العالمين ، القديم والجديد . يتضمن هذا الجزء جوهر الصراع الذي يمثله أوكونكو (المجتمع التقليدي) في عدم قدرته على التكيف أو تقبل نمط جديد مختلف لتقاليده . أما الجزء الثاني من الرواية ، ويشمل الفصول الرابعة عشرة وحتى التاسعة عشر فهو يتحدث عن نفي أوكونكو من يوموفيا ويرسم الصراع النفسي داخل أوكونكو ورغبة الملحة في العودة إلى بلدته لتخلصها من الغازي الأبيض . يتبع الجزء الثالث (الفصل العشرون إلى الخامس والعشرين) عودة أوكونكو إلى يوموفيا ومحاولته العقيمة في حشد قومه لمقاومة الرجل الأبيض .

من الواضح أن في نية الكاتب في الجزء الأول من روايته التفرغ لوصف عالم محدد تقليدي يمعزل عن كل تأثيرات العالم الغربي على الاطلاق . ويكاد يخلو هذا الجزء من أيّة عقدة أو تطور في الحدث أو القصص الرواقي فيها عدا بعض المشاكل التي تعرّض بطل القصة من وقت لآخر . تستطيع مادة هذا الجزء أن

تحول بذاتها إلى رواية بانورامية مستقلة تصرف إلى وصف قبائل الأيبو في عالمها الخاص بها ، ممارساتها وتقاليدها ، تبرز قيمتها الانثروبولوجية من التبع الدقيق لمعالم أسلوب حياتي بدأ بالاندثار . غير أن أتشبيي يصاعد الحدث في الفصل الأخير من هذا الجزء فقط عن طريق اختلاق حادثة مقتل الشاب فلقي أوكونوكو معلناً بذلك انتهاء المهمة السردية الانثروبولوجية السوسنولوجية البحتة للقصاص وابتداء التفاعل الحتمي بين الشخصيات والأحداث . تساعد قراءة هذا الجزء على فهم معنى عنوان الرواية بل الغاية التي يرمي من ورائها الكاتب : ما سيتداعى هو الحياة التقليدية التي جهد الكاتب في تقديمها ووصفها للقارئ « حية ممتدة مختلفة غنية » .

يتمتع عالم قبائل الأيبو الذي يغدو أتشبيي في وصفه بعزايا تحمل منه عالماً متفرداً . فهو عالم مابين الأوتوقراطية والديموقراطية في وقت واحد ، تعيش فيه الأسر القبلية في إطار (أنيبي) تتحاور بينها وتجمّع على القرارات التي تتخذها . في نفس الوقت ، يسمع هذا النظام (الديموقراطي) بظهور وبروز فرد واحد تميزه المكتسبات الشخصية . فمجتمع الأيبو يحترم السن من جهة ويحترم الجهد الشخصي من جهة أخرى وتكاد تعكس هذه الأخيرة التشتت المطلق بقيم الشجاعة والإقدام والقوة الجسدية . بمثل هذه القيم يفتح أتشبيي روايته معرفاً ببطله أوكونوكو :

عرف أوكونوكو في القرى التسع وحتى ماوراءها . ولقد بنى شهرته على منجزات فردية صلبة . فعندما كان شاباً في الثامنة عشر من عمره أصبح على قومه شرف التغلب على أماليتز الهر . كان أماليتز أعظم مصارع لم يقهره أحد لسبعين من يوميوفيا وحتى مبيسو . وقد لقب بالهر لأن ظهره لا يمس الأرض . لقد استطاع أوكونوكو أن يرمي هذا الرجل أرضاً في قتال أجمع المستون

على كونه الأعنف منذ قام مؤسس بلدتهم باستقطاب روح الشر لسبعة أيام وسبع ليالٍ^(٣) .

وبالرغم من أن رواية أتشيني تبتدئ بكلمة (أوكونوكو) كذلك الفصول الثلاثة الأولى إشارة إلى محوريته وأهميته في العمل فإن (البطولة) في هذه الرواية تأرجح مابين شخصيتها الرئيسية أوكونوكوبين مجتمع الآيودانه ، فالكاتب يتتجنب الوصف المباشر لشخصية ما ويفضل أن يلجأ إلى ابراز جوانب التضاد أو المقارنة مع أفراد القبيلة الآخرين : « كان أماليتز لاعباً ماكراً ، بينما كان أوكونوكو ماهراً في الانزلاق كما تنزلق السمكة في الماء » . ولا يعطي أتشيني الكثير من التفاصيل حول بنية أوكونوكو الجسدية فيها عدا إشارة هنا أو هناك إلى أنه كان « طويلاً وضخماً » ، وان حاجبيه الكثيفين وأنفه العريض أسبغا عليه نظرة قاسية جداً . ربما يذكرنا هذا بما قاله ليونغ luyong بإن « شعور الاحترام لدى الأفريقي ... يمنع الكاتب من التحدث في وجه الآخر كما يفعل ثعبان الأنهار »^(٤) .

أو كما يفعل الكاتب الأبيض عندما يحدق في الأسود . في روايته السيد جونسون يصف جويس كاري السيد جونسون كالتالي :

ليس السيد جونسون غريباً بسبب لمحته فقط ، بل بسبب لونه . فهو أسود كاللدفة ، يكاد يكون زنجياً (صافياً) بأنفه القصير وشفتيه الناعمتين المليتين . وهو شاب ربما في السابعة عشر من عمره ، يبدو يافعاً ، أما رقبته ورجلاه فهي طويلة ونحيلة للغاية بالنسبة لجسمه الصغير الذي يشبه بتحوله أربناً مسلوخاً . وأما أطرافه فسابقة كأطراف صبي . يجلس وقد رفع ركبتيه إلى

٣ - تشينوا أتشيني ، الأشياء تنداع ، هاينان ، ١٩٧٧ ، ص ٣٢ .

Africa Report , X (Dec. 1965) 43.

- ٤ -

أنفه مبتسمًا لبامو ، فوق قماش سرواله القطبي الأبيض المشدود . بدأ ذلك المهرج الذي يرسمه طفل على وجهه وهو ينظر إلى مائدة عيد ميلاد ويقول « أه ، نعم أنت جميلة - فتاة جميلة » .

وإذا كان الكاتب الأفريقي يشيخ بوجهه احتراماً ولا يصدق بالآخرين فإن أتشيبي لم يشيخ بوجهه تجاه الماضي الأفريقي في هذا الجزء من روايته بل انطلق عدقاً حتى في صفات ممارسات أهالي الإيو بباحث عن هوية الأجداد وشخصيتهم المشizza باعتبار أخلاقيتهم التقليدية ، مذكراً بنظم الأشياء وبالمثل التي قومت الأعمال من تعلها ، عدلاً ، مبرراً أو حتى متدهشاً في بعض الأحيان . يتحدث عن الدين مثلاً قبل التبشر المسيحي فيجد أنه مزيجاً ضيقاً من الغموض الروحي الصوفي والعملية البحنة ، يسد احتجاجات الراهبة واليومية العملية في نفس الوقت ، يسير مصائر أتباعه بل تتحقق حيوته من أخلاقه هؤلاء الأتباع ومن دعمهم لهذا الأخلاص بالأفعال المؤمنة .

دعت (Anthropologie) هذا الجزء من الرواية إلى ذاك الاتهام الذي يعنّف الكاتب أغراقه في الشروحات الاجتماعية البيئية وتوجهه في ذلك إلى القاريء الغربي ليشهده إلى غرابة واختلافه . ثيمة طالما وجهت إلى كتاب العالم الثالث عندما يتحدثون بصوت عال لدى بحثهم عن أنفسهم .

لذا يعتبر الجزء الثاني من الرواية (الفصول ١٤ - ١٩) والذي يحكي عن سنوات نفي أوكونوكو في مبانٍ أكثر تقليدية ، أكثر (غربية من الجزء الأول) فالكاتب يخفف من اعتقاده على الحقائق البيئية المعيشية ويزيد اهتمامه بعقدة الرواية وتطور عامل التشويق فيها ، ومع هذا يتلاشى الاهتمام ببطل الرواية وتفاعلاته مع الحدث بالتدرج ويرى غرض أتشيبي أكثر وضوحاً : تسجيل قドوم

الرجل الأبيض إلى شرفي تجبر يا ورصد أخلاق اجتماعي وليس أخلاقاً
الفردي الناجم فحسب .

يستمد هذا الجزء، أهميته ليس من الأمانة التاريخية التي ترقها الكاتب بل
من مملكته القدرة على عكس الوعي الجماعي بكثير من التفهم والمحبة . لاشك
أن الجزء الثاني من هذا العمل يعتبر أفضل ما كتبه روائي في تصوير التصادم
الأفريقي الغربي في مراحله الأولى ، بكل عفويته وسذاجته ، بتلك التعليقات
التي تصف البيض بأنهم « بعض كقطع الحوار » أو تلك التي تصف شخصاً
مصاباً بالجزام بأن جلدته الأبيض يجعله يبدو كرجل أبيض . أو وصف الرؤبة
الأولى للرجل الأبيض :

« خلال فصل البذار الأخير ظهر رجل أبيض في قبيلتهم . . .
كان يركب حصاناً حديدياً . فرأوا ذلك الذين رأوه أولاً ، غير أنه وقف وأشار
إليهم . أخيراً تقدم الشجعان منهم ويسوه . أما الأكبر سنًا ، فقد استشاروا
كهنتهم التي أعلنتهم بأن الرجل الأبيض سيمرق في قبائلهم وينشر الحرب
بينهم . لهذا قتلوا الرجل الأبيض وربطوا حصانه الحديدي إلى شجرتهم
المقدسة فقد بدا وكأنه سيف لينجد أصدقاء الرجل الأبيض . . . قالت الأرواح
أيضاً أن مزيداً من الرجال البيض قادمون ، قالت أئمهم الجراد وأن الرجل الأول
كان الرسول الذي أتى مستطلاً على الأرض . وهذا قتلوه »^{١٣}

في الجزء الثالث من الرواية يتواتد المبشرون بالدين المسيحي ويرصد
أنشئي الانساق التدريجي إلى الدين الجديد . لم يعتقد هذا الدين أولاً أقوياء
ال القوم بل ضعفاءهم ، من كانت نسبته القليلة والعشيرة فوجد في الكنيسة
مأواه . يرصد أنشئي التغلغل المسيحي في معتقدات أبناء الأيوبيين من
الحساسية والموضوعية وبخاصة من خلال تقديمها لشخصية المبشر السيد براون

وحنكته في مجدور الدين الجديد بكثير من التزدة والقليل القليل من المجايبة ، أراد السيد براون أن ينسن إلى قلوب وأذهان القرروين اسلاماً مدركاً تمام الارادك أن وطأة اهلويني تقود إلى الطريق الذي يبغى دون إثارة الضجيج والغضب . يحاول أولاً أن يفهم هو الدين المحلي والمعتقد السادس قبل أن يعمل على عبيده . يلخص الفصل الواحد والعشرون سياسة السيد براون المترقبة فهو يحاور الأفراد مقتناً ومتعددًا ، يقرب فكرة الله الواحد إليهم ويبذر أوجه التشابه بين لهم تشوكوو Chokwu والله المسيحي ، وكما هي العادة في جل أوضاع العالم الثالث يفتح مدرسة ومن ثم مشفى ، يعني المتاجر بالبضائع ، يشتري السلع بأسعار أغلى ، يرسخ هو ، ينداعوا هم :

لم تكن عودة أوكونكو إلى مسقط رأسه عودة لاتنسى كما ثمنى ... لقد تغيرت العشيرة تغيراً كبيراً خلال فترة نفيه ولم يعد من السهل التعرف عليها .

لقد أصبح الدين الجديد والحكومة الجديدة والمتاجر كلها الشغل الشاغل لعيون وأذهان الناس .^(٤)

لابد من أتشبي في روايته المسيحية ولا يطلب في مدحها ، يعقد مقارنات فقط مع الأديان المحلية وبخاصة الأرواحية Animism التقليدية ويعترف بأن الفروق تبدو مذهبة . ما يتوقف عنده الكاتب هو المرونة التي يتحلى بها حامليوا الدين الجديد بالمقارنة مع صلابة وتشنج أصحاب المعتقد القديم . بل يشعر القاريء وكان الكاتب يعتمد ابراز قيمة هذه المرونة في شرحه المستفيض للطريقة المترقبة المرأة المتمهلة ، التي مكتت البشر الآبيض من نشر معتقده في رقمة من الأرض تسود فيها قيم الشدة والشجاعة والباس والتضامن ، ولربما كان من ضروب السخرية أن يُهزم محارب قدير كأوكونكو لتشنجه ومقاومته للتغيير ، وينداعى مجتمع أيضاً لالشيء إلا لأنه أبدى مرونة وتقبلًا سريعاً (للمعهد

الجديد) . من سخريّة القدر أن أوكونوكو مثلاً يعود إلى بلده ليشهد كيف يستل الدين الجديد حتى ولده نووي Nwoye : كان هناك شاب يافع أسرته المسيحية وكان اسمه نووي وهو ابن الأكبر لاوكونوكو . لم يأسره المنطق المجنون لفكرة الثالوث ، فهو لم يفهمها . أسرته شاعرية الدين الجديد ، أسره ذلك الشعور الذي تخس به وهو يسرى في عظامك . لقد استطاعت الترنيمة التي تحكي عن آخرة جلسوا في العتمة وأخروف أن تخيب عن تساوٍ لغامض وملح كان يتناسب روحه الشابه - قصة التوأميين اللذين يكيا بين الشجر وقصة اكيافونا الذي قتل ، شعر بالارتياح عندما انصب تلك الترنيمة داخل روحه العطشى . لقد كانت كلمات تلك الترنيمة كقطرات مطر محمد ذات في الخلق الجاف للأرض اللاهثة . كانت حيرة العقل الغض لنووي حيرة كبيرة .

تبرز نّيّمة التصادم الثقافي ثيّمة أخرى يحاول من خلالها أتشيبي أن يصل إلى حل وسط . فمعايير أوكونوكو الأخلاقية التي تلتزم بمبادئ « تقليدية معروفة وموافق مشرفة تقوده في النهاية إلى موت غير مشرف (إذ يشنق نفسه كما يبين الجزء الثالث) ». كذلك فإن مجتمعه الذي انحني تحت وطأة الضغوط التي تعرض إليها وغير من مبادئه يقهـر في النهاية أيضـاً . يضع أتشيـبي مسؤولية الانهيار الذي تعرض له مجتمع الأبيو على أكتاف العشيرة والفرد معاً ، فهم ليسوا ضحايا « الامر بالآية البضاء » بكل بساطة ، وأتشيـبي فنان مرهف لا يمكن له أن يلخص الوضع بمثـل هذه السهولة بل يصور الأبعـاد المركبة المختلفة للموقف . فالتداعي الذي نجم كان حصيلة أخطاء داخلية بالإضافة إلى قوى خارجية قاهرة . لن يستطع أوكونوكو بعد الآن أن يعتمد على قوته العضلية فقط ولن تفعـم الرجولة والصلابة التي تغـنى بها أتراـه في مواجهـة الغزو الأبيـض ، لقد فقد سيطرـته حتى على أبنائه .

« تصاعد غضب فجائي داخله وشعر برغبة كبيرة فيأخذ رحمه والذهب إلى الكنيسة ليبيد تلك الشرذمة الخبيثة الكافرة »

لقد استقر دين كريه بينهم . أصبح الواحد (نوري) يترك آباء وآخواته ، يستطيع أن يلعن آله آبائه وأجداده كما يفعل كلب صيد عندما يجئ جنونه فجأة وهاجم صاحبه .

لقد شطر الغازي الأبيض مجتمع الايوالى شطرين وأوبيريكا الشخصية الحكيمية في الرواية تندربأن آية مقاومة للكنيسة ستعنى مقاومة أبناء العشيرة فالأبيض لم يحضر معه ديناً جديداً فقط وإنما أتى بحكومة جديدة أيضاً بذات تتدخل حتى في أمور الأرض وملكيتها والنزاعات حولها . يسأل أوكونيكو أوبيريكا فيما إذا كان الرجل الأبيض يفهم عادات قومه فيها يتعلق بالأرض فجبيه :

وكيف يمكن ذلك وهو لا يتكلم لغتنا؟ غير أنه يقول بأن عاداتنا سيئة ! كذلك فأخواتنا الذين اعتنوا الدين الجديد يقولون أيضاً أن عاداتنا سيئة . هل تظن أننا نستطيع المقاومة عندما ينقلب أخواتنا ضدنا ؟ إن الرجل الأبيض ذكي جداً ، فلقد جاء بدينه بهدوء وسلام . ضحكتنا لخفاقه وسمحنا له بالبقاء والآن كسب أخواتنا ولم يعد يسع القبيلة أن تبقى يداً واحدة . لقد وضع سكينه فوق الأشياء التي كانت تربط بيننا وجعلنا نتداعي * .

عندما يقسم اينوخ ، أحد معتنقي المسيحية الغيورين ، بإزاحة القناع عن وجه ايغويغيو Egwugwu المقدس يعلم الجميع أن اينوخ قد قتل بهذا روح الأجداد . بدا الأمر وكأن «روح القبيلة ذاتها بكت للش العظيم الذي يتوقعها - موتها ذاتها» . تتصاعد الأحداث بشكل هستيري ويقرر أوكونوكو أن يخلص قومه من اللعنة التي حلّت بهم . تحرق كنيسة الرجل الأبيض ، إلا أن أوكونوكو

وخمسة من قادة القبيلة يلقون في السجن بأمر من المفوض البريطاني وي تعرضون لشئ الاهانات . هنا يجبر المفوض البريطاني أهالي يوميوفيا على دفع مائتي كيس من قطع نقود الكوري لصلاح الكنيسة المحطمة ولا يطلق سراح القادة الستة إلا بعد دفع الغرامة مضاعفة . تدعى القرية لعقد اجتماع تبحث فيه ضرورة شن الحرب ضد الرجل أبيض أو عدمها ، غير أن رسولًا (أبيض) يأمر بانقضاض الاجتماع . ويتهي الفصل ما قبل الأخير من الرواية بمحاولة أوكونوكو في حث قومه على المجاهدة الدامية متخذًا من نفسه مثلاً :

في لحظة واحدة استل أوكونوكو فأسه . انحنى الرسول لتفادي الضربة ولكن هذا لم يفده بشيء ، فقد انهال فأس أوكونوكو مرتبين وقبح رأس الرجل قرب الجسد المرتدي البدلة الرسمية توقف الاجتماع . وقف أوكونوكو ناظرًا إلى الرجل الميت . عرف أن يوميوفيا لن تخوض حرباً . عرف ذلك لأن أهل يوميوفيا قد سمحوا للرسل الآخرين بالهرب وبدل الانظام في عمل مجد سيطر عليهم الشعب ، بل لم الخوف في ذلك الشعب ، لقد سمع أصواتًا تتساءل « لماذا فعل ذلك ؟ »

مسح فأسه فوق الرمل وقف عائدًا .

(ص ١٤٤ - ١٤٥)

يعتبر الفصل الأخير في رواية الأشياء تداعى من قمم الكتابة الأفريقية المعاصرة . ففي أقل من ثلاثة صفحات ينسج أنتسيبي معاً ويوحد بين الماضي والمناذج التي كان يعمل على طرحها وتطورها في معظم روايته ، يلقي نظرة أخيرة على المجتمع المهدد بالتداعي بكل فضائله وأخطائه بإنسانية شاسعة واسعة وينقل نظرته فجأة إلى من سبب التداعي ببرود متعمد قاس في أقل من ثلاثة صفحات يلخص أنتسيبي العالمين : عالم الطقوس والخرافات والأساطير ، عالم الشجاعة والكرامة والرجلة ، عالم الشعوذة والسحر ، عالمًا

كاملًا مقنعاً حياً؛ وعالم المفوض البريطاني الذي لا يجد في قصة أوكونوكو وشعبه أكثر من مادة جيدة يستطيع أن يضمها في الكتاب الذي يتولى تأليفه. لقد اختار عنوان الكتاب «المصالحة بين القبائل البدائية في إقليم نيجيريا الجنوبية». «لاشك أن قصة ذلك الرجل الذي قتل مبعوثاً بريطانياً، وشنق نفسه ستكون مادة شيقة. يستطيع الواحد أن يكتب فصلاً كاملاً حوله. ربما ليس فصلاً كاملاً وإنما فقرة معقوله الطول على أية حال فقد كانت هناك أشياء أخرى يجب تضمينها وعلى المرء أن يكون حازماً في حذف بعض التفاصيل».

(ص ١٤٧ - ١٤٨)

يؤكد أتشبي على المسافة الفكرية والنفسية والزمنية التي تفصل بين البريطاني المستعمري والافريقي من خلال وصفه لحادثة شنق أوكونوكو نفسه :

عندما وصل مفوض المقاطعة إلى منازل أوكونوكو على رأس ثلاثة من الجنود المسلحين وبمعونته القصر وجد جميرا صغيرة من الرجال يجلسون بإعفاء في الخيمة الكبرى. أمرهم بالخروج فأطاعوا بدون أية هستة.

من منكم يدعى أوكونوكو؟ سأله عن طريق مترجم؟

ليس هنا ، أجاب أوبريكاكا.

أين هو؟

ليس هنا؟

غضب المفوض واحمر وجهه . أندر الرجال بالسجن جميعاً مالم يعرفوه على أوكونوكو . تهams الرجال فيها بينهم ثم تحدث أوبريكاكا ثانية .

(نستطيع أن نأخذك إلى حيث هو ، ربما يستطيع رجالك مساعدتنا) .

لم يفهم المفوض ماعنده أوبريكاكا يقوله « يستطيع رجالك مساعدتنا» .

فكراً بأن أحدي عادات هذا الشعب المثيرة للاعصاب حبهم لفائض الكلام .

يقود أوبيريكا المفوض إلى حيث شنق أوكونكون نفسه ، ويسأله فيما إذا كان بمسطاع رجاله إنزاله :
لماذا لا تستطيعون إنزاله بأنفسكم ؟ تسأله قائلاً .

هذا يعارض عاداتنا . قال أحد الرجال . من الكريه لدينا أن يستل إنسان روحه بنفسه ، إنها إهانة ترتكب ضد الأرض ، ولا يمكن لأي إنسان يقترب هذه الإساءة أن يدفن من قبل أبناء قبيلته . فجسمه شر ، ويمكن للغرباء فقط أن يمسوه ، لهذا طلبنا منكم إنزاله ، لأنكم غرباء » . (ص ١٤٦ - ١٤٧ -)

لقد استطاع اثنين أن يعبر عن انحيازه تداعياً مجتمع تقليدي كاملاً فردية وعامة في نفس الوقت . مما صاعد التداعي وزاد من حدته وسرعته هو الانقسام الداخلي من جهة والضغوط الخارجية من جهة أخرى . بل يمكن أن ينظر إلى الرواية كنقطة من عالم سالم آمن بكل أخطائه إلى عالم قلق غير متوازن بكل فضائله . ولربما حق اثنين في هذه الرواية ما كان يطمح إليه في كتاباته : « سأشعر بالرضى فعلًا إذا استطاعت روائيتي ، (وي وخاصة تلك التي تدور أحداثها في الماضي) لا تفعل شيئاً سوى تعليم قرائي أن ماضيهم - بكل مثالبه - لم يكن ليلاً طويلاً من الوحشية أنقذه منهم الأوروبيون الأوائل »

لابعد نجاح رواية الأشياء تداعياً إلى التصوير الذكي الحساس للتتصادم الغربي الأفريقي وحده . كثيرة هي المحاولات الأدبية التي حاولت تحليل هذا الصراع بين الشرق والغرب ، المستعمر والمستعمير ، بالرغم من أن عمل اثنين هو من أبكر وأنجح أعمال العالم الثالث على الإطلاق . ربما استمدت الرواية قوتها الأدبية وجاذبيتها للقراء من قدرتها الهائلة على المزج والتوفيق ما بين الفن الروائي الغربي والشخصية الأدبية الأفريقية . لقد طبع

أتشيبي الأسلوب التقليدي الغربي ، واستنبط لغة انكليزية أغنت بالحس الافريقي والروية الافريقية ، لقد ساعد انتهاء أتشيبي إلى الأدب المحلي الشفهي غير المكتوب الذي توارثه جيلاً بعد جيل ، وإلى التقاليد الأدبية الانكليزية التي اكتسبها عن طريق التعلم والثقافة ، أن يزاوج بين التراثين ليولد نثراً انكليزي اللسان ، افريقي البشرة . أطاعتة اللغة بل تكيفت معه بسحر عجيب مكنه من التعبير عن أدق التجارب وأكثرها محلية ، لم يمنعه طموحه للوصول إلى كتابة عالمية تسمو فوق المحلية الضيقة من عكس الشخصية الذاتية الفردية لشعب الاييو . وربما تكون أكثر انصافاً إذا ما لخصنا الأسلوب الأتشيبي ، بأنه محاولة لتقديم رواية العالم الثالث إلى العالم الكبير ، بحيث لا يفرط باللون والحس المحلي أمام متطلبات العالمية والشمولية .

مانفرد به أتشيبي في الخمسينات من هذا القرن وما أصبح أنموذجاً حيكت مثاث الأعمال مقلدة له ، هو أفرقة الأسلوب الانكليزي عن طريق (تطعيمه) بالمفردات والصور والرموز والايحاءات الافريقية البحتة ، ويقاد يكون استعمال المثل الشعبي للتعبير عن موقف ما من أحب الوسائل إلى أتشيبي ، والتراث الشعبي غني بهذه الأمثلة الحكيمه ، والكاتب يقر بأن « الأمثال كزيت النخل الذي لا تؤكل الكلمات بدونه » .

لاتنقل الأمثال المستخدمة في روايات أتشيبي حكم الأجيال المتوارثة فقط بل تكتسب صفات أدبية بجرسها وألوانها وصورها الغربية ، لاتشير إلى المنحى الخلقي والقيم السائدة فحسب وإنما تسهل بعدها عميقاً على الشخصيات ذاتها . فعندما ينتقد كبار القوم عجرفة ومبالغه أوكونكو يقول أحدهم :

« من ينظر إلى فم الملك يعتقد أن هذا الفم لم يرضع من صدر أمّه »

أو « قال الضب عندما قفز من أعلى شجرة ايروكو إلى الأرض بأنه سيمدح نفسه إذا لم يمتدحه أحد ! »

يستخدم أتشيبي الحكاية المحلية التي تناقلتها الأجيال من فم لأخر بنفس الاندفاع الذي يستخدم به المثل العالمي ، فمثل هذه الحكايا يتوقف لدى نقطة أو غاية أخلاقية تتعكس بدورها على الموقف أو الشخصيات . وتبرز الصور المستخدمة في كل من المثل أو الحكاية وحتى اسلوب الكاتب العام غنية بارتباطات جديدة (بالنسبة للقارئ الغربي على الأقل) واسارات طريفة .

هكذا مثلاً يشكر أحد كبار القوم أوكونكو على وليمته العamerة :
بعد أن احتسي نبيذ التخييل وقف أحد الأعضاء المسنين من الأوموناليشكراً أوكونكو .

لوقلت أنا لم نتوقع وليمة عظيمة كهذه لبدوت وكأننا لم نعلم مقدار كرم أوكونكو وسعة يده . نحن نعرفه جميعاً ، وكلنا توقع وليمة كبيرة ، شكرأ ، ندعوه أن يعود كل ما أنفقه أضعافاً مضاعفة . . . عندما يدعورجل أقرباءه إلى وليمة فهو لا يفعل ذلك ليتجنبهم الموت جوعاً . فلديهم جميعاً طعام في منازلهم . وعندما نجتمع معاً في ساحة القرية التي يضيئها القمر ، لأنفع هذا من أجل القمر . فكل واحد منا يستطيع أن يرقب القمر من بيته . نجتمع معاً لأن من الجيد للأقرباء أن يجتمعوا .

يتدفق الجرس الموسيقي في كتابات أتشيبي من الأمثال والحكايا والصور ومن الاستخدام الوعي المقصود للكلمات والأسماء الأفريقية . فللأسماء والكلمات الأفريقية بغرابتها أو بالأحرى باختلافها وقع يعطي بعداً آخر للكلمات المألوفة التي ترصف إلى جانبها .

« أصبحت ولادة أطفال لإيكويفي ، الشيء الذي يجب أن يعتبر اكليل نجاح آية امرأة ، عذاباً جسدياً لاطائل من ورائه . لقد أصبحت احتفالات

تسمية الأطفال التي تبدأ بعد سبعة أسابيع سوق احتفالات لامعنى لها ، ولقد انعكست خيبة أملها في الأسماء التي اختارتها لأطفالها ». كانت احداها صرخة حزنة أونومبيكو- « أتضرع إليك أيها الموت » غير أن الموت لم يبال ؛ مات أونومبيكو في شهره الخامس عشر . كان الطفل الثاني انتى . أوزومينا - « أدعوه لا يحصل هذا ثانية ؛ توفيت في شهرها الحادي عشر ، واثنين آخرين بعدها ، أصبحت أكويغي بعد ذلك أكثر تحدياً وأسمت ابنها التالي أونوما - ليأخذ الموت راحته ، وهكذا فعل .

إن تجربة ولوح عالم أتشيبي فكراً ولغة تجربة فريدة قد تنافس نشوتها نشوة القراءات الاغريقية والأساطير والملاحم (البيضاء) التي أغنت التراث الانساني لمئات السنين . لقد أزف الوقت لتغنى القارة السوداء الميثولوجيا العالمية بواحد من تراثها ، وهذا ما فعلته فعلًا في السنوات الثلاثين الماضية .



ولد الكاتب عام ١٩٣٠ ، أحد أوائل الخريجين من جامعة ابادان ، نيجيريا . كان والده مدرساً تبشيرياً . بعد زيارة الولايات المتحدة انضم آشيبي الى شركة الاذاعة النيجيرية عام ١٩٥٤ . وعندما استقال سنة ١٩٦٧ كان مدير الاذاعة الخارجية . يعمل الآن في الجامعة النيجيرية قسم الدراسات الأفريقية في (NSUKKA) . تعتبر روايته « الاشياء تسقط منفصلة » من افضل انتاجه ، كتبها عام ١٩٥٨ ، والقصة التالية « موت صبي » مقتطفة منها .

عندما قُتلت امرأة من عشيرة اوكونكوفي بلدة مجاورة ، طلب كبار العشيرة بنتاً عذراء وصبياً في الخامسة عشرة كتعويض ورهينة . اعطيت العذراء لزوج الفقيدة ، وارسل الصبي « اكمفونا » الى عهدة اوكونكوفي ليربى مع ابنته (نوبى)

شجع اوكونكوفي الصبيان على مجالسته ، وكان يحكى لهم قصصاً عن الأرض - قصصاً بطولية ذكرية عن العنف واراقة الدماء . عرف نوبى انه يجب أن يكون ذكرياً وعنيفاً ، لكنه بقي يفضل قصص امه عن السلحافة وطرقها الماكرة ، وعن الطير (اينكي - نتى - أوبيا) الذي تحدى العالم كله لحلبة المصارعة ، ثم دحرته هرة . كان يتذكر قصة طالما روتاه له امه عن صراع قديم بين السماء والأرض ، وكيف حبس السماء الامطار لسبع سنوات ، حتى ذوت المحاصيل ، ويقي الموتى دون دفن لأن المعاول كانت تتكسر في التربة المتحجرة . من ثم بعث النسر يلتمس عطف السماء بأغنية ليرق قلبها مما يكابده ابناء الانسان على الأرض .

وكلما غنت امه تلك الاغنية كان يحس بنفسه يبتعد عالياً في الفضاء ، حيثما يرخ النسر ، رسول الأرض يعني للرحمة ، في النهاية اشفقت السماء واعطت النسر مطراً مصروراً بورق اليام^(١) ، وخلال طيرانه عائدأ ثقبت مخالبه الاوراق ، وسقط المطر بشكل لم يسبق له مثيل . وانهم بغزاره شديدة على النسر ، فطار باتجاه أرض نائية ، حيث لمح ناراً . وعندما اقترب منها وجد رجلاً يقدم ضحية ، يتدفقاً بالنار وياكل محتويات الاحشاء .

أحب نوبى هذا النوع من القصص ، ولكه عرف الآن ان هذه الحكايا

(١) اليام : نوع من البطاطا الحلوة ، يشبه شكله جذع شجرة ، وقشرته الخارجيه قاسية . يعتبر اليام

الغذاء الرئيسي للشعوب الافريقية .

خاصة للنساء الحمقى والاطفال ، وان والده يريده رجلاً . لذا فقد بدأ يتظاهر بعدم اهتمامه بالحكايات النسائية . مما سر والده منه وجعله يتوقف عن توبيقه وضربه . وهكذا أصبح نوبي واكمفونا ينصنون لقصص اوكونوكو عن حروب القبائل أو كيف قنص ضحيته ، وأخضعه ونان أول رأس بشري له .

وبينما يخبرهم عن الماضي كانوا يجلسون في العتم أو وهج الخطب الخافت ، ينتظرون النساء ليتهيئن من الطهي . ثم تجلب كل واحدة طاسة من الفوفو^(٢) وأخرى من النساء لزوجها . يشعل ضوء الكاز ويتدفق اوكونوكو من كلّيهما ثم يمرر حصتين الى كل من نوبي واكمفونا .

بهذه الطريقة مررت الشهور والفصول . ثم جاء الجراد ، وذلك لم يحدث لعدة سنوات خلت . قال القدماء أن الجراد أتى مرة كل الجيل ، وكان يظهر كل سنة وعلى مدى سبع سنوات عجاف ثم يختفي الى أجل آخر . عندما حل الجراد ، عادوا الى كهوفهم في الأرضي البعيدة تحرسهم مجموعة من الرجال الجسورين الأشداء . وبعد جيل كامل فتحوا كهوفهم ثانية وأتى الجراد الى يوموفيا .

ظهر الجراد في فصل الهرمنان^(٣) البارد بعد جمع الحصاد والتهم كل الاعشاب البرية في الحقول .

كان اوكونوكو يعمل مع الصبيان الآخرين على تقوية جدران الاكواخ الحمراء . تلك هي أحد اسهل الاعمال بعد موسم الحصاد . غطاء سميك

(٢) الفوفو : أكلة شعبية معروفة في افريقيا ، يتم تحضيرها من نبات الكسافا والنشاء ، لتصبح عجينة لزجة . يطهى الى جانبها حساء الخضراوات .

(٣) الهرمنان : رياح باردة تهب من الصحراء الكبرى محملة بذرات الغبار الناعم تعيي الجو وتحجب الشمس ، ويصبح لون السماء ترابياً . تدعى برياح الخمسين أو الطوز . يحدث موسم الهرمنان في افريقيا خلال شهري كانون الأول وكانون الثاني .

جديد من سعف وأوراق النخيل يثبت على الجدران لحمايتها من الفصل الماطر المقبل . عمل اوكونكو على الاسطح الخارجية بينما كان الولدان يعملان من الداخل . من خلال ثقوب في الطبقات العليا مرر اوكونكو الحبل ليلفه على العوارض الخشبية المستديرة ويعيده ثانية . وبهذا تمت تقوية الغطاء على الحاجط .

ذهبت النساء إلى الغابة لجمع حطب الوقود ، وذهب الأطفال الصغار لزيارة أترابهم في الديار المجاورة . عبا الهرمنان الهواء وولد في الناس حواساً ضبابية للنوم . اشتغل اوكونكو مع الصبيان بصمت تمام لم يكن يقطعه سوى عملية رفع جذع نخل جديد ليسند الحاجط ، أو دجاجة ناشطة تحرك أوراقاً جافة في سعيها الدائم للبحث عنها نقاط تقوية .

ووجأة ، هيمنت ظلال في الجو ، وبدأت الشمس متحجبة وراء سحابة كثيفة . نظر اوكونكو للإعلى متسللاً عما إذا كانت ستطرد في غير ميعادها من السنة . انطلقت فوراً صيحة ابتهاج انتشرت في أنحاء يوموفيا التي التهبت بالنشاط والحياة ، بعد أن كانت غافية في فترة بعد الظهر الضبابية .

الجراد آت ، رددها الجميع بسعادة ، وترك الرجال والنساء والأطفال اعمالهم ولعبهم وركضوا ليروا في الفضاء المشهد غير المعتمد . لم يأتِ الجراد منذ زمن بعيد - بعيد ولم يسبق لأحد أن رأه من قبل سوى العجائز والمسنين .

في البداية ظهر سرب صغير من الجراد قادم ، هو سرب الرواد الذي أرسل لكي يمسح الأرض . ثم بدا في الأفق حشد يتحرك ببطء كملاءة لانهائية من الغيوم السوداء ، يتوجه نحو يوموفيا ، وحالاً غطى نصف السماء وبدأت تخلل الصفحة الكثيفة سهام الضوء كغبار نجمي متلائمة . كان منظراً عظيماً مليئاً بالقوة والجمال .

كان الجميع متاثرين ، وأخذوا يصلون كي يبقى الجراد عندهم الليلة .
ورغم ان الجراد لم يكن قد زار أرض يوموفيا لسنوات عديدة ، فقد عرف الجميع
بالفطرة انه آكل نهم . هبط الجراد أخيراً ، واستقر على كل شجرة وكل ورقة
عشب وعلى الاسقف وغطى الاراضي الخالية . تكسرت اغصان الاشجار
تحت ثقل حمله وغدت القرية كلها بلون التراب البني باجتياح هذا السرب
الضخم الجائع .

كثير من الناس أخذوا سلاهم محاولين اصطياد الجراد ، ولكن كبار
القبيلة ارتأوا الصبر الى أن يحل الليل . وكانوا على صواب . فبعد ان استقر
الجراد ليلاً على الاشجار اصبحت أجنهته رطبة بالندى وسهل التقاطه .
وعندها هب جميع أفراد يوموفيا رغم برد الهرمتان لجمع الجراد . وفي الصباح
التالي كان الجراد يطهى في القدور الفخارية ثم ينشر في الشمس ليجف ويصبح
هشاً . ولأيام عديدة كان هذا الطعام النادر يؤكل مع زيت البلح .

جلس اوكونوكو في كوخه (يقرقش) الجراد بسرور مع اكمفونا ونبي ،
ويعب بكثرة من خرة البلح ، عندما جاء أوجبو في ايزودو . ايزودو هو الرجل
الاكبر سنًا في احياء يوموفيا وسبق ان كان من اشجع المحاربين واعظمهم في
زمانه ، يجله ويحترمه جميع من في المنطقة . رفض ايزودو مشاركة اوكونوكو الطعام
وطلب محادثته جانباً . مشيا خارجاً والرجل العجوز يتوكأ على عصاه . خاطب
اوكونوكو : « هذا الولد الذي يدعوك أبي . لا تتدخل عند موته . » دهش
اوكونوكو وارد ان يقول شيئاً بينما تابع الرجل العجوز : « نعم ، قررت يوموفيا
قتله . كهنة التلال والكهوف اشارت بهذا . سوف يأخذونه خارج يوموفيا كما
جرت العادة ويقتلونه هناك . ولا أريدك أن تفعل شيئاً ، مع أنه يدعوك
أباه » .

جاء في صباح اليوم التالي مجموعة من كبار قرى يوموفيا التسع إلى اوكونكو ، وقبل أن يبدأوا حديثهم الهامس ارسل نبوي واكمفونا خارجاً . لم يطيلوا جلوسهم ولكن بقي اوكونكو فترة طويلة بعد ذهابهم ذاهلاً يسند ذقنه براحته . وفي المساء دعا اكمفونا وأخبره بأنه سوف يؤخذ في الغد إلى بيته . أطفق نبوي ييكى عند ساعده ذلك ، فضربه أبوه ضرباً مبرحاً . أما اكمفونا فكان حائراً . فقد غدا بيته الحقيقي بالنسبة له باهتاً بعيداً . صحيح أنه يفتقد أمه واخته وسيسعد كثيراً لرؤيتها . ولكنه احس بشكل ما انه غير ذاهم اليهما . تذكر الرجال يتحدثون بصوت منخفض مع أبيه ، وشعر بتلك الجلسة والحديث تعود مرة أخرى الآن .

فيما بعد ، ذهب نبوي إلى كوخ أمه واعلمها بأن اكمفونا سيغادر إلى دياره . اسقطت المدقة التي تطحن بها الفلفل من يدها ، لفت سعادتها على صدرها وتنهدت ، « طفل مسكين » .

في اليوم التالي ، عاد الرجال ومعهم قدر من الخمر . وقد ارتدى الجميع ملابسهم الكاملة وكأنهم ذاهبون لاجتماع عشيرة أول زيارة ديار مجاورة . لفوا ثيابهم تحت ابطهم الأيمن ، وعلقوا حافظاتهم من جلد الماعز و(غمود) خناجرهم على الكتف الأيسر . تهيا اوكونكو سريعاً وابتداأت مسيرة الفريق واكمفونا يحمل قدر الخمر . وساد اكواخ اوكونكو صمت رهيب . حتى بدت وكأن صغار الأطفال يعلمون . خلال ذلك النهار جلس نبوي في كوخ أمه وعيناه تطفران بالدموع .

في بداية الرحلة ضحك رجال يوموفيا وتحذثوا عن الجراد ، عن نسائهم وعن بعض الرجال المختشين الذين رفضوا مرفقتهم . لكن ما إن شارفوا ضواحي يوموفيا حتى هيمن عليهم الصمت أيضاً .

تدرجت الشمس ببطء نحو عرض السماء وبدأ الرمل الجاف يلسع

الاقدام بحرارته المدفونة فيه . سقطت بعض الطيور في الغابات المجاورة وطىء الرجال بعض الاوراق اليابسة ، كل شيء ماعدا ذلك كان ساكناً تناهى من بعيد قرع واء لايقاع « ايکوي EKWE ». ارتفع وخبا مع الرياح - رقص سلام من قبيلة بعيدة .

هذا رقص « اوزو OZO » ، قال الرجال فيما بينهم . لم يكن أحد منهم متأكداً من أي جهة يصدر . بعضهم قال « ازميلي » آخرؤن آبام ، أو « اينيتا . تجادلوا البرهة قصيرة وعادوا الى الصمت ثانية ، والرقص المثير يتعالى صوت ويفومع الريح . في مكان ما هناك رجل يتم تنصيبه في عشيرته ، باحتفال كبير ورقص وموسيقى .

اصبح الدرب مساراً ضيقاً في قلب الغابة . الاشجار القصيرة والنباتات المتاثرة حول قرى الناس أخلت المكان للاشجار العملاقة والمتسلقات التي لا بد موجودة منذ بداية الاشياء في الكون ، لم يمسسها معزق ولا نار حريق . تتكسر اشعة الشمس خلال أوراقها وأغصانها تلقى عينات من النور والظلال على الدرب الرملي .

سمع اكمفونا همسا قريباً خلفه فاستدار بحدة . صرخ الرجل الذي كان يهمس عالياً حاثاً الآخرين على الاسراع .. « مايزال امامنا طريق طويل » ، قال الرجل ، ومشى مع رجل آخر متقدماً اكمفونا متنهجاً خطوات سريعة .

تابع رجال يوموفيا طريقهم ، مسلحين بالخناجر المغمدة ، وакمفونا يحمل قدر الخمر على رأسه ، يمشي في وسطهم . ومع أنه كان مرتبكاً في البداية ، لم يعد يشعر بالخوف الآن . مشى اوكونوكو خلفه . لم يكن يستطيع أن يتخيّل أن اوكونوكو ليس أبوه الحقيقي ، الواقع أنه لم يكن قط مغرماً بأبيه الحقيقي . وفي نهاية هذه السنوات الثلاث أصبح بعيداً جداً . ولكن أمّه واخته التي تبلغ ثلاثة سنوات من العمر .

طبعاً لم تعد في الثالثة الآن بل في السادسة . هل سيعرفها الآن ؟ حتى لقد كبرت . كم ستبكي امه من شدة الفرح وتشكر اوكونكو لاعتنائه الجيد به وعادته لها . سوف ترغب في الاستماع إلى كل ما حصل معه خلال هذه السنوات الثلاث . هل سيستطيع تذكر كل شيء ؟ سيحدثها عن نوبي وأمه ، وعن الجراد . . . فجأة خطرت بباله فكرة ، ماذالوكانت أمه ميتة ؟ حاول بياس طرد الفكرة بعيداً عن ذهنه . ثم حاول حل المسألة بالطريقة التي اعتادها عندما كان طفلاً صغيراً . مايزال يتذكر الأغنية :

از ، الينا ، الينا
سالا . . .

غنها في قلبه ومشى على ايقاعها . اذا انتهت الأغنية مع خطوة قدمه اليمني فامه حية ترزق . أما إذا انتهت باليسرى ، فهي ميتة ، بل مريضة . انتهت الأغنية مع القدم اليمني امه تعيش وبخير . غنها مرة أخرى وانتهت عند البىرى . لكن لا يجب حساب المرة الثانية . الصوت الأول يأتي الى (شوكو) ، أو بيت الله . ذلك كان المثل المفضل عند الأطفال . شعر اكمفونا بنفسه طفلاً من جديد . أيمكن سر هذا الشعور في تفكيره بالعودة الى البيت الى أمه ؟

تحنح أحد الرجال من خلفه . نظر اكمفونا وراءه فنهره الرجل آمراً إياه بالمسير وعدم النظر للوراء . قالها بطريقة جعلت خوفاً بارداً يتسرّب الى ظهر اكمفونا . ارتجفت يداه على القدر السوداء التي يحملها . لماذا انعزل اوكونكو نحو المؤخرة ؟ أحس اكمفونا أن ساقيه تنصهران تحته . وكان خائفاً من النظر إلى الخلف .

عندما سحب الرجل الذي تنحنح سكينه ورفعها ، نظر اوكونوكو بعيداً .
سمع الضربة ، وقعت القدر وانكسرت في الرمل . سمع اكمفونا يصرخ :
« أبي لقد قتلوني » وركض باتجاهه ، كان دائحاً من الفزع ، رفع خنجره
وطعنه . كان خائفاً أن يُطْنَ به الضعف .

عنوان القصة : Death Ofaboy

الكاتب : Chinua Achebe



الظبي والفييل و فرس البحر

ترجمة :
د. عبدالرازاق جعفر

حدث في أحد الأيام أن كان الظبي يمرح في دغل من الأدغال . وصل إلى ضفة النهر ، فرأى فرس البحر والفييل يتسامران . ولما كان عباً لللاظلاع بطبعه ، فقد كمن خلف كومة من العشب ، وشرع يصغي إلى حديثهما .

كان فرس البحر والفييل ماضين في التملق والمجاملة .

قال فرس البحر :

- أيها الأب الفيل إنك أقوى الحيوانات على وجه الأرض . وأنا أقوى الحيوانات التي تعيش في الماء . ما رأيك في أن نعقد صفقة بيننا ، فنسيطر على كل البهائم التي خلقها الله ، ونفرض عليها كل مانريد ، ونأمرها بما نشاء ؟

فقال الفيل الضخم مزهواً :

- حسناً . . . حسناً أيها الزميل . . . ! إنني موافق على كل ماتقول . . .

ولما كان الظبي لا يرحب في أن يعيش تحت سيطرتهما ، وأن يفعل ما يأمرانه به ، فقد فكر زمناً طويلاً في وسيلة تحبط مشروعهما ، وتفشلهم . وفجأة قفز في اهواء قفزة عالية معبراً عن فرحه الشديد . فقد وجد تلك الوسيلة . . .

وما إن ذهبا ، كل واحد في طريقه ، حتى انطلق يبحث عن حبل ضخم جداً وطويل جداً ثم استعار من أحد جيرانه طبلة صغيرة أخفاهما بين الحشائش . وبعد ذلك سار على شاطئ النهر حتى التقى بفرس البحر . فقال له :

- أوه ! مرحى . . يا فرس البحر . . . هل أجرؤ فأطلب منك أن تؤدي لي خدمة صغيرة ؟

- أجاب فرس البحر :

- تكلم . . . تكلم . . . وسوف أرى إن كنت قادرًا على خدمتك !

- حسناً : لقد غاصلت بقرتي في الطين ، على بعد نصف ميل من هذا المكان . ولا أستطيع سحبها ، لكنني واثق أنك تستطيع فعل ذلك لأنك قوي جبار . ولن تشعر بالتعب .

تأثر فرس البحر بهذا المدح ، وقبل القيام بالمهمة رأساً . فقال الظبي :

ـ حسناً . . . سوف أربطك بطرف هذا الحبل . وسوف أذهب لأربط بقرتي بالطرف الآخر . وعندما أفرغ من ذلك سوف أنقر على الطلبة . حينذاك ماعليك إلا أن تجرب بقوه . . . بقوة لأن البقرة غارقة في أعماق الطين ! . . .

قال فرس البحر :

ـ هيـ . . . هيـ . . ! اذهب في سبيلك . . . سأقوم بعملي خير قيام . لاتقلق . سوف أجرها حتى لو كانت غارقة إلى قرنيها . . . !

ربط الظبي الحبل حول جسم فرس البحر الضخم ، ثم قفز . . . هوب . . . هوب . . . وجري نحو الفيل ، وقال له :

ـ أوه . . . ! من فضلك . . . أيها الفيل المقتدر . هل ت يريد أن تؤدي لي خدمة صغيرة ؟
سأله الفيل :

ـ وما هي هذه الخدمة ؟

ـ لقد غارت بقرتي في الوحل ، على بعد نصف ميل من هذا

المكان . ولا أستطيع إنقاذهما . وهذا الأمر سهل عليك بطبيعة الحال . . . أنت القوي الجبار . . .

أجاب الفيل مزهواً :
- بكل تأكيد . . . بكل تأكيد . . . !

قال الظبي :
- حسناً . . . حسناً . . . سوف أربط طرف هذا الحبل الطويل حول خرطومك . وسيكون الطرف الآخر للبقرة . وعندما يصبح كل شيء جاهزاً فإني سوف أقرع الطلبة . وما عليك حينئذ إلا أن تجرب بأقصى ما تستطيع من قوة .

قال الفيل :
- لا تخشى شيئاً . لو كانت بقرتك بحجم عشرين بقرة فأنا قادر على جرها من غير صعوبة .

رد الظبي :
- أنا واثق من ذلك . . . لكنني أرجو ألا تجرب بقوه في البداية ،

ربط الحبل بقوه حول خرطوم الفيل . وجري مسرعاً ليختبئ بين الأعشاب ، وبعد قليل شرع يقرع على الطلبة .

بدأ فرس البحر يجرّ الحبل بقوه ، كذلك بدأ الفيل يجرّ . أصبح الحبل مشدوداً قاسياً ،

قال الفيل في نفسه :

- ما هذه البقرة ؟ إنها ثقيلة جداً . لكنني سوف أخرجها .
وأثبت قوائمه في جذع شجرة ضخمة فزلزل الأرض .

تم فرس البحر قائلاً :

- ما هذا العمل ؟ لابد أن هذه البقرة في باطن الأرض !
وأخذ يجر بكل قوته .

كان كل واحد منها يجر من طرفه ، لكن فرس البحر شعر بأنه يسحب نحو ضفة النهر إذ أن الفيل كان يلف الجبل ، حول خرطومه ، كلما سحبه بقوة ، لقد ثار غضبه ونسى نفسه . فوقع في النهر . . . وكان رأسه في المقدمة !

انتزعت قوائم الفيل من الأرض وانساب حتى الشاطيء ، فشارت ثورته إلى درجة فظيعة ، فسحب الجبل بقوة كبيرة أخرجت فرس البحر من النهر .

زار فرس البحر :

- من الذي يسحبني ؟

وصاح الفيل :

- من الذي يسحبني ؟

ورأى كل واحد منها الآخر وقد لف جسمه بالجبل .

ز مجر الفيل :

- سوف أريك كيف تمثل دور البقرة ! . . .

- وز مجر فرس البحر :

- سوف أعلمك كيف تسخر مني ! . . .

وفي هذه اللحظة أخرج الظبي سكينه وقطع الحبل ! . . .
وقع فرس البحر في النهر ثانية وقعة عظيمة ، وتدرج الفيل
على ظهره . . . وظللت قوائمه الأربع معلقة في الهواء !

أصابها الخجل . وذهب كل واحد منها في حال سبيله ، ومنذ
ذلك الوقت لم يجرؤ أحد هما على رؤية الآخر .

أما الظبي فقد أخذ يضحك ويضحك . . . وهو إلى الآن
يضحك . . . !



لويس برناردو أونغانا كاتب موزامبيقي ولد عام ١٩٤٢ .
 عمل منذ فتوته في ميدان الصحافة ونشر محاولاته الأدبية الأولى في
 صحيفة العاصمة «نوتيسايز» . اعتقل مع كتاب آخرين
 مكافحين من أجل الاستقلال في كانون الأول عام ١٩٦٤ حيث
 حكمت عليه المحكمة بالسجن لمدة عامين . صدرت جموعته
 القصصية الأولى - «نحن نقتل الكلب الأجرب» عام ١٩٦٤
 وترجمت إلى لغات عدة منها الروسية . «فرصة للغذاء» التي نقدم
 ترجمة لها في هذا العدد الخاص بالأدب الافريقي إحدى قصص
 هذه المجموعة .

فرصة للغداء

سمع مدالا ، وقد أحني ظهره ، ملامساً ببديه الأرض ، الضربة الثانية عشرة والأخيرة للجرس . رفع رأسه فلمح بين أعواد الذرة على مسافة عشر خطوات سروال المراقب . لم يتجرأ على رفع قامته ، فقد عرف أنه لا يجوز التوقف عن العمل إلا بعد سماع أمر بذلك . لذا أنسد مرفقيه على ركبتيه وبدأ يتظاهر بصبر .

كانت الشمس العمودية تكوي ظهره العاري ، وكان عليه تحملها . رجح أن يكون المراقب غاضباً اليوم وذلك بعد أن حان الوقت من خلال كثافة قطرات العرق المتسببة من طرف أنفه على الحجر ، المتلالا تحت أشعة الشمس ، أمام قدميه . لم يتغير وضع القدمين الباديين لنظرية على بعد عشر خطوات . رأى مدالا في البعد كذلك نقطة سوداء - كان ذلك فيلمون الذي بدا مقوساً الظهر بين أعواد الذرة متظاهراً الأمر بترك العمل .

أحس بألم مض في خاصرته ، لاسيما الآن بعد أن بشر الجرس بفرصة الغداء . عندما تعبت عضلات رقبته من التوتر خفض العجوز رأسه ولاست يداه الآن فروع النباتات الطفيليية الطيرية التي يجب انتزاعها . حينما شعر بالمقاومة ، وهو يشد الجذر بشكلٍ آلي ، تثبت به بقوة أصابعه ، ومع اقتلاعه انتصب بكل جذعه فجأة . لم يصرف جهداً يذكر من أجل تخليصه من التربة ، لكنه شعر بألم في عروق ظاهر ركبتيه ، وتناثرت ذرات التراب التي كانت عالقة بالجذور على وجهه . نظر إلى الحفرة الصغيرة المتشكلة أمامه في الأرض فادرك أن النهار شديد الحر ، إذ لم يصدر عن التربة المحفورة أي رهج .

مع بزوغ الفجر وفي الساعات الأولى من العمل كانت أرض ماشامبا الخصبة الرطبة بفعل الندى الصباحي تنفس ضباباً رقيقاً وبدأ العمل غير مرهق . لكن مع ارتفاع الشمس يقل البخار الخارج من الحفر الصغيرة المتكونة بعد استئصال النباتات الضارة .

ألقى مداراً الأعشاب جانبًاً وبدأ ينصل . لاشيء . كان الهواء فقط يلعب بأوراق أعود الذرة الطويلة . تثبت مداراً من جديد بقبضةٍ من العشب وشد جسمه إلى الوراء إلى أن اقتلعها . ساعده هذه الطريقة على حفظ قوته ، إذ كان يتزعزع العشب بثقل جسمه فقط دون حركات أخرى زائدة ، وغير مرهق يديه اللتين مانحتتا إلا لنفخ التراب العالق بالجذور .

منذ أن رن الجرس اقتلع مداراً سبعة جذور . تطلع ثانية في تلك الناحية حيث أبصر بين أعود الذرة ساقٍ المراقب - خشي ألا يسمع صوته . أنصت . لكن لم يصله أي صوت سوى خشخشة الأوراق اليابسة . انحنى العجوز إلى أمام فاحسّ بألم حاد في خصره . كان العشب ضارباً جذره في الأرض بقوة . شد مداراً جسمه إلى الخلف بقوّة فانتزعه أخيراً . برزت من تحت الجذور هذه المرة عقرب ، ولكن نظراً لأن العجوز لم يشاً التحرك من مكانه ، ولم يكن بين يديه رفش أو أداة أخرى فقد ترك الحشرة تزحف هاربة . فكر مداراً أنه لو لدغته هذه العقرب لتتألم بشدة أيامًا ثلاثة ثم مات . فعلاً فهو لم يعد الآن قوياً كما كان في الماضي ، وقد لا يقدر جسمه على مقاومة سُم هذه العقرب الكبيرة .

في الساعات الأولى من العمل كانت تقفز جنادب من بين الأعشاب التي يتزعزعها . أما في مثل هذا الوقت - في الظهيرة فصارت تبرز غالباً العقارب والحرادين وحتى الأفاعي السامة . فالمسكين بيtarوس مات من لدغة ثعبان هجم عليه أثناء العمل . الآن لم يعد أحد يتذكر بيtarوس . . . بيد أن الكل

يعرف أرمنته . بعد موت زوجها عاشرها جميع الرجال من دفعوا عنها في الحانات ثمن النبيذ الذي كانت تختسيه . في البداية قالت أنها لاتنام إلا مع من يدفع لها عشرين فرنكاً ، لكن فيما بعد لم تهتم بالنقود إذا ما توفر لها المشروب . كان عمال المناجم العائدين من جنوب إفريقيا أوروديسيا الجنوبيّة يسقونها حتى السكر التام ، ثم يقودونها من الخمار إلى دغلٍ قريب . وهناك تبقى حتى تشبع نوماً وتصحو بنفسها .

مدالاً وحده لم يتم معها ، لأنّه كان عجوزاً من جهة وصديقاً قدّيماً لزوجها من جهة ثانية .

انتزع مدالاً قبضتين آخرتين من العشب ثم توقف في ترق وانتظار متكتأً بمرفقيه على ركبتيه . اعتقاد أنه لن يتضرر طويلاً هذه المرة حتى يسمع أمر المراقب .

وفجأة أحسّ بألم حاد . كانت تلك إحدى نوبات مرضه المألوف . فقد نسي ، وهو يتضرر بفقد صبر أمر المراقب . ما يجب عليه تحاشيه . ضغط على نفسه وانكمش محاولاً عبثاً تجنب النوبة الجديدة . حاول ألا يأخذ شهيقاً فانتفخت أوداجه لدرجة شعر أنها تكاد تفجر وتشنج بدنه . كانت قبضة العشب التي مازالت يداه متثبتتين بها قد تفتت ناشرة رائحة قوية ترకم الأنوف . شعر مدالاً بأن نوبة الألم قد مزقت حسنه ، لكنه عضَّ على شفتيه بقوة كي لا تصدر عنه أنَّه واحدة .

قال العجوز لنفسه وهو يمد يده للامساك بقبضة عشب قريبة : « لماذا لا يأذنوا لنا ؟ منذ أن حان وقت الغذاء غدا الظل أطول بحجم الكف صرتين » ، وفي سعيه للثبت بأي شيء أطبق مدالاً يده بقوّة على صامسak به ، ثم سقط على بطنه دون أن يبسط قبضته . . ثم أحسَّ تشنجاً في رجليه . .

بعد مضي بضع دقائق شعر مدارا ، وهو منبطح على الأرض ، بهمود الألم . وهنا أغمض عينيه متربماً زوال النوبة . ما أن عاد إليه وعيه حتى انتصب على ركبتيه وانتزع من التراب ما كان قد تفتت بين يديه من عشب . ألقى ما يده جانباً متمتماً بأسى : - لا أستطيع العمل راكعاً على ركبتي ... ثم شرع يحصي عدد الجذور المقتلة ... - واحد ! اثنان ! ثلاثة ! أربعة ! ... ثم أرسل آهة أخرى متمتماً بصوت امتزج فيه الألم بالشكوى - لا أستطيع العمل راكعاً على ركبتي

ومع تهديدة عميقـة سقط العجوز على جنبه الأيمن وقلب على الأرض منكمشاً وضاماً ساقيه بيديه حتى لامست ركبتيه ذقنه . لكن مع ذلك كان يحس ببعض الرضى لأن الألم في أعماق جسمه قد هدأ . وضع في فمه آخر ساق نبطة قلعها وراح يمضغها .

- إـي شـباب ! إـلى الـغـداء !

قفـز مـدارا بـسرعة وـاقـفاً عـلـى رـجـليـه ، ثـم قـلـع أـربـعة جـذـورـآخـرى عـلـى الفـور : - سـبـعة ! ثـمـانـية ! تـسـعـة ! عـشـرة ! بـعـد ذـلـك مـسـح بـكـفـه الـعـرـق مـن عـلـى جـبـهـته فـسـالت القـطـرات المـالـحة مـسـاقـطاً بـعـضـها عـلـى عـيـنيـه .

لم يـشـأ مـدارا الـذهـاب فـورـاً كـي لا يـفـكر المـراـقب يـائـه مـسـتعـجل لـتركـهـ العمل . فـشـرع يـتـطـلـع يـمـينـاً وـشـمـالـاً ، لـكـنه شـعـر فـجـأـة بـهـا يـشـبهـ الـوـخـزـةـ في خـاصـرـتـهـ . دـارـرأـسـهـ . نـهـضـ نـجـيـانـاـ وـمـوـتـوكـاتـيـ أـيـضاـ وـرـفـعـ رـأـسـيـهــاـ ، لـكـنـ المـراـقب صـرـخـ بـهـا بـغـضـبـ :

- تـنـتـظـرانـ تركـ العمل بـسرـعة وـحـسـبـ . لـاـيـقـصـنـا سـوـى تـدـلـيلـكـمـاـ . كانـ فيـلـمـونـ الـذـي وـقـفـ بـكـلـ قـامـتـهـ قـدـ أـحـنـى ظـهـرـهـ وـخـبـأـ رـأـسـهـ منـ جـدـيدـ عندماـ سـمـعـ صـرـاخـ المـراـقبـ . لـكـنـ ماـ أـنـ رـأـيـ مـدارـاـ وـاقـفاـًـ حتـىـ تـشـجـعـ وـوقـفـ ثـانـيـةـ . وـبـالـتـابـعـ أـطـلـ تـانـدـانـيـ ، جـيمـوـ ، مـوـتـانـبـيـ . لـكـنـ كـانـتـ عـيـونـهـمـ مـسـمـرـةـ

بحذر صوب المراقب الذي صاح من جديد - الى الغذاء . . . وأغلق الكتاب الذي كان مسكاً به ثم أردد هامساً وهو يلقي نظرة على صورة الغلاف - ومن يؤلف مثل هذه الكتب . . . كل عاهرة أضرب من أختها . .

سار المراقب في الأمام ثم تبعه بصمتٍ صفاً أحادياً العمال الآخرون .
شعر مداراً بالتعب ، فتوقف قليلاً ثم راح يتطلع في المدى : « ماشامبا كالبحر . . . » سار الآخرون مبتعدين ، وكانوا يبدون بين أعود الذرة كمن يمشي في البحر وقد غمرته المياه حتى وسطه .

وقف مداراً دون حراك وتابع تفكيره متطلعاً في الأفق البعيد . . .
« ماشامبا كالبحر . . . » شعر بألم في عينيه فخفض بصره وفركمها . . . « كلا ،
البحر شيء آخر . . . في البحر لا يوجد عشب يتوجب قلعه . . . في البحر
أسماك كالطيور في السماء . . . »

عندما وصل إلى المعسكر كان الجميع هناك . حتى أن بعض مجموعات العمال قد فرغ من طعام الغذاء . كان أفراد جماعة الحراثة أول من تناول الطعام ، وهماهم الآن مستلقون في الظل للاستراحة ولتجديد القوى بعد الجهد المبذول منذ الصباح الباكر . أما مجموعة التعشيب فتأخر عادة ، وهما هواه طباخهم جوزيه يقوم الآن بإضرام النار .

اقترب مداراً من جدار أحد العناير القديمة واتخذ مكانه في الظل بين عمال حظيرة الحيوانات . ما أن رأى العمال الشباب العجوز حتى أقلعوا عن الحديث حول النساء وتظاهروا بالجد . سأله أحدهم :

- مداراً ! كيف الحال عندكم في المجموعة ؟

لم يجب مداراً فوراً ، فكان من عادته أن يعيد السؤال في نفسه دوماً قبل إعطاء الجواب . قطع أحدهم صمت مداراً فأردد :

- الشمس حارقة اليوم .

- فعلاً حارقة . . .

لم يعثر مداراً بعد على جواب عن السؤال الأول وشعر أحدهم بضرورة
متابعة الحديث فقام قائلاً :

- لم ينزل المراقب عن ظهورنا طوال اليوم . . .

نظر مداراً بدھشة إلى الفتى المتكلّم وحاول الانتباه بجد إلى الحديث .

- مراقب حقير . . . يؤخر الناس دوماً ، لا يسمح لهم بالانصراف في
حينه ، أعرف ذلك بنفسي ، إذ عملت سابقاً في ماشامبا . لا يسمح لأي
إنسان أن يرفع رأسه ويرفع ظهره ولو لدقيقة واحدة . . . ذات مرة عندما كنا
نعمل في ماشامبا مع هذا المراقب . . . صدقأً لا كذب عليكم . . . كانت
الشمس حارقة وشعرنا جميعاً بالتعب . . . سأروي لكم القصة لتقتنعوا بأنه
حقير فعلاً . . .

تابع الفتى حديثه بحماسة أكبر مخاطباً الآن الحالين جميعاً وليس مداراً
فقط .

نظر مداراً إلى المراقب الذي كان جالساً على صندوق خشبي في
الظل . كان أمامه صندوق آخر وعليه طناجر وصحون عدة ، وبدا يلتهم
الطعام بشرم ويشرب النبيذ من فم الزجاجة مباشرة . كان النبيذ أصفر كثيف
وبارداً . بذاك له من الزجاجة المترفة . كان المراقب يشرب وقد جحظت
عيناه من السرور .

- مداراً ! - صرخ جيمو

- مداراً ! تعال إلى الطعام ! . . .

اتخذ أفراد المجموعات الأخرى أماكنهم في الظل . بعضهم لم يعرفه
مداراً ، لكنه كان معروفاً من قبل الجميع ، يحيونه دوماً عندما يمررون به .

- مدارا ! لم أستطع أن أقول لك فوراً لأن المراقب كان جالساً هنا .
بنتك واقفة هناك بانتظارك .

اقربت ماريما أكثر

- مرحباً يابابا !

- أهلاً ماريما !

اقرب جيمو من ماريما :

- لقد أتيت على الفور أبحث عن أبيك لأقول له أنك هنا . لكن كان
المراقب بالقرب منا . . . لذا لم أستطع إخباره إلا الآن فقط . . .
- كيف الحال في البيت ياماريما ؟

- اذهب مع ابتك إلى الظل يامدارا . . . هناك أفضل وستستطيعان
التحدث براحة . . .

كان واضحاً أن جيمو معجب جداً بماريا ، لكن يعرف مداراً أن ابنته
نامت مع الكثرين ، والآن لايرغب أحد بالزواج منها .
- كيف الحال في البيت ؟

- كل شيء على مايرام يابابا . أتيت فقط كي أراك .

- وعندى كل شيء على مايرام يابنتي . . .

كان جميع الرجال الحاضرين يتطلعون إلى ماريما ، تلتهم عيونهم
جسدها المستور بالكابولان ، يحيونها وكل يحاول خطف التفاتة منها . لكنها
ردت التحية دون أن ترفع عينيها عن الأرض .

مرة ثانية اقترب جيمو منها :

- لماذا لا تذهب لتناول الغداء يامدارا ؟ نجيانا وموتوكاتي جهزوا كل
شيء . اذهب إلى الأكل . . .

- سأبقى مع ابنتي قليلاً ياجيمو . . .
ظهر من خلف زاوية العبر المراقب مع سيجار بين أصابعه .
- إيه ماريا ! ماذا تفعلين هنا . . . أتريددين اصطياد مدالا ؟
اسمعي ! مدالا عجوز لم يعد يصلح لشيء . أنت معجبة بجيمو ،
أليس كذلك ؟
- أنا لا أريد جيمو . شاءت ماريا أن يكون جوابها باللغة البرتغالية .
صار المراقب يحرك السيجار بين شفتيه .
- هل تودين النوم معه ؟
صمتت ماريا خافضةً بصرها .
- اذهب لتناول الغذاء يا مدالا . . . حان وقت تناول طعام كل العاملين
في ماشامبا . . .
لم يجرب مدالا فوراً . ظل لبعض الوقت ينظر في وجه ابنته محاولاً أن يرى
كيف سيكون حالها وهي تتحدث مع المراقب . . .
- بابا ! فعلاً يجب أن تذهب لتناول طعامك .
- بدأت ماريا تحفر التراب بأصابع رجليها الحافيتين ، وشبكت يديها على
صدرها .
- اقرب مدالا من ابنته وحاول النظر في عينيها اللتين ظلتلهما رموش
كثيفة .
- لماذا تتكلمين هكذا ؟
عندما سمعت ماريا صوتاً قوياً مخنوقاً قرب أذنها تماماً التفت .
- هكذا بساطة . لا أدرى . . .
- صمتت لثوان ثم قالت له بصوت أكثر ثقة :
- فعلًا بابا . يجب أن تذهب من أجل الطعام .

دار مداراً حول ماريا وجلس على الأرض طاوياً رجليه تحته . حاول من جديد أن يحدق في عينيها شبه المغمضتين .

- أهذا ماتفكرين به ؟

- يجب أن تذهب لتناول الطعام - قالت له ماريا بنفاذ صبر دون أن ترفع عينيها .

- معدتي لا تحس بالجوع بعد . . . وفتح مداراً ذراعيه مضيقاً : يمكن أن تتأكدني بنفسك بأن معدتي لا تطلب طعاماً . ألا ترين أنها ساكتة . لم تحب ماريا .

وأنت ألا تريدين أن تأكلني يا ابنتي ؟

- أكلت في المطعم تماماً قبل أن آتي إلى هنا . عندما كنت أعبر الشارع دعاني أحد الأصدقاء للغداء . اشتري لي طعاماً كثيراً وقال : « خذني هذا كله لك » فأكلت .

فتحت ماريا عينيها بشكل واسع ، لكن فجأة شعرت بالخوف فأسبلت رموشها من جديد .

- فعلاً ألا تريدين أن تأكلني ؟ ألا تريدين تناول الطعام مع مجومعي ؟ وهنا بدا صوت ماريا متهدجاً .

- كلا يابابا . أنا شبعانة . سأنتظرك هنا حتى تنتهي من طعامك .

حاول جيمو من جديد إقناع مداراً :

- اسمع يامدارا ، ماريا صادقة في كلامها . وأخيراً وافق مداراً .

- حسناً . . . سأذهب للأكل . لكن انتظريني هنا . . . لاتغادرني المكان .

بعدما ذهب والدها رفعت ماريا رأسها وأخذت تتطلع ذات اليمين وذات الشمال . لكن مداراً كان يراها من مكانه وهو يأكل ، ولم يحول عينيه عنها طوال

الوقت . مع ذلك لاحظ بعد قليل كيف اقترب منها من الجانب الآخر المراقب .

أجابت ماريا المراقب دون أن ترفع عينيها . أراد مداراً لو يعرف ما يدور بينها من حديث . صار يسأل نفسه كعادته : « مَاذَا يَقُولُ الرَّجُلُ لِلْمَرْأَةِ عِنْدَمَا يَرِيدُ النَّوْمَ مَعَهَا؟ » . لكنه لم يعثر على جواب .

بدا من الحديث كما لو أن ماريا قد أغضبت المراقب ، لكن فجأة بدا متودداً ولطيفاً . أخرج سيجاراً من جيده ، أشعله . صار يدخن ويتحدث وقد أحاطت به سحابة من دخان . أدار ظهره بعد ذلك إلى ماريا واحتفى وراء زاوية العنبر . بعد برهة قصيرة تبعته ماريا .

أجهز مداراً وزملاؤه في مجموعة التعشيب على ما قدم لهم من طعام في القدر الكبير . لم يشعر أحد منهم بالشبع ، لكنهم تركوا قطعة الفطيرة الأخيرة لنجيانا ومونوكتي اللذين أعدا الطعام للمجموعة .

لحس مداراً أصابعه وفرك يديه ثم مرّهما على شعره . نهض عن المائدة ثم تبعه الآخرون . بقي لديهم قليل من الوقت للاستراحة قبل استئناف العمل في حقل ماشامبا . وهكذا بحث مداراً عن مكان ظليل ليستلقي بهدوء خلال الوقت القصير المتبقى .

كان أفراد مجموعة حظيرة الحيوانات قد فرغوا من طعامهم ونهضوا . رجع مداراً إلى مكانه قرب جدار العنبر القديم . كان هناك أيضاً ذلك الفتى الذي تحدث بحرارة عن المراقب . ما أن رأى مداراً حتى توجه إليه مخاطباً ، لكن بشيء من الهزء والسخرية هذه المرة : - انظر يا مداراً ! ابتك هناك خلف ذلك العنبر مع المراقب .

تلمس مدارا قبضة عشب قرب رجله اليسرى ، أمسك بها وشدّها بقوة فاقتلعها من التربة .

اقترب جيمو .

- هل تريد أن أعمل معك معروفاً؟

لم يجب مدارا .

خلف ظهر جيموسار في الطريق المؤدية إلى الحقل المراقب . وراءه على مسافة عشر خطوات سارت ماريا مطمرة الرأس . تتبعهما مدارا بنظره وهو مستلقٍ يحرك يديه بحثاً عن نبتة من العشب . لم يعثر على شيء ، لكن مع ذلك كان يطوي أصابعه ويشد عليهما كمن قبض على شيء يريد اقتلاعه . عبرت ماريا المرج الأخضر وتبع الرجل السائر أمامها في حقول الذرة . عندما ابتعدت في عمق الحقل أسرعت في مشيتها ورفعت رأسها دونها تكلف أو حرج .

توقف المراقب وسط دغل كثيف من الحشائش النامية والتفت إلى ماريا . توقفت هي أيضاً على مسافة قريبة منه .

- ألا تقبل مني معروفاً يا مدارا؟

رأى مدارا كيف التفت المراقب إلى ماريا ثم لسبب ما تابع سيره . كان وهو يزدح سوق النباتات الطويلة بيديه كمن يعبر نهراً .

فكر مدارا أن عليه أن يعطي جواباً على سؤال جيمو ، لكن لم يعرف بماذا سيجيب تحديداً . تعبت يده وهي طوي ويشد قبضتها على العشب المتخيل ، فأحسّ بشيء من التشنج فيها .

اختفى الرجل في الدغل الكثيف . رفعت ماريا يديها من جديد لتزيح أغصان الذرة الطرية ثم اختفت أيضاً في إثره . في المكان الذي اقتعدوا تحركت أوراق الذرة في أعلى الأغصان لبعض الوقت ثم هدا كل شيء .

صاحب جيمو بقلق :

- مدارا ! ...

ثم صرخ بهما يشبه الأمر :

- مدارا ! لاتنظر إلى هناك ...

أحسّ مدارا بانكماش وانقبض في داخله ثم دار رأسه ... لكن لم يكن ذلك إحدى نوبات مرضه ...

في الغبش الأخضر للدغل الكثيف رفعت ماريا يديها ، لكن يداً قوية انزلتها وضغطت على كتفيها . لم تدم المقاومة طويلا . نزع المراقب الكابولان الذي كان يستر جسدها وألقى به أرضا . عبست أصابعه الغليظة بوركيبه العاريتين . انتابتها قشعريرة سرت في كل أوصافها حتى خيل لها أنها قد أقيمت في مغطس بارد .

حول مدارا نظره إلى جهة أخرى . لم ينطر أحد إليه في وجهه الآن ، لكن الجميع راقبوه بتلصص . أما ذلك الفتى العامل ضمن مجموعة حظيرة الحيوانات والذي شتم المراقب ، فقد وقف شبه مدھون وقد ارتسمت على وجهه تعابير العنف والانفعال .

يجلسون جميعاً الآن وكان على رؤوسهم الطير . وحده جوزية طباخ مجموعة التعشيب سعل فجأة . عدا ذلك لم يتجرأ أحد على كسر ضيق اهدوء المطبق . كان المراقب بجسمه الأبيض قد ارتدى وسط حفل الدرة ظلالا خضراء . بروز وجهه الضخم ، الذي شوه الشبق ملامحه ، مخيماً أمام عيني ماريا . بللت تنهاتي الحارة شفيتها نصف المفتوحتين ... أخيراً أغمضت عينيها واستسلمت لحركة الموجات الحارة .

كان مدارا في هذا الحين يحرك أصابع يديه ويضغط براحة كفه على الحشائش المتخللة .

- لاتبك يا مدارا ! - قال جيمو

اقترب منه نجيانا وفيلمون ثم جوزية وماليسي ، وفي لحظة واحدة
اجتمع حوله كل أفراد المجموعة العاملة معه في حقل ماشامبا . بعد لأي
اجتماع هنا كل أفراد المعسكر .

اهتزت أصابع يدي مدارا وكان كمن في غيبة .

- وماذا بعد ياماريا ؟ - سأها المراقب بصوت مبحوح .

شعرت بضيق في صدرها نظراً لثقل الجسم المتكون فوقها وخالت الصوت
آتياً من بعيد .

- لماذا فعلت ذلك ؟ ونظرت إليه بقرف .

- ألم تكوني تريدين ذلك ؟ قال لها وهي نهض مصلحاً وضع ثيابه .

- إذن لا بأس انهضي !

التمعت عينا ماريا بأسى وسط هذا الغيش الأخضر :

- هذا عيب . . . كان من الأفضل ليلاً . . . رأى مدارا كل شيء . . .

كان صوتها متهدجاً والدموع في عينيها . . . بكت مقهورة :

- قلت لي في البداية تعالي نتفق فقط على موعد في الليل . . .

- انهضي يابنت . . . كفاك دللاً . ساعطيك نقوداً .

خرج المراقب من عمق البحر الأخضر أولاً ثم سار باتجاه المعسكر .

نهضت ماريا ونفضت التراب عن ردائها ثم سارت وراءه . كانت تسير

رافعةً يديها لحماية وجهها من الاعواد المتباينة التي يريحها المراقب من أمامه بلا
مبالة .

أفسح عمال حظيرة الحيوانات الطريق لمرور ماريا . كانت ثمة صمت
ثقيل يخيم فوق الجميع . اربد وجهه ذلك الفتى الذي ضاق به مدارا ذرعاً

لكثره كلامه . كانت تعابيره تنم عن حقد وغضب شديدين .

- الطقس حار اليوم يا مDALA . . . هناك حيث تعمل . . .

غامر مDALA ببعض الكلمات بشكل عفوی :

- حقاً يابني . . . حار جداً .

ومن جديد ران صمت ثقيل . وقفت ماريا مطرقة الرأس . وأطرق كل العمال الآخرين في الأرض دونها حركة .

تردد صوت الفتى من جديد :

- MDALA ! قل لنا ما يحجب علينا عمله . . . قل لنا وننهي كل شيء بضربة واحدة . . . يستطيعون قتلنا ، لكننا لانهاب الموت .

سمعت همهاطات التأييد من قبل حشد العمال المتجمهرين .

رفع MDALA رأسه وألقى نظرة خاطفة على وجوه رفاقه الغاضبين .

- رأينا يا MDALA ما فعل مع ابنتك . . . أمام عينيك . قل لنا ما العمل !
حدق الفتى في عيني العجوز بشيء من التوسل آملاً أن يرى فيهما ولو شرارة من غضب . . .

لكن بدا وكأن نفس MDALA في سبات ،

ظهر المراقب من خلف زاوية العنبر القديم . التفت إلى ماريا وألقى لها قطعة معدنية قائلاً :

- خذلي هذا مالك عندي ! . . .

حررت ماريا يدها التي خبأتها تحت ردائها . لكن سعل أحد هم فجأة فسحبتها وخابتها ثانية . وبعد أن رأت قطعة النقود شبكت يديها على صدرها ضامماً كتفيها بقوة .

- مابيك يا ماريا - ونظر إليها بازدراء واستغراب .

استدارت ماريا إلى الجهة الأخرى وألصقت وجهها بالجدار .

بقي مdalà طوال الوقت ينظر إلى ابنته بوجوم .
وضع المراقب يده على خاصرته وقهقه بصوت عال :
ـ مابك يا صغيرة . . . لاتريدين أخذ النقود ؟ أتحافين أن يعرف الشاب
أنك مومن ؟

ضغطت ماريا بيديهما المتصالبتين على صدرها ، أنشبت أظافرها في
كتفيها وبكى بصوت مخنوق :
ـ رأنا Mdalà . . . Mdalàرأى . . .
ـ وماذا في الأمر ؟ - فتح ذراعيه مبديا الحيرة والاستغراب .
ـ Mdalà أبي . . . أبي .

تسمرت عيون العمال في وجه المراقب وشرارات الغضب تندح منه .
وقف المراقب أمامهم في حيرة وقد أصطبغ وجهه الأصفر بلون الدم .
ما هذا ؟ من أين لي أن أعرف أنك ابنة Mdalà . والله لم أكن أعرف
ذلك . Mdalà ! صدقًا لم أعرف أن عندك ابنة . . . جميلة هكذا . . . أنا . . .
أنا صديقها . . .

غدا صمت العمال أشبه بنذير الشؤم الذي يتهدده ، فاقترب منهم
مخاطبًا Mdalà :

ـ Mdalà . . . بإمكانك أن تستريح الآن . لا داعي لأن تعمل اليوم
أكثر . استرح هنا في المعسكر إذا أردت وتحدث مع ابنتك قدر ما تشاء .
أطرق Mdalà في الأرض بكاء . ضغط أصابعه على راحة كفه بقوة وكأنه
يمحاول معرفة ما إذا كان جذر العشب المتخيّل ضاربا في التراب بشكل متين .
بقي العمال على صمتهم العميق والغاضب . أحس المراقب بالخوف ،
فقال متأثرا وهو ينظر نحوهم بشيء من التوجس والترقب .
ـ باللمصيبة ! . . . من أين كان لي أن أعرف ! Mdalà ! ساعطيك نقودا

وبإمكانك الذهاب مع ابنته إلى المطعم .

تفحص المراقب سخنة مداراً لعله يرى أي تعبير ذا معنى في نظرة هذا العجوز الكثيبة .

لكن مداراً أطرق في الأرض بشكل أخفض .

رجع المراقب إلى الخلف بحذر ، استدار ثم أسرع واحتفى وراء زاوية العنبر .

في هذه الأثناء كسر طوق الصمت ذلك الفتى من عمال حظيرة الحيوانات :

- مداراً ! رأينا جيئاً مافعله مع ابنته هنا ، وأمام عينيك ...
عبر العمال الآخرون بصمتهم عن موافقتهم على هذا الكلام . أسبلت ماريما يديها وأجهشت في البكاء . خفض مداراً بصره ، لوى عنقه إلى أمام حتى أنسد ذقنه على صدره .

ظهر المراقب من خلف زاوية العنبر وبهذه زجاجة نبيذ . صاح بنبرة واثقة :

- هيا يا عمال ! إلى العمل ! حان الوقت ... هيا اسرعوا سائقوا الجرارات إلى ضفة النهر ! عمال البستنة إلى حقل الملفوف ! عمال الحظيرة إلى سقاية الماشية ! عمال التعشيب هيا اتبعوني ! ...

بقي العمال واقفين كالجحادات ... أخيراً بسط مداراً أصابعه وراح يفرك يديه .

الآن تسمعونني ؟ هيا أسرعوا ! انتهت فرصة الغذاء . وفجأة وقع نظره على الزجاجة في يده .

- مداراً ! خذ !

نهض العجوز .

- وأنتم ألا تسمعون ؟ هيا تحركوا إلى العمل !
تناول مdalà الزجاجة المقدمة له .

- تحركوا ياكسالى ! إلى العمل ياأندال !
كانت أبصار العمال جميعاً شاحنة إلى Mdalà . خرج الفتى العامل في
حظيرة الحيوانات من بين الصنوف إلى الأمام :
- Mdalà !

ألقى Mdalà نظرةً على الوجوه الغاضبة المحيطة به . كان في الزجاجة
بقايا نبيذ أصفر عكر ، رفعها إلى فمه وشرب ما فيها دفعة واحدة مبللاً ذقنه
ورقبته ثم أعادها للمراقب .

- إلى العمل يا أولاد القحبة !
واهتزت الأعمدة الصامتة . صار الصمت الآن صمت هزيمة .
تابعت ماريا مايجرى بقلق ورعب .
رفع المراقب يده ماسكاً الزجاجة الفارغة من عنقها .
- أولاد القحبة !

بصق الفتى العامل في حظيرة الحيوانات أمام قدمي Mdalà وصرخ :
- كلب !

لكن Mdalà لم يفهم الاهانة . استدار وخطا بخوضوع صوب الطريق
المؤدية إلى حقل الذرة . وتبعه نجيانا وفيليمون .
التفت جيمو إلى العمال :

- دعونا نذهب .
- هيّا ، هيّا ! أسرعوا ياكلاّب ! صرخ المراقب بنبرة واثقة ومتوعدة .
تحرك العمال جميعاً وراء جيمو عدا ذلك الفتى الذي بصق في وجه
Mdalà . لبث واقفاً بعناد .

نظر إليه المراقب بعينين متوجشتين وهو بالزجاجة على رأسه صارخاً
- هيا أسرع ! وسقط الفتى أرضاً .

انحنى مدا لا وأمسك بقبضة من العشب . شدها قليلاً لمعرفة ما إذا
كانت ذات جذور متينة في التربة ، ثم راح كعادته يهوي بجسمه إلى الخلف إلى
أن اقتلعها من الجذر . ألقى ما يديه على كومة العشب . الذابلة التي جمعها قبل
الظهر . شخص يبصره إلى عمق الحقل فرأى جيمسو ، فيلمون نجيانا ،
موتوكاتي ، تانداني وموتامي كل في مكانه . تنهد واستأنف العمل .
عبر هذا المحيط الأخضر الضخم الذي تسكن أعماقه أسماك صامتة
غريبة سرت رعدة خفيفة . وروت الموجات التي ارتفعت ثم هبطت عن سر
سكان قاع المحيط .

دوست

إنسان على الشجرة

ألكسندر غوما

ترجمة: شوكت يوسف



الكس لاغوما

ولد ألكس لاغوما في كييتاون (جنوب افريقيا) سنة ١٩٢٥ ، ويتنمي ، حسب تقسيم الناس انطلاقاً من لون الجلد المعمول به في وطنه ، إلى الملوكين . كان أبوه جيمي لاغوما سياسياً مرموقاً ، مناضلاً ضد التفرقة العنصرية ، وشغل مركز رئيس مؤتمر مثل الشعوب الافريقية الجنوبية الملونة . سار ألكس لاغوما على خطى والده . ناضل ضد التفرقة العنصرية واعتقل مرات بسبب ذلك ، وقضى فترات طويلة في الزنزانات ، تحت الاقامة الجبرية وفي المنفى . ألف ألكس لاغوما الكثير من القصص

القصيرة ، بعض روايات ، والعديد من المقالات النقدية الأدبية . لكن أعماله ممنوعة في بلاده . الموضوع الرئيسي لأعماله الفنية هو العلاقة بين الناس من مختلف الأجناس والعرق بشتى تجلياتها ، من الحقد المرضي وحتى الحب الذي يصل حد نكران الذات . وحول هذا الموضوع تدور مسرحيته القصيرة : إنسان على الشجرة .

تبدأ المسرحية بهدوء ، ببساطة وعفوية . ثم تتتابع بمهارة حتى الانفجار المفاجيء القصير . تبدأ « باطلالة رائعة على الحديقة » ، « يا له من مكان مريح وفسيح » ، « نوافذ مطلة على الحديقة » . لكنها هو إنسان على شجرة ! وهذا يقلب كل شيء رأساً على عقب .

شخوص المسرحية

- السيد مايلز : سمسار عقارات
- بيت هزلر
- إيفرد : زوجته
- أفرام : عجوز من « الملونين »

(وقع خطوات على الشرفة)

مايلز : وهكذا وصلنا ، انظرواكم هي فسيحة هذه الشرفة . انها تتدلى طول واجهة المنزل .

إيني : فعلاً المكان لطيف بما فيه الكفاية ، اطلالة رائعة على الجبال .

مايلز : بالضبط . ويالجمال هذا المكان صيفاً ياسيدة !

هزلر : انتظروا قليلاً سأحضر المفتاح .

(تبين أن الباب غير مقفل)

تفضلو اسمحوا لي بالدخول أولاً لأدلكم على الطريق .
تعالوا نلقي نظرة على البيت ثم نهبط الى الحديقة بعد ذلك .
لاتغلقوا الباب فالمكان يحتاج الى بعض التهوية .

إيني : ياله من مكان مريح وفسيح ، أليس كذلك يا بيت ؟

بيت : حقاً يا إيني انه لطيف جداً .

مايلز : أنا واثق سيعجبكم المنزل . قلت لكم ان محطة الباص قريبة من هنا وكذلك المخزن .

هذه غرفة المدخل ، هنا يمكن وضع خزانة الملابس .

بيت : وهل جرت اصلاحات هنا ؟

مايلز : طبعاً . جرى اصلاح شامل للمنزل بعد أن غادره مالكونه السابقون . كان قبل الاصلاح في حالة جيدة . لكننا أعدنا طلاءه من جديد وغيرنا صنابير الماء . ويستطيع المالكون الجدد - إذا ما شاؤوا - أن يغيروا كل شيء حسب ذوقهم . الى هنا من

فضلكم . هذه غرفة الاستقبال .

بيت : قدنا ياسيد مايلز .

إيني : عاش هنا ملونون ، أليس كذلك ؟

مايلز : عفواً ماذا قلت ؟

إيني : ألم يكن المالكون السابقون من الملونين ؟

مايلز : آه .. نعم . لكنهم أناس محترمون . كان عليهم أن يغادروا من كل بد . فالقضية أن هذا الحي قد غدا بموجب القانون الجديد « للبيض » لكن كما ترون فقد نظف البيت وأصلاح بعد مغادرتهم له .

بيت : أرى ذلك فعلاً . وقد غادروا جميعاً ، أليس كذلك ؟

مايلز : تعني الجيران ؟ نعم أصبح الشارع كله نظيفاً . وبالمناسبة فجميع البيوت هنا قد بيعت لساكنين جدد ، وهذا آخرها . وهكذا فلا داعي للخوف أو القلق مطلقاً ياسيد هزلر .

إيني : يبدوا انهم كانوا أناساً جيدين . تعجبني هذه الحجرة أنها كبيرة مضيئة .

مايلز : حقاً ، بعض الملونين لطيفون جداً كبشر . نوافذ هذه الحجرة ، كما ترون ، تطل على الشرفة . اطاراتها من الحديد المقاوم للصدأ وتنفتح على مصراعيها ،

بيت : حجرة جيدة ويدخلها الهواء . ما رأيك يا إيني ؟

إيفي : نجعل هذا المكان ردهة استقبال . رأيت في المخزن ستائر صغيرة مناسبة لها تماماً .

مايلز : (مبتسماً بحسبت) أرى ياسيد هزلر أن ربة المنزل قد اتخذت قرارها .

بيت : ها - ها وما هذه السقوف ؟

مايلز : إنها في حالة جيدة . اعتقاد أن المالك السابق نفسه كان يتمهّن البناء .

بيت : ألا يمكن أن نستدعي مهندساً معماريًّا لنكون مطمئنين تماماً ؟

مايلز : مهندس معماري ؟ طبعاً في أي وقت تشاء ياسيد هزلر . والآن الى هنا من فضلكم . هذه هي حجرة للنوم ويوجد بالإضافة لها اثنان آخريان . نوافذها تطل على الحديقة . . . وهذا هو المطبخ .

إيفي : آه .. رائع جداً .

مايلز : فعلاً أليس ذلك جنة بالنسبة للسيدة هزلر ؟ مطبخ عصري ، ماء ساخن وبارد ، نافذة عريضة تطل على الحديقة ، حديقة رائعة ، لكنها مهملة بعض الشيء . يمكنكم مستقبلاً تسوية كل شيء حسب ذوقكم . لا يمكن معاينة مثل هذه المناظر الطبيعية الا في افريقيا الجنوبية .

بيت : لا استبدلها بأي شيء في الكون .

إيفي : من هنا سأستطيع رؤيتك يابيت وأنت تقضي العشب . انه عمل مفيد لك .

- بيت : من الصعب المرور من هنا فالنبات طويل وكثيف .
- مايلز : الحديقة مهجورة ولذا نمت فيها النباتات الطفيلية . مساحة كبيرة حوالي خمسين ألف قدم بالإضافة إلى عنبر . ها . . ها . .
- إيني : انظروا يالها من شجرة ضخمة .
- مايلز : شجرة تفاح . وتطل على حجرة النوم .
- إيني : مشمرة ؟
- مايلز : (ساخراً) لست متأكداً ، لا أعرف تماماً .
- إيني : سنزرع خلف المنزل جنائن أزهار . في الحقيقة لن تتمكن يابيت بمفردك من كل ذلك .
سنجد من يساعدك في ذلك .
- بيت : لافتكري يا إيني أني سأنظف هذا الدغل وحدي .
- مايلز : أنا واثق أن السيدة هزلر ستقدر هذا الأمر بنفسها .
- إيني : سأتركك يابيت مع السيد مايلز وأذهب إلى الحديقة فأنا نشأت في القرية وأحب الطبيعة . هل الباب الخلفي مغلق ؟
- مايلز : هناك مزلاج ياسيدة هزلر . سأساعدك في ذلك (يزيح المزلاج ويفتح الباب) .
- بيت : إياك أن تتعرّي بالدرجات ، كوفي حذرة يا إيني

إيفي : لاتقلق يا عزيزي لست طفلة . (يسمع وقع خطواتها على عتبة الدرج الخلفية ، وكذلك حفيف الأعشاب) . سنحرق النبات الطحلبي ، نقص العشب وستبقى عندنا روضة مخلصة ، وهذا مكان للحاكورة ، سأزرع هنا البطاطا والجزر ، يا إلهي ما أكثر النبات البري ، وهذه شجرة التفاح الكبيرة . هرمة جداً متقصفة . لو كان أبي حياً لاعتنى بها وأحياناً . كان بستانياً أصيلاً . بقعة لابأس بها . بوجه خاص الآن بعد أن هجروا الملونين . سنرى فيما إذا كان بيت سيقرر في النهاية . لا ضير يا اينغرد ستستطيعين إقناع هزلر إذا احتاج الأمر اقناعه . وهذا هو العنبر . سراه الآن . . .

(يسمع صوت افرايم . يغدو أعلى وأوضح مع اقتراب اينغرد من العنبر) .

افرام : . . . لابأس ياسيد ادوار . سترى ان كل شيء سيكون على مايرام . سنبقى معاً هنا ياسيد ادوار في كل الأحوال . نعم ياسيد ادوار ابق على الشجرة قدر ماتشاء . لن يطردك أحد . . .

إيفي : من هنا ؟ إيه اخرج من هنا وإلا صرخت للرجال .

افرام : لن يطردك أحد ياسيد إدوار . . . ماذا ؟ من هناك ؟
(يفتح الباب ويُسمع صرير له)

أوه عفواً يامدام ، ساميبي من فضلك . نهارك سعيد يامدام .

إيفي : ماذا تفعل هنا ؟ هذا منزل ، ملكية خاصة - للبيض فقط . ماذا ؟
هل كنت تعيش في هذا العنبر ؟

افرام : يعني تقريباً يامدام . حرست المنزل . هل ستستدعين الشرطة ؟

- إيفي : كنت تخرس المنزل ؟
افرام : يتسلق الأولاد على السياج ويرمون التوافذ بالحجارة .
إيفي : وهل أنت حارس ؟ السيد مايلز لم يقل لنا شيئاً من هذا القبيل .
افرام : يعني تقريباً يا مدام . كنت أعمل عند أصحاب هذا البيت السابقين ، اساعدتهم في أعمال المنزل . كانوا يطعمونني ، يعطوني الملابس وكذلك بعض النقود في أيام الجمعة . عشت عندهم سنوات عديدة ، ثم رحلوا بعدها .
إيفي : هذا مفهوم . لكن غير مسموح لك أن تبقى هنا . هل تسمع ؟
افرام : آه مدام ، لم استطع مغادرة المنزل وترك العجوز السيد ادوار وحده .
رجل الجميع وتركوه .
إيفي : سمعت وكأنك كنت تتكلم مع أحد ما في العنبر . قل للسيد ادوار هذا ان يخرج من هناك على الفور .
افرام : من أين ؟ أوه كلام ، لا أحد هناك .
إيفي : يا إلهي بماذا تهرب . منذ دقيقة سمعتكم تتتكلما مع أحدي ما في العنبر ، والآن الآن قلت لي إن هناك سيداً ما ... ادوار أو ما شابه .
افرام : مدام هذا أنا فقط العجوز افرام ، أنا هنا وحيد . أحياناً أتكلم مع نفسي . ولا يوجد أحد آخر هناك مدام .
إيفي : كذاب ، عجوز محتال ، هيادعني سأرى بنفسي .
(يسمع صرير الباب)

فعلا لا أحد هنا ، فراش عتيق وبعض الصرر فقط .

(ملتفتة الى افرام) مابك ؟ معتوه ؟

افرام : سامحيني مدام . قلت لك إني أشعر بالضيق أحياناً . فأنا وحيد هنا .

إيني : مادمت تحس بالوحدة انصرف من هنا قبل ان تجني على نفسك ما لا يسرك .

افرام : أرجو عفوكم وطبيك مدام .

إيني : يتكلم مع نفسه - سمعته بأذني . من هو ادوار هذا ؟

افرام : السيد ادوارد مدام . صاحب المنزل .

إيني : تعني مالكه السابق ؟

افرام : نعم ، مدام .

إيني : لماذا لم ترحل هه ؟ فالحكومة أمرت بأن تنصرفوا جميعاً من هنا ؟

افرام : لم لم أرحل معه ؟ كلام مدام لم يكن ممكنا فالسيد ادوار لم يرحل الى أي مكان .

إيني : لم يرحل ؟ مالك تهذى إليها المغفل وأين هو برأيك ؟ لا وجود له لافي العنبر ولا في البيت .

إفرام : نعم مدام ، أردت أن أقول لك أن السيد ادوار قد مات هنا .

إيني : مات هنا ؟

افرام : نعم مدام . وحول هذا كتبت الصحف . السيد ادوار شنق نفسه
دام . . .

إيني : شنق نفسه ؟

افرام : نعم مدام ، على هذه الشجرة .

إيني : على شجرة التفاح ؟

افرام : نعم مدام .

إيني : يا إلهي ، ويسبب أي شيء ؟

افرام : السيد ادوار ، مدام ، عاش هنا طوال حياته وعاش أبوه وأمه في
هذا البيت . بعد ذلك أعلنت الحكومة أن هذا الحي سيكون
للبلاط وأن على الملوك أن يرحلوا عنه . لكن السيد لم يستطع
الرحيل من هنا . لم يقواعد مغادرة منزله القديم . وفي الصباح مع
حلول الموعد النهائي ، انتحر ، علق نفسه على هذه الشجرة .

إيني : لأنه لم يشأ الرحيل ؟

افرام : نعم ، مدام ، كان ذلك مرعباً ، رحلت السيدة ادوار وأطفاها
الثلاثة .

إيني : ولماذا ؟ لماذا استفاد من وراء ذلك ؟ ياله من غباء .. كان مجذوناً
على مايبدو ..

افرام : ربما ، مدام ، كنا والسيد ادوار صديقين حميمين جداً . قال الناس
انه فعل ذلك كعلامة .. احتجاج .

إيني : احتجاج ؟ وهل تفهم في هذه الأشياء ؟ « احتجاج » - هذه الكلمة خطيرة جداً .

افرام : بلى ، مدام ، هكذا قال الناس . وفعلاً يبدوا أن السيد ادوار انتحر احتجاجاً . عندما احضروا له الانذار قال « كيف يجوز أن تسلب الحكومة الناس بيوبتهم هكذا بدون سبب ؟ كان عمره أقل من الستين بقليل ، وكان منزله غالياً على قلبه . . .

إيني : ما العمل ، يجب أن نمثل لأوامر حكومتنا . آه يعني ان السيد ادوار شنق نفسه على شجرة التفاح هذه ؟ فضاعة !

افرام : بلى ، مدام ، على هذه الشجرة ذاتها .

إيني : لكن لماذا كنت تردد - فأنا سمعت هذينك - انه يستطيع البقاء على الشجرة قدر ما يشاء ؟ ما هذا الهذيان ، وكأنه لم يرحل الى أي مكان ؟

افرام : أو مدام ، أتصور أحياناً وأنا وحيد هنا أني أراه ، إنه ما زال معلقاً على الشجرة .

إيني : أنت مجnoon أيضاً . ما زال معلقاً حتى الآن انظر - لا أحد هناك ، لا أحد معلق على الشجرة . عموماً تخصل أوهام مختلفة للناس . وقد حصل معي شخصياً ما يشبه ذلك . ذات مرة خيل لي إني أرى أحصنة تدعون في السهب ، لكن لم يكن ذلك في الواقع سوى ظلال غيوم . وفي حينه سخرت أمي من خيالي .

افرام : بلى ، مدام ، يحصل ذلك من الوحدة . أشياء كثيرة تقفز إلى الرأس . كنت والسيد ادوار صديقين حميمين ، وما زلت أتخيله

معلقاً على الشجرة . ربما لأننا كنا أصدقاء .

إيفي : كفى ! اقلع عن هذا الهراء واغرب من هنا . هل تسمع ؟ لن تكون مسؤولاً اذا ماجاء زوجي ورآك هنا .

افرام : بل مدام ، وخصوصاً اليوم ، في آخر يوم من الشهر .

إيفي : ماذا تقول ؟

افرام : دائمًا في آخر يوم من الشهر أرى المسكين إدوار على الشجرة .

إيفي : هذا كله هراء . ذات مرة تصورت اني أرى كنيسة على قمة جبل ، لكن تبين أن ذلك ليس سوى كومة صخور . وبالمناسبة لماذا يحصل ذلك في آخر يوم من الشهر تحديداً . ربما تكون سكراناً دائمًا في مثل هذا الوقت . أليس كذلك ؟

افرام : كلاماً . ففي آخر الشهر تماماً تنقضي المهلة لاستكمال التهجير . رحل جميع سكان الحي عدا المسكين ادوار . حاول اقاربه اقناعه ، لكنه لم يشا الاستماع لأحد . اقترب الموعد - مع ذلك كانت الشرطة ستلقي الجميع في الشارع في حال عدم طاعة الأوامر - صارت الاسرة تستعد لمغادرة المنزل عدا المسكين السيد ادوار الذي ظل جالساً يفكر بأمر ما . وفي آخر صباح نهض السيد ادوار باكراً خرج الى الحديقة عندما كان الجميع نياً بعد وانتحر .

إيفي : والآن يتراهى لك في كل آخر شهر معلقاً على الشجرة ؟ (تقهقه بصوت عال) . أنت على مايدو تكون سكراناً وقتيلاً تماماً . ربما لاتفاقك الزجاجة أبداً ، أليس كذلك ؟

افرام : كلا كلا مدام أنا . . .

بيت : (من بعيد) اينغرد ، أين أنت ؟ نحن جاهزون ، أي من معك هناك ؟

مايلز : ماذا يعمل هذا الرجل هنا ؟ هل أساء إليك ياسيدة هزلر ؟
(أصوات الرجال تغدو قرية ويسمع حفيظ الأعشاب)

بيت : من هذا ، من هذا العجوز المنحوس ؟

مايلز : ماذا تفعل في بيت الغير ؟ بأي حق أنت هنا يا حيوان ؟

افرام : ساحوني إليها السادة . أنا ذاهب الآن . فقط كنت أنكلم مع السيدة .

إيني : (تقهقه) قص لي حكايات عن تخيلاته . لقيته في هذا العنبر .

بيت : كان يجدر بك أن تكوني أكثر حذراً .

إيني : لكنه غير مؤذ .

مايلز : عم تحدثت ؟ ماذا اختلفت إليها السافل ؟

افرام : ساحوني ياسادة .

مايلز : اخرس ! آمل ألا يكون قد تجرأ على فعل شيء ياسيدة هزلر . لم أكن أظن أنه . . .

إيني : لاتقلق . لكن أمره غير عادي .

بيت : غير عادي ؟

إيفي : كان يعمل ، على ما يبدو ، لدى أصحاب البيت السابقين - لدى هؤلاء الملوك . يظهر أن عند بعضهم خدماً .

مايلز : بل عند بعضهم أحياناً .

إيفي : هذا العجوز المنحوس عمل خادماً لديهم . يقول أنه عندما حان موعد رحيلهم من هنا شنق صاحب البيت السيد ادوار نفسه في الحديقة على هذه الشجرة . لم يقوى على مفارقة منزله الغالي .

بيت : ربما لم يكن في كامل عقله . هل يعقل أن يتصرّف الإنسان بسبب تافه كهذا ، ولقد افردت لهم الحكومة أحياء أخرى . لم تسمع بذلك يا سيد مايلز ؟

مايلز : آآنعم . حول موضوع كهذا كتبت الصحف شيئاً ما على ما أعتقد . لكن - لا علاقة لنا وإياك . بمثل هذا الأمر - سمعت أن التحقيق قد توصل إلى أنه فعل ذلك وهو في حالة اختبال .

بيت : يتصرّف بسبب تغيير مسكنه وعلى كل حال لا أنا ولا أنت من يصدر هذه القوانين .

مايلز : بالضبط . الحكومة أعلنت أن هذا الحي « للبيض » وعلى « الملوك » الانتقال إلى مكان آخر ، وهذا كل مافي الأمر .

إيفي : لكن هناك أمر آخر . فالعجز يؤكّد بأنه يرى - أو يبالآخر يخجل له - في آخر كل شهر سيده السابق معلقاً على الشجرة .

مايلز : ماذا تقول إليها الشيطان . لقد نفذ صبري . أغرب عن وجهي وإنما استدعيت الشرطة .

إيفي : اتركه ، اطلق سبile ، أرجوك سيد مايلز .

مايلز : لأجلك فقط ياسيدة هزلر . إيه بوبي انصرف ! هل تسمع أيها الغبي !

افرام : نعم سيدتي ، حسناً سيدتي ، سيرحل العجوز افرام ، اسمحوا لي فقط بأخذ أشيائي ياسادة .

مايلز : لكن اسرع هيا .
(يسمع صرير باب العنبر ، افرام يجمع خرقه ويتعدد صوته باكيًا في الداخل)

افرام : سيرحل العجوز افرام أيضًا ياسيد ادوار . ساحني سيد ادوار أرجوك ... سأرحل .

مايلز : مع من يتكلم هناك ؟
إيفي : لقد تطلعت فلم أرأ أحداً . يبدو أن العجوز لشدة حزنه ووحشته يتكلم مع سيده الميت . يتصوره حيًّا .

بيت : يا لها من وقاحة .

إيفي : ويظهر في آخر كل شهر .

مايلز : هذا أمر مضحك وحسب سيدة هزلر . ولا استغرب اذا ما سمعت أن المحرضين من « الملونين » يحيكون المؤامرات .

بيت : وأنا لا أستغرب . فهو لاء الملونون والسود جن جنونهم .

مايلز : آمل الا تؤثر هذه الحادثة على قرارك سيدة هزلر . فقد اتفقت وزوجك على كل شيء .

إيفي : طبعاً لن تؤثر . كانت ثرثرة طريفة وحسب من قبل هذا العجوز . واضح انه محبول . ألا تذكر يا بيت كيف سخرتما أنت وأمي مني عندما قصصت لكم مثل هذه الرؤى .

افرام : وداعاً سيد ادوار . لاتبال ، كل شيء سيكون على مايرام ، ستزى ذلك (يخرج من العنبر ويلتفت الى الناس البيض) ساحوني من فضلكم فقد ازعجتكم .

إيفي : مارأيكم .. هل نتركه حارساً للحدائق ؟
بيت : لا لا لايقصينا سوى الملوك المجانين هنا . سنجد خادماً عاقلاً .

مايلز : وأنا لأنصحك به يا سيدة هزلر .

افرام : وداعاً مدام ، وداعاً ياسادة .

مايلز : انصرف ! تحرك بسرعة . . .

افرام : (يتعد صوته) مساكين نحن . يطاردوننا أبداً ..
بيت : وهكذا خلصنا .

مايلز : آمل ألا يكون قد أزعجكم . لا يعرف الانسان ما يتظره من هؤلاء . تمادوا كثيراً . والآن سيد هزلر بقى أمامنا تحرير العقد .

بيت : مارأيك اينفرد ؟ اعتقد أن المنزل مناسب لنا .

إيفي : وأنا أوافقك الرأي . المنزل واسع . حول السعر . آمل ألا يكون

غاليًا . غرفتنا نوم . سيكون بوسع الماما أن تضييفنا أحياناً .

بيت : يا إلهي ... قرار نهائي سيد مايلز .

مايلز : رائع والآن سننفلل المنزل اذا سمحتم ونذهب الى المكتب ،
اسمحوا لي أن اتقدمكم مرة ثانية



إيني : صباح الخير يا عزيزي . السابعة صباحاً الآن . ها قد أحضرت
للك القهوة وجريدة اليوم .

بيت : (متثائباً) صباح الخير عزيزتي . كيف حالك ؟

إيني : استرحت بعض الشيء بعد وعكة البارحة . لانستطيع ترتيب كل
أمورنا في يوم واحد ، لكنني متفائلة .

بيت : بقى أن نعلن عن حاجتنا الى خادم ، بعدها تنتهي متابعتك .

إيني : مرحي ! مرحي ! رائع . كيف حال جيراننا . فهم أيضاً من
السكان الجدد ، اعتقاد أن الاسرة التي تقطن في المنزل المجاور من
الناس الجيدين .

بيت : أولئك الذين يركبون الميكروباص ؟ كننيتهم - بيرس . تحدثت مع
رب الأسرة . انه مهندس .

إيني : هكذا ؟ أما أنا فتحدثت مع السيدة كارلسون وعلمت أنها تتقن
حرفة التنجيد .

بيت : بالنسبة ، أزحقي ستارة النافذة ، دعينا نقرأ ما تكتبه صحيفة اليوم .

إيني : دقيقة واحدة
(تسمع خشخشة صفحات الصحيفة وقع اقدام إيني التي تقرب من النافذة وتزيح الستارة) .

بيت : شكرأ . لنر ما الجديد في الأخبار . هذه اعلانات عرض بيوت للبيع .

إيني : (مع فهقهة) صرت معتاداً بشكل عفوياً ياعزيزي على تقليل صفحات الاعلانات . لم يعد ثمة داع الآن . صار عندنا بيت .

بيت : (مبتسماً) طبعاً بشكل عفوياً . بالنسبة ماتاريخ اليوم ؟
إيني : لماذا ؟ عيد ميلادك بعيد .

بيت : اليوم آخر الشهر . يجب دفع القسط الأول للسيد مايلز .
إيني : آ ... بالطبع

بيت : آ ... كيف الطقس اليوم ؟

إيني : صباح رائع ياعزيزي .. يجب أن نعمل طوال اليوم في تنظيف الحديقة .

بيت : يجب استئجار عامل لهذا الغرض . لكن لم نر حتى الآن ماتكتبه الصحيفة (خشخشة صفحات الصحيفة) ...

إيني : (بصوت مرتعد) بيت !

- بيت : نعم ماذا ؟
إيني : بيت ! . . انظر انه هناك في الحديقة .
بيت : في الحديقة ؟ ماذا في الحديقة ؟
إيني : (بصوت قريب من الصراخ) هناك على شجرة التفاح .
بيت : ماذا حصل ياعزيزتي ؟
إيني : على الشجرة . بيت ! هناك ! معلق ! إنسان معلق على
الشجرة ،



د. عبدالنبي اصطفيف

قواعد غير ملائمة في مكتبة الأدب الإفريقي

ترجمة : محمود فخرى

الصبي الخادم

ترجمة : عبد الصاحب صوان

مقابلة مع أندريه يربنك



قراءات غير متأنية في مكتبة الأدب الإفريقي

د. عبدالنبي اصطفيف

أولاديلي تيوو

*** الثقافة والرواية النيجيرية**

ماكميلان ، لندن ، ١٩٧٦ ، ٢٣٥ ص

إذا عرف المرء أن هذا الكتاب هو أول كتاب يكرس للرواية النيجيرية ، وأنه كتب من قبل داخلى عرف بطول باعة في حقل الدراسات الأفريقية ، فإنه يستطيع أن يدرك أهميته كخطوة متقدمة في تاريخ نقد الأدب الأفريقي .

ومن الجدير بالذكر أن الدكتور أولا ديلي تيوو قد تلقى تعليمه الجامعي في جامعة درم في إنكلترا ، ودرس التربية فيها بعد

Oladele Taiwo

*

Culture and the Nigerian Novel

Macmillan, London, 1976.

في كلية ترينتي في دبلن ، ثم تقدم برسالة دكتوراه عن الرواية النيجيرية إلى جامعة ستيرلنج في اسكتلندا يعود بعدها إلى لاغوس ويدرس اللغة الانكليزية وأدابها في جامعتها حيث يشغل منصب أستاذ حاضر فيها . وللدكتور تيوو- إضافة إلى مقالاته العديدة عن الأدب الأفريقي - حوالي اثنا عشر كتاباً مدرسياً تدرس في نيجيريا وسواءاً من الأقطار الأفريقية . وهو معروف بشكل خاص بكتابه « مدخل إلى الأدب الأفريقي الشرقي » الصادر عام ١٩٦٧ .

إن كتاب تيوو ينتمي إلى نتاج جيل جديد من الدارسين الأفارقة جعوا بين المعرفة الوثيقة بمجتمعاتهم وثقافاتهم وبين المنهجية والتقاليد الجامعية الرفيعة في البحث والتأليف . وقد تقدم هذا النتاج الجديد بالنقد الأفريقي أشواطاً واسعة وجعله بحق ينتمي إلى العصر الذي نعيش فيه .

يتحصل المؤلف في كتابه أكثر من ست وعشرين رواية نيجيرية من أجل سبر موقف الروائيين النيجيريين من الثقافة الأهلية لأوطانهم وشعوبهم وتحديد مدى وثاقة صلة تراثهم الوطني وتجربتهم الحديثة . ويعني المؤلف بتعبير الثقافة النيجيرية الأهلية مجموعة العادات والمعتقدات والآراء التقليدية التي تسود المجتمع النيجيري .

وتراه يغير انتباهاً خاصاً للطريقة التي تحاول بها الرواية النيجيرية هذه الثقافة . فهو يراها - على ما يبدو - محاولة جادة لنقل العادات والمعتقدات والآراء التقليدية إلى سياق جديد تماماً هو سياق القرن العشرين بلغة يستطيع القارئ النيجيري أن يستجيب لها .

وقد انصب اهتمام المؤلف الرئيسي على معرفة مدى نقدية تقديم الروائي لتلك الأوجه من التراث الأهلي التي اختارها للمعالجة في رواية ومدى نجاحه في تقدمها الفني .

وبعبارة أخرى لقد كان المؤلف مشغولاً بالبحث عن أجوبة لجملة من الأسئلة كانت تؤرقه كباحث داخلي مثل :

ما هي القيم الخاصة التي ينادي بها الروائي أو يعارضها ؟
وما هو موقفه تجاهها ؟

ما هي النتائج العاطفية والثقافية التي يأمل أن يحققها عمله ، وهل ينجح في تحقيقها ؟

وإذا ماتم له ذلك فبأي طرق التوصيل ؟ وأي هذه الطرق كان أكثر توفيقاً من تحقيق أهدافه ؟

ثم إنه إذا ما كان قد أخفق ، فبسبب أي عائق من عوائق التوصيل كان هذا الإخفاق ، وما هو تأثير هذا الأخير على القارئ ؟

ما هي الاستجابات التي أثارها الروائي لدى القارئ ؟

وأخيراً ما هو الحيز الذي يشغله عمل معين من أعمال المؤلف بالنسبة إلى آثاره كلها فيما يتعلق بمواجهة الثقافة الأهلية المحلية ؟

وثمة أمر آخر على قسط كبير من الأهمية هو مشكلة اللغة . إن الكاتب النيجيري يستخدم على الغالب لغة غير لغته الأم ، وللغة ثقافة ومنحى معين في التفكير ، ومن خلالها ينعكس وعيه الفردي روّية للعالم . ومعنى هذا أن المؤلف مضطرب لدراسة لغة الروائي النيجيري ومن هنا كان اهتمامه أيضاً بمشكلة التوصيل .

قسم المؤلف كتابه إلى مقدمة وستة فصول وخاتمة . وتحدث في مقدمته عن منهجه وحدود بحثه ومنطلقاته في هذه الدراسة .

أما الفصل الأول فقد خصصه لدراسة المؤثرات التاريخية والثقافية في الروائين النيجيريین وتوقف بشكل خاص عند تأثير النظام الاستعماري وتجارة الرقيق وما جرّاه على الحياة في نيجيريا من عواقب ، إضافة إلى اهتمامه بتأثير

الأعمال الأفريقية الأدبية الأولى ، وباراء الروائيين النيجيريين بالثقافة النيجيرية المحلية والتراث الشفوي . وناقش المؤلف في الفصل الثاني قضية النقد الاجتماعي في الرواية النيجيرية وتوقف عند مجموعة من الروايات كـ «شيخو عمر» لأبي بكر تفاوابليوا و«ريع مقابل تعدد الزوجات» لـ أبي إغبونا ، وأشياء كثيرة لافتة لها «لـ أدورا ألاسي» و«داند» لـ إنكيم أونوانكورو و«الصوت» لغابرييل أوكارا .

وأما الفصل الثالث فقد كرسه لروايات «أموس توتولا» ، وناقش في بدايته موقف هذا الروائي من الموروث الشفوي والأدبي وتأثيره على نتاجه ، وأتبع ذلك بدراسة مفصلة لرواياته الست :

«مدمن خمرة البلح» ١٩٥٢

«حياتي في أجمة الاشباح» ١٩٥٤

«سيمبى واساطير الغابة المظلمة» ١٩٥٥

«الصيادة الأفريقية الشجاعية» ١٩٥٨

«أمراة الغابة ذات الريش» ١٩٦٢

«أبابي وفقره الموروث» ١٩٦٧

لينهي فصله بحديثه عن تطور توتولا الأدبي ويشير بشكل خاص إلى نمو قدرته المستمر على صقل فنه ككاتب . إذ أنه كلما ازدادت كتاباته صقلًا كلما ازدادت أفكاره حداً ثالثاً . وكذلك فإنه يبين كيف حاول توتولا أن ينقل موروثه المحلي بلغة انكليزية تظهر كل خصائص اللغة الأم .

والواقع أن توتولا كما يوضح المؤلف مثال واضح على الكاتب الذي يستخدم مواهبه الأدبية وقدراته الإبداعية الغريبة لإقامة رابط متين بين الموروث والحياة الحديثة . فعلى الرغم من انغماس أدبه بتقاليد اليوروبية ، فإن قيمة رواياته تكمن في الطريقة التي يوسع فيها من آفاق خياله التقليدي الجامح الذي

أتحته له حكايات اليورو با الشعبية بحيث يستوعب وجوه الحضارة الصناعية الحديثة . إن توتو لا يذكر قارئه دائمًا بالقيم والشروط التي كان عليها مجتمع الماضي . ومع أنه بدأ من موقف غير نقدى للثقافة الأهلية ، ومن قبول قائم لها . إلا أنه في النهاية استطاع الوصول إلى الشك في الافتراضات الأساسية لهذه الثقافة .

ويتناول المؤلف في الفصل الرابع أعمال كبير روائي القارة شينو أشيبى فيقدم تحليلًا موسعاً لأربع من رواياته هي :

« أشياء تتحلل » ١٩٥٨

« لا راحة بعد الأن » ١٩٦٠

« سهم الله » ١٩٦٤

« رجل الشعب » ١٩٦٦

مرکزاً بشكل خاص على مشكلة التوصيل التي يدرسها على مختلف مستوياتها ، إذ أن أشيبى كان مسكوناً بها فيما يبدو . فهي تطرح نفسها في أدبه على نحو صارخ وغالباً ما يؤدي الانقطاع في التوصيل في رواياته إلى كارثة أو مأساة .

ومن الجدير بالذكر أن المؤلف لا يقتصر في دراسته لهذه المشكلة على روايات أشيبى بل يأخذ بعين الاعتبار مقالاته ودراساته ويقدم إشارة واسعة لها .

أما الفصل الخامس فيناقش المؤلف فيه ألوكو هجاء نيجيريا الأول ويدرس مجموعة من رواياته منها « رجل واحد ، زوجة واحدة » ١٩٦٧

« رجل واحد ، ساطور واحد » ١٩٦٥

« الزعيم ؛ الوزير الفاصل » ١٩٧٠

« صاحب الحال المبجل » ١٩٧٣

ليبين كيف أن الوكوق قد نظر إلى ماحوله في الخمسينات النيجيرية فرأى الفساد في السياسة والإدارة والناس العاديين فانصرف إلى كل ذلك يهجوه وبمرارة . وليرسم كيف أن الصلة التي يقيمها هذا الروائي بين الموروث والحياة الحديثة غالباً ماتزيدناوعياً بشروط الحياة الإنسانية في المجتمع الحديث وتنميها .

ويتوقف المؤلف في الفصل السادس والأخير عند روايات أونورا أونزيكوكو إيلتشي أمادي فيشير إلى تأثير أشيبيري على نتاجهما . ويبيّن كيف أن أعمال هذا الروائي الكبير قد قدمت حافزاً هاماً لفنانيين موهوبين استطاعوا تقديم أعمال أصيلة و مختلفة . ويختم حديثه عن تطورهما الأدبي بالإشارة إلى أنها يشتراكان في الخلقة الثقافية (ثقافة الإيبو) ولكنها مختلفان من جهة أخرى بالطريقة التي يوظفان فيها هذه الثقافة فنياً . وربما كان من أهم ما يميزهما هو نجاحهما في استخدام اللغة الانكليزية وحسن استعمالهما لأمثال الإيبو ومصطلحاتها وكلماتها وحتى صورها .

أما الخاتمة فقد خصصها المؤلف لإيجاز نتائجه وتقديم تقويمه لمحاولة الروائيين النيجيريين إقامة جسر بين موروثهم الثقافي الوطني والتجربة الحديثة .

يقول أشيبيري إن هدفه من الكتابة هو أن يساعد مجتمعه على استعادة إيمانه بنفسه ويواجهه الظلم ويدحره . ويبدو أن هذا الهدف المزدوج كان الحافز الرئيسي عند غالبية الروائيين النيجيريين في توظيفهم لعناصر موروثهم الثقافي الوطني وهو ما استطاع المؤلف مناقشه بشكل واف ومنهجي حقاً . رغم أنه لم يتبع إلى الخيار الصعب الذي يواجهه الروائي النيجيري (والأفريقي عامه) عندما يحاول التعبير عن موروثه الثقافي الوطني بلغة أوروبية لها تراثها الخاص بها .

شاتو آرثر غاكا واندي

الرواية والتجربة المعاصرة في أفريقيا*

هينمان ، لندن ، ١٩٧٧ ، ١٣٦ ص

يقع الكتاب في مدخل وستة فصول وخاتمة . تناول المؤلف غاكاواندي ، وهو كبير الأساتذة المحاضرين في جامعة ماكيريري في كامبala عاصمة أوغندا ، في المدخل الخلفيين التاريخية والأدبية ، ثم درس في الفصول الستة موضوعات الرواية الأفريقية من خلال أعمال محددة . وهكذا توقف في الفصل الأول عند موضوع « الظلم الاستعماري » في رواية أويونو « صبي البيت » ورواية لاغوما « مشي في الليل » ، وتفحص في الفصل الثاني « وهم التقدم » من خلال رواية شينو أشيببي « لراحة بعد الآن » ورواية بتي « مهمة إلى كالا » ، ودرس موضوع « القومية » من خلال رواية أبرامز « إكليل ورد لأودمو » ورواية ألوكو « رجل واحد ، وساطور واحد » . وفي الفصل الرابع ناقش المؤلف موضوع « خيبة الأمل » في رواية سوبينكا « المترجمون » ورواية أشيببي « رجل الشعب » ، وخصص الفصل الخامس لموضوع « الحرية كابوساً » فعالج رواية أرما « الجميلات لم يخلقن بعد » ورواية دوورو « صبية الشريرة » . أما الفصل السادس فتناول المؤلف فيه موضوع « الالتزام » وحلل فيه رواية أونغوغى « حبة قمح » ورواية سمبين عثمان « أشياء الله الخشبية » ، وأما الخاتمة فقد خصصها لمناقشة موضوع « الواقعية والرواية الأفريقية » . وفيها يشير إلى ماورثته الرواية الأفريقية عن رواية أوربا في القرن التاسع عشر من « واقعية اجتماعية » إذ أن الرواية الأفريقية في الجوهر والتقنية قد استعارت

C. A. Gakawandi

*

The Novel and Contemporary Experience in Africa,

Heinemann, London, 1977.

الكثير من الرواية الأوربية . والواقع أن هذه الرواية إذا ما قورنت بما أنتجته القارة من شعر ومسرح كانت على شيء من خفر في ميدان التجريب . فعلى حين اخترع الشعراء الأفارقة نهادج جديدة تجسد استجاباتهم للحياة الحديثة ، وأفاد المسرحيون من تراثهم الشعبي في انتاجهم المسرحي ، اكتفى الرواة بتوظيف التقنيات ، التي طورتها الواقعية الأوربية ، في التعليق على التجربة الأفريقية . صحيح « أن اللون المحلي موجود - في نتاج أشيبو ، ولايي ، وأنغوغو ، وأويونو ، ولكن الشكل الأساسي يبقى غير معدل » ص ١٢٧ . إنه الشكل الأوروبي الموروث عن واقعية القرن التاسع عشر الاجتماعية .

والواقع أن الروايات التي نقشتها المؤلف تشكل المجرى الرئيسي للرواية الأفريقية ذلك المجرى الذي شكلهوعي اجتماعي سام . ولقد غذى هذا الوعي بدوره من قبل هذه الروايات التي سعت وعلى نحو جاد إلى زيادة وعيينا للقضايا الرئيسية لعصمنا والتأثير عليه . إن هذه الروايات كما يؤكدها واندي تقدم تقويمًا نوعياً للحياة الأفريقية الحديثة . وأكثر من هذا إن مؤلفيها ينظرون إلى أنفسهم على أنهم نقاد اجتماعيون وليسوا مهرجين يبحثون عن امتاع القارئ وتسليته .

ورغم ذلك ، وحتى ولو حاكمنا الرواية كوثيقة اجتماعية ، فإننا ينبغي أن نعرف بأن على الكاتب أن يخضع إلى توجيهات الضرورات الفنية حتى يعرض آراءه بالتأثير الذي يتواه . وهكذا فإننا ، وإن كان علينا أن ننتبه لنوع النقد الذي يوجهه الروائي الأفريقي لمجتمعه ، لانستطيع أن ننظر إلى هذه الروايات كمعالجات اجتماعية بل ينبغي النظر إليها على أنها أعمال فنية . « إن الصورة العامة التي تنبثق من قراءة نقد المجتمع الأفريقي هي صورة أفريقيا . كحديقة ملأى بالطفيليات وفعل كتابة القصة نفسه - كان بالنسبة لكل روائي - إسهاماً نحو نزع هذه النباتات الطفطيلية من الحديقة » ص ١٣٠

المحرر : إلدرد دورسيمي جوز

الرواية في أفريقيا ، وهو العدد الخامس من المجلة السنوية : الأدب
الأفريقي (**).

الطبعة الرابعة (*) ، هينمان - لندن ١٩٧٧ ، ٥٨ ،

ويضم اضافة إلى افتتاحية التحرير شهادتين مقالات مخصصة للرواية
الأفريقية ، وقسم للتعليقات وأخر لمراجعات .

أما قسم المقالات فيشمل :

- « الأدب الأفريقي : متطلبات ناقده » لارست إمينيونو من جامعة
ويسكنسن

- « حكاية إيكونو المدورة غير المصقرنة » لبول إدوارد من جامعة أدبرنة

- « روايات أونورا أوتزيكورو » لـ ج. د. كلام من جامعة دار السلام

- « ت. م. الوکو : اهچاء النیجیری » لبیرنٹ لیندفورس من جامعة
تكساس

- « الدين والحياة في رواية جيمس أوينغولي نهر المابين » للويدو بيلامز من
كلية كلمازو - في ميشيغان .

- « رواية الزواج المتهي والمراجعون المتهمون » لـ جاك ، ب ، مور من
جامعة جنوب فلوريدا

Eldred Durosimi Jones,

The Novel in Africa

Hinemann, London, 1977.

African Literature Today

**

- « اللغة والحدث في روايات شينوأشيببي » لـ غاريث غريفس من جامعة إيست أنجليا

- « المضمون التقليدي لسرحيات وولي سونيكا » لـ أوين أوغونبا من جامعة عبدالان.

وأما قسم التعليقات فيتضمن تعليقاً إضافياً على رواية آبي كوي آرما « الجميلات لم يخلقن بعد » كتبته مارغريت فلورين من جامعة إلف، وتعليق آخر على رواية كهارا لابي « طفل أفريقي » كتبه ديفيد كارول من جامعة تورنتو.

وأما قسم المراجعات فيتضمن قراءات موجزة لمجموعة من الروايات الأفريقية المكتوبة بالإنكليزية أو الفرنسية إلى جانب نقد مجموعة من الكتب التي تعنى بالرواية الأفريقية.

وربما كان من أبرز مواد هذا العدد المقالة الأولى التي يناقش فيها إرنست إمينيونونقاد الأدب الأفريقي هذه الظاهرة المحيرة التي جعلتهم يستجيبون لها استجابات متباعدة في تفهم اسهامتها للأدب المعاصر في العالم ولصلتها بظروف انتاجها ، دون أن يكونوا مؤهلين حقاً لمواجهة الانشاء الأفريقي الذي يتطلب تكويناً ثقافياً معيناً واستعداداً نفسياً محدداً وموقعاً فكريأً ناضجاً .

يقول شينوأشيببي كبير أدباء نيجيريا :

« نحن لسنا معارضين للنقد ، ولكننا أصبحنا متعبين من كل الانهاط الخاصة للنقد التي صممت لنا من قبل أناس معرفتهم بنا محدودة جداً » ص ١٠ (من المرجع السابق) إن مقالة إمينيونوهي مساهمة جادة في نقد هذه الأنماط وطموحة مشروع نحو نقد أدبي أفريقي حق .

المحرر كريستوفر هيود
منظورات في الأدب الأفريقي *
الطبعة الثانية ، هينمان ، لندن ١٩٧٥ ، ص ١٧٥

يضم هذا الكتاب الذي حرره البروفيسور هيود كبير محاضري الأدب الأنكليزي في جامعة شيفيلد والأستاذ الزائر لجامعة إلف مختارات من وقائع مؤتمر الأدب الأفريقي الذي عقد في جامعة إلف عام ١٩٦٨ .
وتشتمل هذه المختارات على ثلاثة عشر بحثاً وزعها المحرر على أربعة أقسام هي :

- ١ - « الأدب والنقد » وضم ثلاثة بحوث لـ جيمس أونغونغي الذي ناقش موضوع « الأديب الأفريقي وماضيه » ولـ أبيولا إيريللي الذي تحدث عن « نقد الأدب الأفريقي الجديد » ولـ و. س. إيزيفبايه « النقد والأدب في أفريقيا » ;
- ٢ - اللغة والأسلوب وتشتمل على ثلاثة بحوث أيضاً هي « تطور كتابة النثر الأفريقي بالإنكليزية : منظور » لـ لالاغي بون و « اللغة ومصادر أموس توتولا » لـ أ. أفوليان و « بعض مشكلات الترجمة في الأدب الأفريقي » لـ برنارد باكمان .

- ٣ - الاشكال الأدبية : وضم ثلاثة بحوث كذلك هي : « المسرح الحديث في غرب أفريقيا » لـ أوين أوغونبا و « طبيعة القصة الشعبية في غانا » لـ إيكيده و « التقليدية والأدب الأفريقي » ج. ب. كلارك لـ إ. أوفوري أكابي

Christopher Heywood (edit)

*

Perspectives on African Literature

Heinemann, London, 1975.

- مؤلفون وأعمالهم : وناقش فيه أربعة باحثين أعمال ثلاثة من كبار كتاب إفريقيا هم وولي سونيكا وكهارا لابي وبستر أبرامز إضافة إلى أدب شرقي إفريقيا . وهكذا درس الدرد جونز « التقدم والحضارة في أعمال وولي سونيكا » وناقش ديفيد كوك « أهمية الملك في رواية كهارا لابي *Le Regard du Roi* » وتحدث ديفيد روبيادي عن « تطور الكتابة في شرق إفريقيا » وحلل كريستوفر هيوود « روايات بستر أبرامز ».

إن المستويات النقدية هامة لتطور الأدب الإفريقي ، وأهمية هذه المجموعة من البحوث تكمن في كونها تضع وجوهاً مختلفة من هذا الأدب في منظوراتها الصحيحة ، وبالتالي تتيح لنا رؤية أكثر قرباً من حال هذا الأدب الغني المتميز وخاصة فيما يتصل بالعلاقة بين تقاليد اللهجات المحلية والوسائل الأدبية القابلة للنشر ، بين التراث الشفوي المنقول باللغات الأفريقية المختلفة وبين أدوات التعبير والأجناس الأدبية التي حملتها المواجهة المعقدة والمتحدة الوجه مع الغرب المستعمر .

يوستيس بالمر

مدخل للرواية الأفريقية

الطبعة الثانية ، هيكلن ، لندن ١٩٧٣ ، ١٧٦ ص

وهو أحد كتاب سلسلة « دراسات في الأدب الأفريقي » التي تصدرها دار النشر هيكلن والتي صدر منها حتى الآن ما يقرب من بضعة عشر عنواناً منها « دليل القارئ للأدب الأفريقي » و« مسارات من قارة » و« الاحتجاج

Eustace Palmer

*

An Introduction to the African

Novel, Heinemann, London, 1973.

والصراع في الأدب الأفريقي » و« منظورات في الأدب الأفريقي » و« الأدباء الأفارقة يتحدثون » و« أدباء أفارقة يكتبون عن الكتابة الأفريقية » و« روايات شينو أشيببي » و« روايات منغوبتي » و« كتابات وولي سونيكا » و« شعر ل. س ، سينغور » وغيرها .

يتناول الدكتور بالمر وهو كبير محاضري الأدب الانكليزي في جامعة سيراليون في هذا الكتاب اثنتي عشرة رواية لـ شينو أشيببي ، وجيمس أونغوغى ، وكهارا لايبى ، وإيلتشى أماري واي كيوى أرما ، ومنغوبتي ، وغابرييل أوكارا) جميعها كتبت باللغة الانكليزية .

وربما كان من أهم ما يميز عمله الطابع الأدبي . فعلى خلاف كثير من النقاد الذين يتناولون الأدب الأفريقي بالدراسة لاعتبارات فوق أدبية : سوسيولوجية وتاريخية وغير ذلك ، يحاول الدكتور بالمر أن يوضح - من خلال تخليلاته التفصيلية للرواية المدرورة - كيف تحقق للعمل الأدبي مستوى الفن البارز .

ومن الجدير بالذكر أن الدكتور بالمر ولد في سيراليون وحصل على درجة الدكتوراه من جامعة ادنبره على رسالة في هنري فيلدينغ . ومنذ عام ١٩٦٦ وهو يقوم بتدريس الأدب في كلية فوره بييه في جامعة سيراليون حيث عرف باهتمامه بالدراسات النصية للأدب الأفريقي ، وبعنايته الخاصة بتقديم الروايات الأفريقية إلى القراء الجدد . ومن هنا كان عمله حصيلة قراءة على قسط وافر من الحساسية النافذة والاهتمام الحقيقي بمستقبل الأدب الأفريقي الجديد .

هذا وقد حظيت أعمال شينو أشيببي وجيمس أونغوغو بنصيب الأسد من اهتمام الدكتور بالمر إذ أنه درس ثلاث روايات لكل منها فتناول في الفصل الأول روايات « لاتبك يا ولدي » و« نهر المابين » و« حبة قمح » لأنغوغى وناقش في

الفصل الثاني روایات «أشیاء تتحلل» و«لراحة بعد الآن» و«رجل الشعب» لشینو أشیبی .

أما الفصل الثالث فقد خصصه لـ كهارا لابي وحلل فيه روایته «الولد الأفريقي» و«إشعاع الملك» ، على حين تناول في الفصل الرابع روایة إيليتتشي أمادي «الجارية» ، وروایة «الجميلات لم يخلقن بعد» لابي كیوی أرما في الفصل الخامس ، وروایة «مهمة إلى كالا» لونغوبوچی في الفصل السادس ليختتم كتابه بدراسة رائعة غابریل أوکارا «الصوت» .

يقول الدكتور بالمر في مقدمته لكتابه الممتاز إن ظهور عصوں واف من الروایات الأفريقية بالإنكليزية والفرنسية هو من أبرز التطورات الأدبية التي شهدتها ربع القرن الأخير . لقد كان من المحتم أن تنتج حركة تقرير المصير ، وبروز نخبة Africaine متعلمة تعليمًا عتادًا وقدرة على الإفصاح ، عدداً من الأعمال الفنية التي صنعت «لتعبر عن قوة وصلاحية وجمال الحياة والثقافة الأفريقيتين» ، وعلى حين انصرف نقاد الأدب الأفريقي الآخرون إلى التركيز على مآرآء الروائيون الأفريقيون أن يقولوا حاول الدكتور بالمر أن يوضح في تحليلاته النصية الممتازة كيف قال هؤلاء الروائيون ما قالوه . وهذا طموح مشروع . صحيح أن رسالة العمل هامة ، ولكن النقد الفني لتقنيات الروایة عمل مشروع أيضاً . فالرواية المتقدمة الصنع هي نسيج من الرسالة والتقنية ، وأي عمل مختلف في أي منها هو عمل مفتوح للنقد واهتمام الدكتور بالمر بفنية الروایة الأفريقية هو تأكيد على صلاحية هذه الروایة فنياً كتعبير أدبي قادر على تقرير المصير الأفريقي .



مؤسسة الأبحاث العربية
فرديناند أوينونو
 محمود متدرى
 بيروت
 الطبعة العربية الأولى ١٩٨١

في روايته «الصبي الخادم» يرصد فرديناند أوينونو واحدة من أهم المراحل في تاريخ إفريقيا هي المرحلة المبكرة من الفرز والاستعمار لها. وهذه المرحلة مبكرة للدرجة أن ظهور «الرجل الأبيض» كان لا يزال «حدثاً»، بالنسبة للمواطن المحلي، وأماموته فحدث ربياً يشهده لأول مرة. إنها المرحلة التي كان الرجل الأبيض فيها يرى أنه لا يحتاج لتدجين إفريقيا «البدائية»، إلى أكثر من بعثة تبشيرية ومركز للشرطة. وقد استطاع «أوينونو» في روايته الخامسة هذه أن يجسد بدقة بالغة جانبيين متناقضين أعظم تناقض ميزاً هذه المرحلة من تاريخ إفريقيا: ماذا فعل الرجل الأبيض، وكيف ردت إفريقيا عليه.

إن التدقيق في الشكل الفني لرواية «أويونو» يظهر أنه يخدم تماماً ما يرمي به الكاتب إلى تجسيده . فجسم الرواية الأساسي هو يوميات يسرد فيها شخص واحد - تاوندي - تاريخ حياته القصيرة زمنياً الغنية بتفاصيل كثيفة ودلالات يسهل الامساك بها . وتبني هذا السرد البسيط لليوميات مقدمة هي في حد ذاتها قصة قصيرة تشكل تلخيصاً مكثفاً ووافيأً لحدث هو في الحقيقة محور الرواية بكاملها (صبي - تاوندي - من أحدى قرى الكاميرون يهرب عن قريته وأهله وينتهي إلى الموت بعد تعذيب وحشي على يد الرجل الأبيض) . هذا الشكل ، الذي يكشف النهاية منذ البداية ، يوحي بأن (أويونو) لا يريد لهذا الحدث في حد ذاته أن يستحوذ على أقصى اهتمام المتلقى وإنما يريد ذلك لمجمل الصورة التي تتشكل من نسيج اليوميات التالي . وبكلمات أخرى فإن (أويونو) يريد أن يضع في حكم الطبيعي أن من ينسليخ عن انتهائه الوطني ومحاول التهايل مع عدوه ، كما في حالة تاوندي ، سيكون مصيره المحتمل هو الموت ، وهذا لا يحتاج ، في سياق الرواية ، إلى أكثر من هذه المقدمة لتبثبه . وأما ما يحتاج إلى التركيز عليه وكشفه فهو الكيفية التي تم فيها الحدث - موت تاوندي - والمسار الذي أوصل إليه فذلك يتضمن الكشف عن الجانيين اللذين أشرنا إليهما : ماذا فعل «الرجل الأبيض» وكيف ردت إفريقيا عليه .

لقد كان لقاء الكاتب الوحيد مع «تاوندي» والأخير على فراش الموت وقد استيقظت ، بكل عنفوانها ، افريقيته التي أراد في لحظات تمرد «طائش» أن يتخلّى عنها . وقد تجلّى هذا العنفوان في تلك الصرخة المترعة بالاحساس بالقهر والألم والمرارة : « أخي ! ما نحن الرجال السود المسمون (فرنسيين) ». كما تجلّى هذا العنفوان أيضاً في إحساسه العميق بالنندم لأنه تخلى في وقت مضى عن انتهائه - عن قريته وقبيلته : « أنا من الكاميرون يا صديقي ... أنا من « الماكا » . كنت ساعيش طويلاً حتى تشيح عظامي لو

كنت ولداً طيباً ولزمني بيتي . . . ،

فها هو «أويونو» ، منذ السطور الأولى في روايته يحدد مقومات بقاء الأفريقي المستهدف بالغزو ، ويفشي ، في نفس الوقت وباختصار شديد ، سبب مأساة «تاوندي» التي ستكتشف تفاصيلها في يومياته . مقومات بقاء الأفريقي ، أمام هذا الغزو ، تتمثل في تمسكه بقبيلته وبتراثه القبلي . هذا التراث الذي قدم «اتشبي» لوحات متكاملة منه في رائعته «الأشياء تداعى» بينما تلمسه في كل خيط من نسيج رواية «أويونو» ففي المشهد الأول منها أبرز الكاتب بلغة شاعرية حميمية العلاقات القبلية عند مضي فيه في غينيا الإسبانية . ولا تكاد تخلو فقرة من يوميات تاوندي من أثر التراث والتقاليد على نظرته وتقييمه لكل ما يفعله «الرجل الأبيض» . لكن الكاتب رغم تأكيده على فعل التراث الایجابي ثابر في كل روايته على إرسال نقد هنا أو هناك لما هو مختلف في هذا التراث والتقاليد بل إنه في بداية يوميات «تاوندي» يبرز وطئة التقاليد التي كانت سبباً في موت الأب لأن ابنه قد هرب إلى قيسس أبيض قبل يوم واحد من تكريسه⁽¹⁾ وهي التي دفعت «تاوندي» إلى الهرب والالتجاء إلى هذا القيسس . ويعطي الكاتب كثيراً من الاهتمام لهذه الحادثة ويعرضها بصورة يستشف منها ميله إلى إثارة تعاطف مع «تاوندي» أمام صرامة والده ووطأة تقاليد الطاعة المبالغ فيها . فحين يطارد الأب ابنه ليوقع به عقوبة الضرب المبرح - التي خبر الصبي فيما مضى قسوتها - دون أن يقتنع الابن أنه يستحقها ويحاول الهرب يلجأ الأب إلى «ابتزا» ابنه باعتبار هربه دليلاً على أنه يمكن أن ينام مع أمه . ويلح «أويونو» على إبراز قسوة هذا التقليد فيكرر المشهد مع استبدال الأم بالجدة هذه المرة .

و واضح أن «أويونو» يريد أن يحمل هذا النوع من التقاليد بعض

(1) التكريس : احتفال الشعائر والطقوس الذي يبدأ به الانساب - إلى ديانة مثلاً .

المسؤولية في الحدث . يرفض الصبي العقوبة ويصر الأب على حرمته من دخول البيت . وحين يتسلل الصبي إلى البيت ويروح يتلخص من شفوق الحائط الطيني ويرى والده وعمه يتهمان قطع لحم « النِّصْ » المطبوخ ووالدته تبكي لأنَّه نحس بالمفاجأة ونحن نسمعه يقول : « ولأول مرة في حياتي فكرت في قتل والدي » . ولو لا أن « أويونو » قبل ذلك بقليل قد ألقى بجزء كبير من المسؤولية على « الرجل الأبيض » لساد الاعتقاد أن الكاتب يحمل التقاليد المسؤولية كاملة . لكن المشكلة كلها في الحقيقة قد ثارت بسبب تصرف « الرجل الأبيض » الذي يستدرج الأولاد ويعربهم بتوزيع قوالب السكر عليهم « قوالب ناصعة تستحق كشوط الركب وتورم العيون وألام الجروح المبرحة » . وأحياناً كانت هبات السكر هذه تؤدي إلى شجارتين آبائنا « وإحدى هذه الشجارات هي التي دفعت والد « تاوندي » إلى ملاحقته وأدت في النهاية إلى هربه والتحاقه بخدمة الأب « جيلبرت » في « دانغان » .

لم يعط « أويونو » أهمية كبيرة للفترة التي قضاها « تاوندي » في خدمة الأب « جيلبرت » . لقد أبرز في الصفحات القليلة التي كرسها لذلك إحساس « تاوندي » بالانطلاق والسعادة لأنَّه « مقدم على اكتشاف المدينة والتعرف على الرجال البيض والعيش كما يعيشون » . لكنه في الوقت نفسه لمَّا حان للنهاية التي يخبيها - الكاتب - له حين جعله يضبط نفسه وهو يفكَّر بأنه يشبه « تلك البيرغوات التي كنا في القرية نستدرجها بحوب الذرة الصفراء » . وهو بذلك يكون قد أرسى أساس مؤسسة « تاوندي » وفاقمها حين جعله يحس أنه يسير بالتجاهها . ورغم ذلك فالكاتب لا يريد أن يكون لرجل الدين من البعثة التبشيرية دور كبير في مؤسسة « تاوندي » وأكثر من ذلك فلا يبدو أنه معني بابراز كره شديد لرجل الدين أو توجس من تصرفاته ، والنقد الذي وجهه لرجال الدين - الأب جيلبرت والأب فاندرماير - رغم أنه لاذع في كثير من الأحيان

لا يتضمن بشكل واضح علاقة بالنشاط الاستعماري ونجد أن « أوينونو » يحاول تأكيد أن الصلة التي نمت بين « تاوندي » والأب جيلبرت كانت حقيقة ومتينة رغم أنها علاقة تابع بسيد وعبر عنها على لسان تاوندي بعد موت الأب جيلبرت : « لقد مت للمرة الأولى » .

إذن فمأساة « تاوندي » تبدأ بالفعل مع « القومدان » . هذا ما يريد أن يقوله « أوينونو » . مع القومدان بدأ « الخوف » الحقيقى : « كنت أتهيأ للرجوع إلى (الموقع) ^(١) بعد أن أنهيت عملي عند منتصف الليل حين طلب القومدان أن أتبعه إلى مكتبه . لقد كانت لحظة مفزعة . . . » هذا الخوف الذي ابتدأ الآن سينسحب مع الرواية حتى آخرها وسيلف كل الشخص الأفارق في الرواية ، ولكننا سنلاحظ بعد سطور قليلة أن هذا الخوف سيتحول بعد لقاء الرجل الأبيض إلى شكل آخر : « ودار في خلدي أن القومدان إنسان مضحك فسعت كي لا يأتيفي الضحك » . لم يتبق من الخوف عند « تاوندي » إلا شكل منه يمكن اعتباره اذعاناً بسبب الحاجة والضعف مثلاً أكثر منه خوفاً . ورغم أن تاوندي يقدم في بعض فقرات يومياته تفصيلات عن قوة القومدان وصلابة بنائه (جذع الماهوغاني) ، وعن ضعفه هو واثنائه أمام العاصفة بالمقارنة إلا أنه بعد ذلك يكتشف أن القومدان غير مختون « لقد واسني ذلك الاكتشاف . . . قتل شيئاً ما بداخله . . . وتيقنت أنفي لن أخشى القومدان بعد ذلك » . ومنذ هذه اللحظة سيعمل صوت السخرية عند « تاوندي » . (قبل ذلك كانت يوميات تاوندي « غير ساخرة » ، بالنسبة لتاوندي ، لكنها ساخرة بالنسبة لأوينونو) . سنسمع « أوندواوا » الطبال يوقع على طبله رسالة ساخرة عن الرجل الأبيض ، ولن يوفر تاوندي مناسبة لا يسخر فيها في يومياته من « الرجل الأبيض » عائلة « سالفين » المتحذلة ، الطبيب الفخور بزم الكابتن ، الأنستين « دوبوا »

(١) الموقع : المقصود هي الأفارقة في دانغان .

بضفيري ذيل الخنزير وزوجة مدير السجن والسيدات اليونانيات يعرضن ملابسهن الحريرية ، غاليت رئيس الشرطة ذو العنق الرفيع الطويل والمهندس الزراعي الذي استطاعت خليلته الأفريقية أن تخدعه فتسرق منه أمواله ورواتب العمال وتهرب إلى غينيا الإسبانية وحتى السيدة « زوجة القومندان التي التحقت به مؤخراً بعد فترة من قدومه وأصبحت عشيقه السيد مورد مدير السجن وكذلك القومندان الذي أصبح بالنسبة للأفارقة « القومندان الذي تفتح زوجته ساقيها في الخنادق والسيارات » .

لقد كان وصول « السيدة - زوجة القومندان - إلى دانfan حدثاً هاماً أعاد الخوف إلى نفس تاوندي « سرت في جسدي انتفاضة للمس يدها الصغيرة الرطبة وارتجفت هي كزهرة رقصها نسيم عليل . . . إنني أحس بالخوف . . أحس بالخوف . . . » . وحين ابتدأت علاقاتها الغرامية بمدير السجن تسارع اقتراب « تاوندي » من نهايته . لقد قدم « أوينون » ذلك بصورة دقيقة ومهيبة وأظهر كيف أن مجرد « معرفة » تاوندي بما يجري كانت كافية لتحديد نهايته رغم إخلاصه الشديد للقومندان وحتى إحساسه بالألم لما يحدث من خيانة له ودون أن يجعل ذلك ينعكس بعدم احترام للسيدة . وقد لاحظت زوجة القومندان ذلك ورد فعلها كان حقداً طاغياً عبرت عنه بابداء تهذيب ينم عن الازدراء تجاه تاوندي . فصارت تناديه « ياسيد جوزيف ! » مرفة مناداتها بنظرات ذات معنى . والقومندان الذي قدر موقف تاوندي أول الأمر وأظهر حزماً تجاه زوجته عاد وتخاذل « فتقاهم » معها وصار بدوره ينادي تاوندي « ياسيد جوزيف » أيضاً . ولقد لاحظت ذلك خادمة غرفة نوم السيدة - وهي بالطبع افريقية - فحذرته قائلة « حين يلدي البيض تهذيباً تجاه مواطن أصلي فذلك يعني إشارة

(٢) جوزيف : الإسم الذي صنَّد الألب جيلبرت به تاوندي .

سيئة » ، ونصحته بالرحيل إلى غينيا الإسبانية قبل فوات الأوان . لكن تاوندي لم يفعل ، وابتدأت بالفعل خطوات « تصفيته » بين مدير الشرطة ومدير السجن . وبعد أن أشرف على الموت نتيجة التعذيب قرر أن يهرب إلى غينيا الإسبانية . أراد أن يغتنم ماتبقى له من فرصة لكنها كانت بالفعل « فرصة ضئيلة » .



بالنسبة للكاتب «أندريله يرنك» من - جنوب أفريقيا - لا يفترق الأدب عن النضال من أجل العدالة . إنه يكتب من أجل أن يقول للبيض ما لا يريدون أن يعرفوه عن السود .

أندريله يرنك ، ٤٥ عاماً ، استاذ الأدب في جامعة «غراهامستون» . ترجم للغة الأفريقية - النير لأندريله وهي لغة جنوب أفريقيا الرسمية إضافة إلى الانكليزية ، ترجم شكسبير وكامي «العادلون»

أهم كاتب باللغة الأفريقانية ، مناهض للفصل العنصري (ابارتيد) ، تعالج مؤلفاته مسألة العلاقات بين مختلف المجموعات البشرية والقوميات التي تشكل جمهورية جنوب أفريقيا ، شاهد على عصره . ويعتبر « برينك » نفسه كاتباً ملتزماً ، وهو يسعى - ككاتب أبيض - إلى أن يُنبئ البيض وبخدرهم . ترجمت خمس من رواياته إلى الفرنسية ، صدر منها عن دار النشر « ستوك » : « فصل أبيض وجاف » ظهرت عام ١٩٨٠ وحصلت على جائزة « ميدسيس » للأدب الأجنبي . صدرت له أخيراً رواية « الصمت الصاحب » التي تتحدث عن تمرد للعبيد داخل بلاد الكاب عام ١٨٢٥ .

سؤال : - ماهي الطريقة التي تتبعها ؟ كيف يمكن أن تكون كاتباً مناهضاً للفصل العنصري (ابارتيد) في جنوب أفريقيا وبالوسائل التي تمتلكها ككاتب ؟

- كان أبي قاضياً ، قضيت طفولتي بين مجموعة قرى في جنوب أفريقيا . هذا يعني أنني عشت في عالم اتفاقي ومحافظ . حتى قدومي إلى باريس لم أكن قد إلتقى بملوينين . كان عليَّ أن أعيش في باريس بين عامي ١٩٥٩ و١٩٦١ لدراسة الأدب المقارن في السوربون ، لأنني ولأول مرة في حياتي بأناس سود قادمين من شتى أنحاء العالم . كنا نستطيع أن نجلس سوية وحول طاولة واحدة من أجل أن نتحدث .

ما اكتشفته حينذاك هو أنه ليس ممكناً أن نقيم علاقات طبيعية مع هؤلاء الناس المحترفين والمغضوب عليهم في جنوب أفريقيا ، والذين لم أجده المناسبة لأحدثهم كأصدقاء أو كأنداد لي فحسب بل زيادة على ذلك لقد فتح هذا الاكتشاف أمامي منافذ جديدة .

في عام ١٩٦١ ، عدت إلى جنوب أفريقيا وعيّنت أستاذًا في الجامعة . كنت أدرس الأدب الأفريقي والهولندي المعاصرين . وبدأت أكتب ، كنت معدوداً ضمن مجموعة شباب تُسمى « كتاب الستينات » ، بدأنا وبشكل متظاهر تقريباً نحطّم الأصنام البالية التي سيطرت على أدب جنوب أفريقيا ، أصنام على الصعيد الأخلاقي والديني والسياسي أيضاً .

لκفني عدت إلى فرنسا في نهاية عام ١٩٦٧ وبقيت فيها طوال عام ١٩٦٨ . كنت قد عدت وفي بيتي البقاء فيها بشكل نهائي . لκفني أدركت ويسير أحداث عام ١٩٦٨ أن على الكاتب - إذا كانت الكتابة بالنسبة له شيئاً مهماً لا « تزجية للوقت » - أن يكون في علاقة مع المجتمع بكامله .

أيقنت أنه لا يمكنني أن أعيش خارج مجتمعي . كان من السهل علىَّ أن أقيم على بعد عشرة آلاف كيلومتر مُعتقداً ومتجنبًا النتائج المتوقعة لكتاباتي . إن الكتابة بالنسبة لي ليست تسلية . إنها فهم حقيقي وعميق للحياة . لا أستطيع أن أتصور الوجود دون كتابة ، ذلك لأنّي أعيش الشيء عند كتابته ، أكتشف معناه .

(الأدب الخاضع للنزعات القومية)

سؤال : كيف كانت الأوضاع في جنوب أفريقيا في عامي ١٩٦٨ ،

؟ ١٩٦٩

كيف كان هؤلاء الكتاب الذين تتحدث عنهم يكتبون وينشرون ؟ .

كان ذلك صعباً في تلك الفترة ذلك لأن قانون الرقابة قد صدر بالضبط عندما بدأ هذا الجيل « جيل الستينيات » بالظهور . كنا قد بدأنا بمجلة أدبية صغيرة من أجل نشر أفكارنا الجديدة في تلك الحقبة . كنا نريد أيضاً أن نهاجم

أدب اللحظة ، أدب تجاوزه الزمن لأنه يعود إلى القرن التاسع عشر : البيض المساكين ، الجفاف ، المزارعون . أدب خاضع للنزعة القومية للبيض ، خاص جداً بجنوب أفريقيا ، ينوه من تعصب ديني قاسٍ .

كذلك عندما بدأنا نطرح تساؤلاتنا حول مواضيع مثل الأخلاق ، الأدب ، الفلسفة ، الدين ، جوهرنا بردود فعل خيالية . ليس الأدب وحده هو الذي خلق مثل ردود الفعل تلك ، بل نتج عنها كنا نقوله مقاومة من الحكومة ، من أيديولوجية الساعة ، من فكرة الأمة المتGANسة . . . أن نتجاسر ونتساءل حول أشياء كانت مقبولة من قبل الجميع ، لقد بدا ذلك كما لو كان انتهاكاً للحرمات .

إبتداءً من عام ١٩٦٨ ، كان « برتبانخ » بالذات و « جان رابي » وأنا ، من الذين بدأنا بقيادة المعارضة على الصعيد السياسي . حتى ذلك الوقت لم تكن الرقابة قد منعت كتاباً واحداً من النشر . كانت السلطات تعتبرنا أفراداً من العائلة ، أفراداً عنيدين لكننا مع ذلك جزءٌ من العائلة . لم يكن من المفضل رفضنا تماماً . . . بشرط ألا نمس مقدساتهم السياسية . . .

كانت روائيتي « أكثر سواداً من الليل » أول كتاب يمنع . إبتداءً من هذه اللحظة بدأت الأشياء تتغير . بمنعهم كتابي من النشر كانوا أكثر صراحة ، بعدها أصبح الأمر سهلاً بالنسبة لهم . إبتداءً من عام ١٩٧٤ منعت كتب كثيرة بالأفريقية من النشر .

سؤال : - أي نوعٍ من أنواع الأدب كان موجوداً في جنوب أفريقيا حتى ذلك الوقت ؟

حتى ذلك الوقت ، كان هناك ثلاثة أنواع من الأدب : أدب السود ، الأدب الأنكليزي المكتوب من قبل البيض ، والأدب المكتوب بالأفريقية . كان

لكل واحدٍ منها طريقةٌ الخاصة والمختلفة عن الأخرى . كان هناك شيءٌ من العلاقة بين الأدب الانكليزي وأدب جنوب أفريقيا لأن كلِّيَّاً مكتوب بالأنكليزية .

في بداية السبعينيات نشأ أدب جديد ، كتاب بيض وسود يلتقدون باستمرار . كان هناك شكل من أشكال التضامن بين المعارضين للنظام . خلال هذه الأعوام وجد الكتاب أنفسهم جميعاً في حركة يقودها كتاب من « سوتيلو ». لأول مرة في جنوب أفريقيا يجتمع كل الكتاب المعارضين ، يناضلون سوية ، يلتقدون من أجل أن يقرؤوا ويشعرُهم ، أو أن يعالجو مشاكلهم الأدبية ، أو الاجتماعية أو السياسية .

نتج عن ذلك للأسف أن الكتاب السود قد خسروا قراءهم السود بسبب تعاون هؤلاء الكتاب مع زملائهم البيض .

« لا أستطيع أن أخرج من جلدي »

سؤال : - وأدب السود .. عما يتحدث ؟

باختصار شديد إنه أدب معارضة . الكتاب السود يكتبون بشكل خاص شعراً أو مسرحاً . لا يرغبون كثيراً في كتابة الرواية ، لأنه يفترض أن توجه إلى القارئ بشكل مباشر وبالوسائل الأكثر نجاعة .

بالنسبة لهم يعتبر الأدب أداة نضال . الأدب بعيد عن المعركة هو أدب ترف من السهل الاستغناء عنه . عندما تصدر مجموعة شعرية جديدة يذهب الكاتب وأصدقاؤه إلى الناشر حيث يأخذون المجموعة لبيعها في الشارع . عندما تكتشف السلطات وجود المجموعة تكون الطبعة قد نفت .

سؤال : - كيف يمكن تحديد التمزق الذي يعاني منه أدب البيض
الحديث ؟ في كتاباتك مثلاً ؟

حتى الستينات وبالخصوص في الأدب المكتوب باللغة الانكليزية ، كان هناك نوع من الليبرالية الإفريقية الجنوبيّة المبالغ فيها ، أو حتى يمكن أن نسمّيها « أبوة » ، كان الكتاب يريدون أن يتكلموا من أجل السود .

أما اليوم فإن السود يقولون - وهم على حق - إننا نستطيع أن نتحدث عن أنفسنا بأنفسنا ، يمكننا أن نتحدث عن أحوالنا ، لسنا بحاجة إلى ناطق أبيض باسمنا . أعتقد أنهم على حق .

أنا ، مثلاً ، أحاول دائمًا ككاتب وكأنسان أن أعيش وأفهم ما يحدث في حياة الإنسان الأسود ، لكنني لا أستطيع أن أخرج من جلدي . إنها واحدة من مآسي الوجود ، الوضع البشري . إنني أبيض ، وسائل كذلك رغم المناسبات والمحاولات العديدة التي أردت فيها أن أكون إنساناً آخر أو شيئاً مختلفاً . لكنني وكاتب أبيض يمكنني أن أتباهي البيض إلى خطرم ما يقومون به ضد السود . أن أحذثهم عَمَّا يعنيه الانتساب إلى مجموعة البيض ، المجموعة التي تضطهد السود .

ذلك يمكن للكاتب الأسود أن يقول للسود ما يعنيه أن تكون أسود في جنوب أفريقيا ، أنا ك أبيض ، لا أستطيع أن أقول للسود ما يعرفونه ، لكنني أستطيع أن أحدث البيض عَمَّا لا يريدون أن يعرفوه . وهذا عمل لا بد منه ، لأنه في نظام الابارtheid والتمييز العنصري ، حيث العزلة المفروضة على الجميع ، يتحول الآخرون إلى كائنات مجهلة ، يكفون عن أن يكونوا كائنات بشرية ، تلك هي أكبر المشكلات ، استحالة التواصل بين المجموعات البشرية . بامكان الأدب أن يساهم في عبور هذه الهوة أو ردمها .

CONTENTS

Editorial Dr . Hossam Al - Khateeb

Studies and Articles

The African Continent : Origin , History , Civilization ... by M. Adnan Murad	7
Candide en Afrique ou le voyage d ibn batouta tr . by Dr . M. Harb Farzat	47
Lumieres sur la Litterature contemporaine d Afrique ... tr . by Khali Shatta	75
Two Articles on African Art tr . by Farid Juha	98
Literature and Political Struggle in South Africa ... tr . by Walid Qarislly	119
The Senegalese Writer Simpine Usman : a general view ... tr . by Dr . Majid Ala uddine	127
The Contemporary Appearances of folklore in the litera- ture of west Africa tr . by Az - zawi Amin	143

POEMS

Modern Poems from Africa trt . by Majd Al - Shari'	153
Selections from African Poetry tr . by Bashshar Shar	168
Poems for the Palestinian Revolution tr . by Sa' d Sa' ib	186
Selections from the poetry of President L . Senghor tr . by Dr . Jamal Shuhayyid	179

CONTENTS

- Two African Poems tr . by Maurice Jalal 210

FICTION

- A Meeting in the Dark , James Nougat tr . by Dr .
Hussam Al - Khateeb 219
- Things Fall apart , a Study of the Stories of Chinua
Achebe , by Dr . Layla Al - Malih As - Sabuni 240
- The Death of a Child .Chinua Achebe tr . by Majd
Al - Shari' 259
- The Deer , the Elephant and the Sea Horse : a tale tr .
by Dr . A . Ja'far 268
- A Break for Lunch , L . B . Ungana tr . by Yusuf Sal-
man 274

DRAMA

- A Man on the Tree , Alex Laguma tr . by Shawkat
Yusuf 294

PANORAMA

- A Quick Glance at the Library of African Literature , by
Dr . Abd Al - Nabi Staff 314
- The Boy Servant tr . by Mahmud Qadri 328
- An Interview with Andres Yarnik tr . by Abd Al -
Sahib Sabwan 335

AL-ÁDÁB AL-AJNABIYYA

(Foreign Literature Quarterly)

38 - 39 11 , WINTER - SPRING . 1984

Responsible Director :

ALI OKLA ORSAN

Editor - in - Chief :

Dr. HUSSAM AL-KHATEEB

Editorial Board :

Dr. Hani Al-Rahib

Dr. Nadia Khost

Mr. Elias Bdeibi

Arab Writers Union — Damascus, Syria

صَدَرَ حَدِيثًا عَنْ اِتْخَادِ الْكِتابِ الْعَرَبِ
كتاب وموافق

- دراسة نادي ياخوست
بَيْرُوتُ الْحَصَار
- شعر إبراهيم عطوان
مذَكَّراتُ عَشْرَةِ قَرْوَشِ
- نصية للأطفال دليل حاتمة